

رواية

ريم مراد

اجتياح

كيان للنشر والتوزيع

اجتياح ريم مراد رواية

اجتياح

رواية

تأليف :

ريم مراد

تصميم الغلاف :

أحمد مراد

تحرير أدبي _ مراجعة لغوية:

عزة أبو الأنوار

رقم الإيداع: 2016/11994

الترقيم الدولي: 6-94-6376-977-978



إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: -0235688678 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادة طبع أو نشر في أي صورةٍ كانت ورقيةً أو إلكترونيةً أو بأية وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الإهداء

إلى كل امرأة تشعر أن حياتها انتهت بالزواج.. بالخلفة.. بالتقدم في السن..
بسبب مرض أو إعاقة...

لا يا سيدتي.. الحياة لم تنته هكذا، ما دام بداخلنا حياة فنحن على قيد
الحياة.

أيتها المرأة.. كوني سعيدة.

المرأة عندما تكون سعيدة تنعكس سعادتها على من حولها، أما المرأة التعيسة
فهي كالأموات لكنها تتنفس.

كوني سعيدة.. لا تتأثري بكلماتٍ قاسية أو نقدٍ هدّام، اعرفي مقدارَ نفسك
جيدًا ولا تسمحِي لأحدٍ مهما كان أن يقلل من شأنك، ولا تضعي مفتاح
سعادتك ومؤشر نفسك في يد أو لسان أحدٍ غيرك.

كل فردٍ منا له موهبة ومميزات، فابحثي عن ذاتك من منظورك أنتِ، وحينها
فقط ستألقين وتشعّين جمالاً وحيوية لم تتخيلي يومًا أنك تتمتعين بهما.

المقدمة

الحب بالنسبة إليّ هو كلمة قالها لي جدي -رحمه الله- بعد وفاة جدي. منظر
لن يُمحي قط من خيالي، وهو يقول لي والدموع في عينيه:

«حرف واحد هو الفرق في حياتي مع جدتك ودونها، فحياتي معها كانت
عاطفة، وبدونها أصبحت حياتي عاصفة».

عندما كتبتُ كتابي السابقين كانا أدبًا ساخرًا، يجمع بين العامية والفصحى،
وبعدهما قررت أني يجب أن أجمع قصصي القصيرة في مجموعة قصصية
تُنشر في كتاب ينزل الأسواق، فأنا أصلاً أكتب الفصحى وأحبها، ويسوؤني ألا
أرى أعمالاً لي مكتوبة باللغة العربية الفصحى، فأخذت قراري أن أبدأ العمل
في مجموعتي القصصية.. وقد كان.

بدأت فعلاً باختيار قصة من المجموعة، وبدأت العمل عليها وتصحيحها،
وكلما عملت عليها أضفت كلمات، والكلمات تحولت لسطور وصفحات، حتى
فوجئت بها تأخذ شكلاً آخر غير القصة القصيرة، ومع الوقت وجدتهني أميل
بها نحو القالب الروائي، وها هي فعلاً بين أيديكم، أول أعمال الروائية،
فأتمنى أن تعجبكم.

في كثير من الأحيان نعيش حياتنا ونحن نختبئ من ذواتنا، لا نريد أن
نواجهها، لأننا من داخلنا نعلم جيداً أن هذه الحياة التي نعيشها ليست الحياة

التي حلمنا بها وتمنينها ووعدنا بها أنفسنا، لكن التعوّد على نمط معين من الحياة، والخوف من خوض تجربة جديدة، والقلق من المجهول، كل ذلك يُقيّد حركتنا ويدفعنا دفعًا للاستمرار في نفس الطريق الذي بدأناه.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
وَرَحْمَةً ۗ}

آية قرآنية مكتوبة في مقدمة دعوة زفافها منذ ثلاثة عشر عامًا مضت،
وحتى بضعة أشهر كانت ندى تفعل كل ما في وسعها كي تحصل على هذه
المودة وتلك الرحمة، حتى فوجئت بزواجها يخبرها أنه على علاقةٍ بسيدةٍ
تعمل معه في البنك، يحبها بجنون وينوي الزواج منها.

في هذه الليلة تناقشا كثيرًا، وحاولت إثناءه عن ما ينوي، ولكنها ما أن رأت
في عينيه هذه النظرة التي تعرفها جيدًا، نظرة الإصرار التي رأتها منذ سنواتٍ
مضت وهو يحارب باستماتة حتى يوافق والدها على زواجهما، بعدما رفضه
لفارق السن بينهما، لم تحاول أن تكمل معه هذا الحديث أو تعرف منه أيَّ
تفاصيل، فقط أخبرته أنها تُفضّل الطلاق على أن تتشاركه مع امرأةٍ أخرى.
وتطلقا بنفس السرعة التي تزوجا بها.

أمضت ندى بعدها عددًا من الأسابيع تختبئ بين طيّات فراشها، تختبئ من
أي شيء وكل شيء، حتى صغيرتها سميحة تركتها في عُهد أمها، فالصدمة
التي كانت تعيشها تركتها في حالةٍ غريبةٍ من السكون، لا يشغل تفكيرها
سوى علاقتها بإسماعيل.

أسابيع كثيرة أمضتها ندى تفكر في تلك العلاقة، بدءًا من اللحظة التي تقابلا فيها في البنك حيث يعمل إسماعيل، مرورًا بالسرعة التي تطورت بها تلك العلاقة، بعدما فوجئت به يقف عند بابِ كُليَّتها آخر يوم امتحانات، يصارحها بإعجابِه بها منذ اللحظة التي وقعتُ فيها عيناه عليها، وحتى علاقة الصداقة التي جمعتهما واستمرت أسابيع قليلة، قبل أن يتقدم لوالدها طالبًا يدها للزواج، وصولاً لزواجهما بعد فترة تعارف وخطوبة لم تتعدَّ أربعة أشهر.

أسابيع كثيرة قضتها ندى تحاول أن تضع يدها على نقطة الضعف في علاقتهما التي دفعته للارتباط بأخرى، ولكنها لم تجد، بالعكس، لقد اكتشفت أنها كثيرًا ما تهاونت في كثيرٍ من حقوقها من أجل إرضائه، حتى لو على حساب نفسها وأعصابها ومشاعرها.

وبعد محاولاتٍ كثيرة من المحيطين بها، استطاعت ندى أن تكسر حاجزَ الصدمة وتخرج، خرجت من أجل صغيرتها التي أصابها اكتئابٌ ما، يصيب الصغار عندما يتعرضون لتغيير في نمط حياتهم، فهي بالرغم من سنوات عمرها العشرة لكنها شعرت بكل ما جرى في دنياها الصغيرة من أحداث، مما أثر سلبيًا على نفسيته.

خرجت ندى، وروحها ما تزال عالقةً بين طيّات ذاك الفراش الذي جمعها يومًا بحبيبها، واليوم يجمع حطامَ قلبها مع ذكرى من كان حبيبها. خرجت بقايا امرأة، لم تخرج ندى التي كانت، لم تخرج ندى المرححة المحبة للحياة، لم تخرج ندى القوية التي يلجأ إليها الجميع لحل مشكلاتهم لرجاحة عقلها وتعقلها في الحكم على الأمور.

خرجت بجسدها، ولكن مشاعرها بقيت عالقة في منطقة تشبه مثلث برمودا،
مشاعر حائرة بين عقل وقلب في صراع مستمر، فالقلب ما زال يدمي من
هول الصدمة التي حلت به، والعقل ينيبها أنه آن الأوان لتستجمع قواها
وتخرج من هذا النفق المظلم الذي وضعت نفسها فيه، فهي تحتاج أن
تستعيد نفسها حتى لا تضيع منها نهائيًا في خضم الأحداث، والأهم أن
صغيرتها تحتاج إليها بكامل قواها.

في قرارٍ نفسها كانت تعلم أن أهم خطوة ستساعدها للخروج من هذا النفق،
هي أن تخرج من هذه الشقة التي تحمل بين جدرانها ذكريات سنوات قضتها،
ففي كل ركنٍ فيها توجد ذكرى تريد أن تنساها، ذكريات كلما مزّت في خيالها
ثُقَلب عليها كثيرًا من المواجه، ففي هذه الشقة بدأت مع إسماعيل حياتها
التي تخيلت أنها ستكون حياةً مثاليةً، طالما حلمت بها، ولكنها كانت أبعد ما
تكون عن المثالية. لذا يجب أن تترك تلك الشقة وتبتعد، ستنتقل لشقتها التي
اشتراها لها أبوها قبل وفاته بأشهرٍ قليلةٍ، كأنه كان يرى المستقبل، ولكن
خروجها من شقة الزوجية كان مشروطًا بقرارٍ اتخذته، فهي لن تخرج منها
قبل أن تدفن كل ذكرياتها فيها، فهي لا تريد أن تأخذ معها من الذكريات ما
قد يتسلل إلى عقلها، فيوقظ بداخلها ذكرى إسماعيل والألم الذي سببه لها.

لكن ما اعتقدته مهمةً سهلةً اتضح أنه مهمةٌ من أصعبٍ ما يكون، واكتشفت
أن دفن تلك الذكريات لن يحل مشكلتها، ولن يقيها من صدماتٍ مماثلةٍ في
المستقبل، فإذا أرادت فعلاً أن تغلق هذا الجرح الغائر الذي تركه إسماعيل
بداخلها فيجب عليها أن تعود إلى البداية، ليس بدايتها مع إسماعيل، ولكن
بدايتها مع الحياة، حياتها المثالية بين أب وأم متحابين رسّخا في وجدانها

منذ نعومة أظافرها أن الحبَ والرومانسيةَ أجمل شيء في الوجود، يجب أن تبدأ من هذا العهد الذي قطعتَه على نفسها منذ بدأت تشعر بالتغيرات النفسية التي تطرأ على الفتيات في فترة المراهقة، عهد ألا تكون مشاعرها سوى لشخصٍ واحدٍ فقط، وقررت ألا تدخل في أي علاقاتٍ عاطفيةٍ وأن تحتفظ بمشاعرها بكَرًا للشخص الذي سترتبط به. كان قرارًا مثيرًا للضحك بينها وبين صديقاتها:

- وكيف ستجدين الشخص الذي سترتبطين به إن كنتِ رافضةً أصلاً الدخول في أي علاقة؟!

كانت دومًا تجيب ضاحكة: وقتما يئن الآوان سيجدني و أجده.

لذا عندما رأت إسماعيل يقف لها هذا اليوم عند بوابة الجامعة بابتسامته الساحرة على وجهه، وثقته في نفسه التي كانت تزيدَه وقارًا وجمالاً في نظرها، أسر قلبها على الفور، وبعدها صارحها بإعجابه بها شعرت أن هذا هو الشخص الذي كانت تنتظره طيلة حياتها، هذا هو من ستعيش معه قصة حب شبيهة بقصة أمها وأبيها، هذا هو الشخص الذي احتفظت من أجله بكل تلك المشاعر والأحاسيس، هو من بعثه الله من أجلها، لقد أتى ومعه علامة من السماء، لقد كان رفيقًا أحلامها ليلة أمس، صحيح أنها لم تتذكر من الحلم سوى أنها حلمت به، ولذا عندما رآته يقف لها على باب الجامعة اعتبرت ذلك علامةً من الله.

لذلك وافقته على سرعة إتمام الزواج، واستطاعت إقناعَ والدها أن يوافق على طلب إسماعيل بسرعة زواجهما، بالرغم من معارضته لهذه السرعة في

الزواج، خصوصًا أنه كان رافضًا هذا الارتباط من البداية، لفارق السن بين ابنته وإسماعيل.

- ندى حبيبتي.. أنتِ لم تأخذي الوقت الكافي للتعرف على إسماعيل، أعطي نفسك فرصةً لتتعرفي أكثر عليه وعلى طباعه وعاداته، فهذا زواجٌ للعمر. وبصراحة فارق السن بينكما هذا يقلقني، ولذا أفضل أن تتمهلي قليلاً ليتسنى لك أن تبدئي حياتك العملية قبل الزواج، تقابلين أناسًا وتكتسبين خبراتٍ تعينك في حياتك سواء مع إسماعيل أو غيره.

- يا أبي هذا زواجٌ وليس معركةً، ثم إن عشر سنوات فارق سن بيننا ليست كبيرة للدرجة، فأنا أريد رجالاً مثلك وقورًا وحنونًا ويعاملني كما تعامل أنت أمي، باحترامٍ واحتواءٍ وصبرٍ وحنان، وبعدما رأيتُ وتعاملتُ مع أصدقاءٍ كثيرين لي في الجامعة والنادي، أستطيع أن أوكد لك أن هذه الصفات لم أكن لأجدها في شاب صغير السن لم يعتد تحمّل المسؤولية، وكل ما يريده هو الخروج والفسح وقضاء وقته مع الأصدقاء. صحيح أن إسماعيل يتمتع بخبرات كثيرة عني نظرًا لفارق السن والخبرة في الحياة العملية، ولكني -كما تقول لي دومًا- عقلي كبير وسابقة سني، فأكيد سأستطيع التأقلم مع فارق السن هذا. أقسم لك يا أبي أنني منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها إسماعيل في ذلك اليوم عندما اصطحبتني معك للبنك، انبهرتُ به وبشخصيته وبأدبه في التعامل مع من حوله، وبدقته في عمله، وأؤكد لك أن هذا هو الشخص الذي أريد أن أكمل مشوار حياتي معه، ولن أغيّر رأبي هذا لو بعد مليون سنة، فلماذا الانتظارٌ وتأجيلُ الزواج؟ وبالنسبة للعملِ فأنا اتفقتُ مع إسماعيل أن أبدأ العملَ خلال شهرين أو ثلاثة بمجرد التأقلم على حياتي الجديدة.

كان هذا الأمر أكثر ما ندمت عليه ندى، وتمنّت لو يرجع بها الزمن لتأخذ الوقت الكافي للتعرف على إسماعيل قبل الزواج، لعل علاقتهما تأخذ منعطفًا آخر غير هذا المنعطف الذي وصلا إليه، ولكنها كانت تعرف أن الندم لن يفيد الآن، فهي وإسماعيل قد انفصلا، وآن الأوان أن تلمم شتات نفسها من أجل ابنتها ومن أجل نفسها أيضًا، فيكفيها الأسابيع التي قضتها بعد الطلاق تؤنّب في نفسها وتبحث عن ما فعلته من أخطاء، ليصل الأمر بإسماعيل أن يقع في حبّ امرأةٍ أخرى.

أيام كثيرة مضت على ندى وهي تدور في نفس الدائرة المفرغة، وتتخبط ما بين تحليلٍ لأحداث حياتها الزوجية وتأنيبٍ لنفسها على أشياء كثيرة فعلتها، وتندم عليها الآن، وخصوصًا أنها أشياء لم تأخذ التقدير المُتوقّع من إسماعيل.

كل هذا لم يكن يُطمئن أمها، التي كانت تراها تذبل كل يوم زيادة، وحاولت أن تقنعها بضرورة زهابها لطبيب نفسي ليأخذ بيدها ويساعدها أن تمر من هذه الفترة بسلام، ولكن ندى رفضت، وذكّرتها أنها أخذت كورسات على الإنترنت في علم النفس، وأنها مثلما ساعدت مئات السيدات اللاتي كن يلجأن إليها من خلال مدونتها، ستساعد نفسها. وأعطتها تلك المحادثة مع أمها الدفعة التي كانت تحتاجها لتسحب نفسها من مستنقع تأنيب الضمير الذي كانت تغرق فيه كل يوم أكثر من اليوم الذي يسبقه.

قررت أن تجرب أسلوبًا آخر للتعامل مع أزمته، أسلوب الورقة والقلم، الأسلوب الذي علّمها إياه والدها، وكثيرًا ما كانت تستخدمه كلما مرت بأمور

كثيرة متشابكة في حياتها، فكانت تضع كل أفكارها على الورق وتبدأ في تحليلها.

فتحت ندى كراسة مذكراتها وبدأت في تدوين المحطات المهمة في حياتها مع إسماعيل، عسى تساعدها في الوصول لخط النهاية في قصتها معه.

عادت إلى البداية، بدأت بتعارفهما السريع ووعوده الوردية لها بحياة مثالية، ثم الأشهر القليلة التي سبقت الزواج، «الشهور الحلم» كما كانت تطلق عليها، ثم زواجهما وأيامهما الأولى في شهر العسل، ثم العودة وظهور الجانب الآخر في شخصية إسماعيل، الجانب الذي لم تكن تعرفه، كأنه شخص آخر غير إسماعيل الذي ارتبطت به وأحبته وتعلّق به قلبها، شخص كالرجل الآلي، كل شيء عنده بنظامٍ وميعاد، حتى علاقتهما الحميمة، كثيرًا ما كانت تتمنى أن تصرخ فيه وتقول له: «أنت لست إسماعيل الذي أحبته وتزوجته، هذه ليست الحياة التي وعدتني بها»، ولكنها كانت تتراجع، فهي لا تريد مواجهة مع إسماعيل تؤدي إلى مشكلة وشجار، فخصامه صعب ويمكن أن يستمر لأيامٍ طوال، وهي نفسيًا لم تكن ممن يتحملون مثل هذا الخصام الذي كان يستهلك كثيرًا من الطاقة، وكثيرًا ما كانت تجد نفسها تفكر في الانفصال، ولكنها كانت تتراجع، فهي لم تكن من الشخصيات التي تستسلم بسهولة للفشل، ولم يكن عندها استعداد أن تعترف أمام نفسها أو أمام والدها بخطئها الذي حذرهما منه. لقد أحبته بكل جوارحها، أحبته بكل مشاعر الحب التي عاشتها في قصص صديقاتها عن الحب ولم تجربها، وفي الكتب التي قرأتها، وفي الأفلام الرومانسية التي أدمنتها لدرجة العيش في قصة حب البطله والبطل، أحبته بكل جزء بداخلها قاوم عشرات المحاولات من أصدقاء لها

لاختراق قلبها، الذي نذرتة بكرًا لمن احتفظت له بمشاعرها، أحبته بالرغم من صدمتها فيه وفي الصورة التي تخيلتها لحياتها معًا، حياة مليئة بالورود وكلمات الحب والأغاني والتمشية على النيل، أشياء لم تفعلها من قبل مع أي رجل، واحتفظت لإسماعيل بالحقوق الحصرية لها من قبل حتى أن تعرفه، وعندما واجهت الواقع والحياة الحقيقية ووجدتها مخالفة لما توقعته، أصيبت بخيبة أمل، دفعته أن تخلق في خيالها حياةً كانت تلجأ إليها كلما أصابها الإحباط من حياتها، كأن عقلها خلق لها عالمًا موازيًا تدخله لتحتمي به من الواقع.

في هذا العالم الموازي كانا يجلسان معًا صباحًا قبل أن ينزل عمله، ويتحدثان ويفطران معًا، كانا يخرجان مرة أسبوعيًا، وكان يأخذها في حضنه مساءً قبلما يناما ويتحدثا، في هذا العالم الموازي الذي خلقتة كانت تفعل مع إسماعيل كل ما لا يفعله معها في الحقيقة، كل شيء ما عدا هذا الشعور بالاحتواء، الذي كانت تطوق نفسها إليه، شعور لا تستطيع أن تشعر به في فقاعتها الوردية، شعور تحتاج أن تشعر به بين ذراعي زوجها، ولكن كيف؟!

في نفس الوقت كانت تقنع نفسها أنها ستستطيع تغيير طباع إسماعيل مع الوقت، ولكنها في النهاية عندما اكتشفت أنه لن يتغير وأن هذا هو شكل حياتها من الآن فصاعدًا، باتت تصبر نفسها وتقول إنه نصيبها الذي قسمه الله لها، وهي بداخلها كانت تعلم أن حبها له هو نقطة الضعف التي حولتها إلى عجيبة طرية في يده يشكلها كما يريد، ولكن كانت تُطمئن نفسها بأنه أيضًا يحبها، صحيح أنه حب أناني، فهو يريد كل شيء على مزاجه ونظامه، ولكنها قط لم تفقد الأمل في أن تخترق أسواره العالية وتغيره مع الوقت.

كلما مرت الأيام -مع الأسف- كانت تكتشف عدم نجاحها في تحقيق التغيير الذي كانت تريده، فخلق لها عقلها الباطن حالة من الاستسلام المُقنَّع، دفعتها لقبول الأمر الواقع، وتعلمت أن تهدئ نفسها بوضع كلمات باردة، كانت ترددها على نفسها كلما شعرت بالإحباط والحزن من البرودة التي تسري في شرايين علاقتهما:

«إسماعيل ليس شخصًا سيئًا، وليس به عيوب فظيعة لا تُحتمل، هو رجل عادي ككل الرجال، احمدي ربنا. ثم من قال لك إنك لو تركته لن تقعي في من هو أسوأ منه! ربنا لا يحب البطر يا ندى. ثم أن هذا نصيبك الذي انتظرتَه، فاصبري وارضي، أكيد سوف يتغير مع الوقت، كما أنك أيضًا فيك من العيوب، فلستِ بملاك. حتى لو لم تستطعي تغييره فالحياة يجب أن تسير. ولنكن منطقيين لا أحد يتغير، فلاذخر طاقتي التي ستضيع وأنا أحاول تغيير إسماعيل إلى الصورة التي أريدها، فالواقع والتجارب تقول إنه لا أحد يتغير بعد سن الطفولة. يقال إن الفرد منا في طفولته كأنك تخبز كعكة، تستطيع أن تضع فيها أي مكونات تريدها، ولكن بعدما تدخل فرن الطفولة وتخرج منه لمرحلة المراهقة، كل ما نستطيع فعله هو أن نزين تلك الكعكة من الخارج فقط، فغالبًا أي محاولات للتغيير ستبوء بالفشل وتجر معها إحساسًا بالإحباط والضيق. فاعقلي الأمور، وحينها ستجدين أن الحل هو أن تتقبلي حياتك كما هي.»

ومع الوقت اكتشفت أن إسماعيل بخبرته في الحياة وقوة شخصيته جعلها مثل الخاتم في إصبعه، فكثيرًا ما كانت تتعجب من نفسها، كيف وهي النمرة العنيدة المثابرة تحوّلت بعد الزواج إلى قطة وديعة لا تعارض طلبًا لزوجها!؟

ما هذا الاستسلام الكامل لإرادته وطلباته؟! كيف تهاونت في كثير من أمورها الشخصية أمام رغبة زوجها المغايرة لما تريده؟! كيف سمحت لنفسها أن تكون ضعيفة أمامه بهذا الشكل؟! هل كان السبب هو حبها له وتعلقها به؟ ثم ترجع وتعاتب نفسها: أي حب هذا الذي يحيل صاحبتة لتمثال أصم وأبكم، أكيد لم يكن حبًا بمعناه المعتاد الجميل، بل كان مجموعة متناقضة من المشاعر، مشاعر خنوع وحب أعمى من جانبها، ومشاعر من السيطرة وقوة الشخصية والأنانية من جانبه، غُلفوا في سيلوفانة جميلة ملونة تحمل اسم حب.

عندما رفض أن تبدأ العمل كما اتفقا قبل الزواج لم تعارضه، وقالت ربما يريدني بجانبه في كل وقت، وعندما صمم على تأجيل الإنجاب حتى يستمتعا بحياتهما وافقت، بالرغم من رغبتها الشديدة في الإنجاب على الفور، فهو كان يتمتع بذكاء حاد وقدرة على فهم الناس، وندى بطيبتها وحبها له ودونما أن تشعر سلمته منذ أيامهما الأولى كل مفاتيحها، فكانت بالنسبة إليه كالكتاب المفتوح، يعرف جيدًا الأسلوب الذي يجعلها تستسلم له ولمطالبه، وأهمها أسلوبه السحري الناعم الذي كان يستخدمه معها كلما أراد إقناعها بشيء، وهي كانت تعلم ذلك جيدًا، ولكنها لم تفعل شيئًا لتوقف نفسها عن مجاراته، وكثيرًا ما كانت تتعجب من نفسها:

«يا ندى.. لا أحد منا بلا نقاط ضعف.. نقطة ضعف تسقط أمامها كل قلوبنا وخطوط دفاعنا، وحينها نصبح كالطفل أمام فاترينة الحلوى، وهذا شيء طبيعي وإلا لن نكون بشرًا. ولكن المهم ألا نمكّن غيرنا منا ومن مشاعرنا وأحاسيسنا، فالبعض موهوب في قراءة الآخرين واستغلال نقاط الضعف

لديهم.. انتبهي يا ندى ولا تمكّني إسماعيل منك أكثر. كفى كونك كالكتاب المفتوح أي عابر في مشوار حياتك يستطيع أن يطلع عليه ويقلب في صفحاته».

وبعد مرور العام الأول على زواجهما وصلت ندى للنتيجة النهائية، هذا هو شكل حياتهما معًا، ووجدت نفسها للمرة المائة أمام خيارين: تستسلم وتترك سفينة الزواج وتنسحب بهدوء، أو تكمل مع من وهبته حبها حياةً أقل من توقعاتها ولكنها حياة هادئة وسلسة. وكان الاختيار الثاني، اختارت أن تكمل معه، ووجدت نفسها حبيسة حياة روتينية مملة، لا تجد ما تفعله طوال يومها سوى مشاهدة التليفزيون وزيارة الثلاجة بصفة مستمرة، زيارات لم تتوقف إلا عندما اكتشفت أن تلك الزيارة للثلاجة كلفتها ثلاثين كيلوجرامًا من الوزن الزائد في أقل من عام، ثلاثون كيلو حوّلتها من كتلة نشاط وحيوية إلى مخدة إضافية على الكنب، وكثيرًا ما سمعت تعليقات من أسرتها حول وزنها الزائد وحول عاداتها في الأكل:

«يا ندى يا ابنتي أرجوك! ما الذي جرى لك؟! أين ندى التي كانت تقيس نفسها بالمازورة يوميًا وإذا وجدت سنتيمترًا زيادة كانت تقوم الدنيا ولا تقعدا حتى يختفي؟ أين ندى التي كانت تقول الأكل وسيلة للبقاء لا غاية للحياة؟ أين ندى التي كانت تلفت الأنظار في أي مكان تذهب إليه بجمالها واعتنائها بنفسها وبجسمها الجميل؟ لم تكوني نحيفة ولكنك لم تصلي إلى هذه المراحل قط».

كلمات كانت تدخلها من أذن وتخرجها من أخرى، حتى استيقظت يومًا بصعوبة في التنفس استدعت ذهابها للمستشفى وجلسة أوكسجين، وبقدر ما

كانت كلمات الطبيب الذي عالجها قاسية، إلا أنها سببت لها ما يشبه صدمة كهربية نبّهت كل حواسها المُعطلّة، فقد قال لها إن مثل هذه الحالة تحدث كثيرًا لذوي الوزن الزائد خلال النوم، حالة انقطاع التنفس الفجائي، يمكن أن تنتهي بالوفاة خلال النوم في إحدى المرات.

في هذا اليوم جلست ندى مع نفسها جلسة مطولة، حللت فيها كثيرًا من الأمور، وقررت أنها يجب أن تغير الكثير من أسلوب حياتها، فيكفيها الأشهر الماضية التي ضاعت من عمرها منذ زواجها:

«كفاكِ يا ندى هذه الأشهر الماضية التي أمضيتها لا تفعلين شيئًا سوى الجلوس أمام التليفزيون والأكل، كل انفعالاتك كنتِ تترجمينها في صيغة أكل، إذا فرحتِ تأكليين، إذا حزنتِ تأكليين، إذا شعرتِ بالملل تأكليين، حين تحبطينِ تأكليين، أصبحت هناك علاقة تصاعدية بين ثلاجتك ونفسيّتك، كفاكِ يا ندى، ما الذي جرى لك؟ لماذا اعتبرتِ أن عدم حصولك على الصورة التي رسمتها لعلاقتك بزوجك هي نهاية المطاف بالنسبة إليك، أهملتِ نفسك وجسمك وحتى عقلك تعطلّ عن التفكير، لماذا فعلتِ ما أقسمتِ ألا تفعلينه، وتحولتِ إلى إحدى هؤلاء السيدات اللاتي يفقدن هويتهن بعد الزواج ويتحولن إلى تابع ممسوخ لأزواجهن. ضعي نقطة وابدئي سطرًا جديدًا، لا تضعي سعادتك في يد إسماعيل، أوجدي لنفسك هواية جديدة تسليكي وتشغل وقت فراغك الذي تشغليه بالأكل».

وبدأت ندى مرحلة جديدة من حياتها، لا يوجد فيها كلمة ثلاجة أو تليفزيون، مرحلة بدأتها بقرار فقدان الوزن الزائد الذي اكتسبته منذ زواجها، قرار نفّذته بدقة وصرامة، تقنين الأكل مع قليل من الرياضة، وشغل وقت فراغها

بالقراءة وتصفح المواقع والمدونات الإلكترونية وكتابة مذكراتها وخواطرها، لكنها لم تتخلص نهائيًا من هذه العادة، وكانت تعود إليها في بعض الأحيان تحت الضغط العصبي الشديد، إنما كانت سرعان ما تتدارك نفسها قبل أن يتحول الكيلو الزائد في وزنها إلى خمسة.

ومع تلك البداية الجديدة بدأت ترتب أفكارها، وقررت أن تستغل موهبتها في الكتابة في شيء مفيد، وفكرت أن تنشئ مدونة على الإنترنت تكتب فيها خواطرها وأفكارها فهي شابة وعروس جديد، ولكنها لم تتخيل قط أن تكون هذه المدونة السبب في شغل وقتها بشيء مفيد، شيء سيساعدها في الخروج من خيبة الأمل المستمرة التي تعيشها. لم تتصور للحظة أن تنضم مدونتها لقائمة أشهر المدونات على الإنترنت، فمع الوقت اكتسبت مدونتها شهرة في عالم الإنترنت وبدأت كثير من الفتيات والسيدات يلجأن إليها من خلال المدونة، يأخذن رأيها في كثير من الأمور، واقترح عليها أبوها أن تأخذ كورسات في علم النفس على الإنترنت تسليها وتساعدتها في الباب الجديد في مدونتها، باب مشكلات الأعضاء:

- طوال عمرك موهوبة يا ندى في امتصاص غضب أي شخص يلجأ إليك، وكان اسمك في العائلة «حلاله المشاكل والبير الغويط»، حتى أطفال العائلة كانوا يلجؤون إليك لحل مشكلاتهم، وبما أنك قررت ألا تبدئي عملاً الآن فأقل شيء تفعلينه هو أن تبدئي دراسة تشغل وقتك وتسليكي، وهذه الدراسة مهمة جداً صدقيني، لأنها ستساعدك أكثر في تحليل مشكلات قراء مدونتك وإعطائهم الرأي القويم.

وفعلًا مع الوقت تحولت مدونتها إلى «قاضي الغرام وحلال المشاكل» وبعد أن كانت مدونتها مجرد متنفس لها تعرض فيها آراءها وخواطرها حول الحب والحياة الزوجية، تحولت إلى صفحة يدخل فيها يوميًا المئات يقرؤون ما تكتب ويتناقشون فيه.

وكما حُيِّل إليها حينها أن تلك المدونة كانت قدم السعد عليها. حيث اتفق معها زوجها أنه قد آن الآوان أن يفكرا في الإنجاب، وبالفعل لم يمر العام إلا وكانت سميحة ابنتها بين ذراعيها، وبدأ زوجها يطالبها بغلق مدونتها والتفرغ لصغيرتهما، ولكنها لأول مرة رفضت طلبًا له وبمنتهى الحزم قالت له:

«أسفة حبيبي. أعلم أنك لم تتعوّد مني على كلمة لا، ولكن المدونة ليست مجرد تسلية كما تقول، حتى لا أحتاجها بعد مجيء سميحة، ولكن المدونة أصبحت جزءًا من حياتي، بالنسبة إليّ هي كالعامل تمامًا لكن بمواعيد مرنة».

ولم تأخذ ندى وقتًا كبيرًا بعدها لتربط الخيوط بعضها ببعض وتكتشف أن زوجها كان لا يريد أن تنشغل بشيء غيره، كان أنانيًا في حبه جدًّا، حيث كان يريد لها فقط، ومن أجل ذلك طلب منها تأجيل الإنجاب، ولكن عندما بدأت المدونة تشتهر ويذيع صيتها أصابته الغيرة لأنها انشغلت عنه، فاعتقد أن مجيء طفل لهما سيشغلها ولن تحتاج بعدها للمدونة.

وبعد جلسات كثيرة مع نفسها حللت فيها كل تفاصيل حياتها معًا وصلت لنتيجة نهائية، حقائق هي تعلمها عن نفسها جيدًا: رومانيتها الشديدة مهّدت الطريق أمام عقلها ليجعلها تحب فكرة الحب في حد ذاتها، وجعل عقلها يرسم لها حياة وردية طالما حلمت بها، وكانت هذه العوامل هي ما مهد

الطريق لقلبها كي يقع أسيرًا في حب إسماعيل، حب أعمى لا يرى العيوب
والمساوي، حب جعلها عجيبة طرية في يده يشكلها كما يريد، الآن هي
متأكدة أن حبها له واستسلامها لرغباته هما ما جعله يتمادي في دلاله عليها،
ولكنها لم تتخيل قط أن قلبه يمكن أن يميل لامرأة أخرى، بعد كل هذا الحب
الذي وهبته له، ولا تخيلت أن تكون نهاية قصتها معه بهذا الشكل.

جلساتها المطولة مع نفسها وتحليلها لثلاثة عشر عامًا من الزواج ساعداها أن
تغلق أبوابًا كثيرة كانت مفتوحة بداخلها، وقررت أنه قد حان الوقت لتُخرج
إسماعيل من حياتها نهائيًا، وأخيرًا أصبحت ندى جاهزة لتخرج من هذه
الشقة للأبد.

لكنها كانت تعلم بوجود باب واحد، أخفته منذ سنوات مضت، ووعدت نفسها
ألا تعود إليه أبدًا، ولكنها اليوم كان يجب عليها أن تواجه الذكرى المختبئة
وراء هذا الباب، حتى تكون نظفت جرحها جيدًا وتتركه ليلتئم على نظافة.

«الويل كل الويل مما يخبئه لنا الليل من ذكريات أليمة، نحاول تفادي ذكراها،
ولكن بمجرد أن يجافينا النوم تبدأ هذه الذكريات هجماتها القوية لعقولنا،
هجمات شرسة متتالية، كمقاتل يأبى أن ينهزم».

«لحظة وضع رأسنا على المخدة لحظة فاصلة في يومنا، إما يرحمنا عقلنا وعيننا ويتفقا أن يتوقف العقل عن التفكير مؤقتًا وتغمض العين جفونها، إما تتار من الأفكار والذكريات تهاجمنا.. وفجأة نجد كل شيء فعلناه خلال السنوات الماضية يأتي إلينا، ونبدأ في وصلة ندم وتأنيب وتبكييت في النفس، ونبدأ في الجملة الشهيرة، ماذا لو... وساعتها مع التفاؤل لن نرى النوم قبل ساعتين ثلاثة».

كلمات بدأت بها ندى مقالاً جديدًا في مدونتها على الإنترنت، بعدما قررت أن تستغل حالة الأرق التي انتابتها في كتابة مقال، أو بمعنى أصح تستغل هذا المقال لتشغل عقلها، فيبتعد عن فيض الذكريات الذي يهاجمها بشدة الليلة، خصوصًا أنها على بُعد سويعات قليلة من بداية جديدة في شقة والدها، ولكن هيهات، فهي للأسف لم تستطع أن تكتب جملة أخرى بعد هذه الكلمات، فقد أخذها عقلها لطريق آخر غير طريق المدونة، أخذتها الذاكرة رغبًا عنها لهذا اليوم البعيد في أواخر أحد الشتاءات، يوم كانت قد دفنت ذكراه بداخلها، ولكن قرارها بترك كل ما يخص إسماعيل بين جدران شقة الزوجية هو الذي أخرج ذكرى هذا اليوم من مدفنها، وأخذ يعيد عليها مشاهد ذلك اليوم كأنه فيلم سينمائي.

رأت نفسها تقف على باب شقتها التي تركتها على أثر مشادة بينها وبين إسماعيل، فقد فيها أعصابه ودفعها نحو الحائط بعنف، بعدها حاول إسماعيل أن يعتذر لها ويستسمحها ولكن ما فعله يومها كان بالنسبة إليها خطأ أحمر،

أمراً غير مقبول نهائياً، فهو يمس بشكل مباشر كرامتها وكبرياءها التي تربت على ألا تفرط فيهما أبداً مهما كانت الظروف أو الأسباب، ويومها أخذت صغيرتها وذهبت لمنزل والدتها طالبة الطلاق، حاول الكل أن يعرف منها سبب طلب الطلاق ولكنها فضّلت أن تحتفظ بما جرى بينها وبين نفسها، فكرامتها لن تسمح لها أن تحكي لأحد الموقف المهين الذي تعرضت له، ولا حتى أمها، رجعت بها الذاكرة لهذه اللحظة التي فتحت فيها باب الشقة ووقفت على عتبتها تُقدّم رجلاً وتؤخر الأخرى، وقد أبلغت حماتها بنيتها للذهاب لأخذ بعض الملابس لها ولسميحة من الشقة، وتأكدت منها أن إسماعيل لن يكون موجوداً فيها في هذا التوقيت، وبالرغم من كل ذلك لم يكن موقفاً سهلاً بالنسبة إليها، دخول هذا البيت الذي فرشت ورتبت كل شبر فيه بقلبها قبل يديها، وما أن دخلت إلا وقادتها قدماها لمكانها المفضل أمام الشرفة، حيث كانت دوماً تجلس وأمامها صغيرتها سميحة تلعب، هرعت لركنها هذا تبحث فيه عن ذكريات زواج دام ست سنوات، ذكريات مُحيت من ذاكرتها في اللحظة التي مد فيها إسماعيل يده عليها، زواج انتهى كأنه كان يتحىن الفرصة لينتهي، فهي لم تعد تتذكر تفاصيل المشاجرة التي أدت لتلك الواقعة، كل ما ألقى به ركنها المفضل في ذاكرتها أنها هي التي افتعلت تلك المشاجرة، لماذا؟ لا تعلم! كل ما تعلمه أنها كانت تمر بظروف نفسية سيئة بعد فقدانها لوالدها ولجنينها في نفس الشهر، كل ما أرادته في هذه الفترة هو تلك اللمسة الحانية التي كانت تستجديها من زوجها وكان يبخل عليها بها، كل ما أرادته هو أن يأخذها زوجها في حضنه ويعطيها الأمان الذي سلب منها بوفاة والدها، ولكنه لم يفعل.

جرت دموعها رغماً عنها، حاولت إيقافها ولكن دون جدوى، واستسلمت لفيض من الذكريات، ذكريات الماضي القريب، وبدأ الندم يدق أبواب عقلها الذي أخذ يبحث عن الذكريات السيئة ليحارب بها تلك الذكريات الجميلة المتدفقة، ذكريات البدايات بينها وبين إسماعيل، ولكن أيضاً بلا جدوى، فما زال عقلها يذكرها أن هذا هو الشخص الذي انتظرتة سنوات، وحاصرتها الذكريات ما بين سيئة وجميلة.

كادت أن تغفو عندما مرت أصابع دافئة بين خصلات شعرها، لمسات جعلتها تنتبه أنها ما زالت في ركنها المفضل، وأن الأصابع التي مرت في شعرها لم تكن خيالاً بل لمسات إسماعيل التي تعرفها جيداً.

«لكن ما هذا الحنان الذي أشعر به بين خصلات شعري؟ هذا الحنان الذي ظلت أتسوله منه طوال سنين زواجنا، هذه اللمسة الحانية التي شعرت بمثلها آخر مرة في المركب الذي أخذناه في النيل قبيل كتب الكتاب».

لقد كان كتب الكتاب نقطة محورية في علاقتهما، فقبل كتب الكتاب كان إسماعيل يفعل كل ما في وسعه ليسعدها ويبهرها ليمتلك قلبها، ولكنه ما أن أستلم قسيمة زواجهما فكأنه أنهى مهمته تجاهها، أصبح سجّاناً في يده مفتاح قلب حبيبته، لم يعد يحتاج أن يستثمر في علاقتهما بعد ذلك. فلقد صوّر له عقله وثقته بنفسه أنه ملكها بتلك الورقة.

في هذا اليوم الشتوي البعيد شعرت كأن عمره زاد عشرة أعوام، متعب، منكسر، لم تتخيل أنها في يوم من الأيام يمكن أن تراه في هذه الحالة.

وجررتها الذكريات لهذه المناقشة الطويلة التي تلت تلك اللمسات الحانية في شعرها:

- آسفة؛ غلبنى النعاس ولم ألحظ الوقت، سوف آخذ ما أحتاج وأذهب على الفور.

- لا توجد مشكلة، خذي وقتك، فما زال الوقت مبكرًا.

- أربعة أشهر ليست مدة كافية يا إسماعيل كي أنسى نظامك، على العموم الملابس التي أحتاجها في غرفة سميحة؛ يمكنك أن تأخذ دشا براحتك في حجرتك.

- أرجوك ابقِ معي للغداء، أم تريدين الخروج لأي مطعم قريب؟

نظرة تعجب ارتسمت على وجه ندى:

- ما الذي جرى لك؟ على ما أتذكر أنك كنت ترفض الخروج من المنزل بعد الرجوع من العمل، إنك فعلاً تغيرت!

- أحاول أن أرضيك، بعد محاولاتي السابقة في الأشهر الماضية.

- وهل الذي فعلته يمكن أن يُنسى بهذه السهولة، كان يجب أن تفكر مرتين قبل أن تمد يدك عليّ.

- يومها أنت التي استفزيتني، ألا تتذكرين؟ أنتِ تعلمين أنني كنت أواجه مشكلات كثيرة في عملي هذه الفترة، وبالتالي كنت أرجع منك القوى نفسيًا

وجسديًا، غير قادر على الحديث، فما بالك بمناقشة عادية كان من الممكن أن تنتظرا!

- وأنت كنت تعلم أنني أمر بظروف نفسية سيئة بعد فقداني لجنيني وأبي في شهر واحد، وكنت أحتاج حنانك وتعاطفك، كنت أحتاجك بجانبني، لا أن تبتعد عني بُعد المشرق عن المغرب.

- ومن قال لك إنني أيضًا لم أكن متأثرًا؟ أنتِ تعلمين جيدًا أنني كنت أحب والدك وكنت أنتظر هذا الطفل مثلك بالضبط، ولكن هذا ليس لب الموضوع، في ذلك اليوم كنت أنت السبب في وصولنا لما نحن فيه الآن.

- مناقشتنا يومها كانت القشة التي قسمت ظهر البعير، فالموضوع سبب خناقتنا يومها لم يكن يمثّل لي أي أهمية، إنما لا مبالاة عادية وعدم وضعي من ضمن أولوياتك أثار أعصابي، فأنا كنت أتسوّل منك الحب والحنان، الاهتمام، القُبلة، حتى العلاقة الخاصة بين أي زوجين كنت تُمنّ عليّ بها، لم تكن تفعلها بحب ورغبة، إنما بمنطلق واجب، بمجرد انتهائك منه تعطيه ظهرك وتنساه. لقد تركت دنياي كلها من أجلك، تخليت عن مستقبل كان ينتظرني ورفضت فرصة العمل في المجال الذي أحبه واخترتة كي أرضيك. صديقاتي لم أعد أتقابل معهن لأنك لا تريدني أن أترك سميحة وحدها مع المريية. أمضي اليوم كله في ملل وسأم، وحتى مدونتي على الإنترنت لم تلقَ منك تشجيعًا بل سخرية واستهتار، ومشاجرة كلما رأيتني أجلس على الكمبيوتر.

- أنا لم أكن أق...

- عموماً فات الأوان على العتاب، فكلانا على أعتاب حياة جديدة، أرجوك، أنا لا أريد عتاباً آخر يجرد ورائه مشاجرة، فأعصابي لن تتحمل.

- أنتِ تعلمين جيداً أنني لن أطلقك أبداً، فأنتِ حبيبتي وأم ابنتي التي انتظرناها وخططنا لها حياتها حتى قبل أن تولد.

- ما هذا الذي تقوله؟! انتظرناها وخططنا لها؟! أنت تحاول أن تُضحكني أم بالفعل نسيت؟! أنت لم تنتظرها على الإطلاق، إلى يومنا هذا لم أنس منظرك وأنا أبلغك بحملي، لم أنس ردة فعلك الغريبة.

- بالذات موضوع حملك الأول كنتِ تعلمين رأيي فيه، إنني كنت أفضل أن نستمتع بحياتنا أكثر قبل أن نرتبط بأطفال، ولكني بعدها...

- لا بعدها ولا قبلها، أنا حملت في سميحة بعد ثلاث سنوات من زواجنا، وخلال تلك السنوات الثلاث لم أر أي استمتاع أو سفر أو خروجات يومية، أو أي شيء سيعيقه وجود طفل، ورغم ذلك لم أخالفك الرأي، وصبرت ثلاث سنوات، ولم أسعَ للحمل إلا بعدما اتفقنا، أنت لم تذهب معي ولا مرة واحدة عند الطبيب خلال فترة حملي بأكملها، والآن تقول لي انتظرت وخططت؟! حتى في شراء مستلزمات الولادة لم تشارك إلا بالنقود اللازمة، كأن النقود يمكن أن تحل مكانك، وبعد الولادة عندما عدت إلى المنزل لم...

- مهلاً، هل حملتِ كل ذلك بداخلك كل تلك السنين؟ لماذا لم تتحدثي معي بخصوصها لئصقي ما بيننا، ربما ما كنا وصلنا لما نحن فيه الآن.

- متى أتحدث معك؟ في الصباح قبل أن تنزل إلى عملك، أم في المساء عندما تكون متعبًا أو عندك صداع أو تريد أن تنام أو تتحدث في التليفون أو... أو؟ هل تريدني أن أكمل أم هذا يكفي؟

- لم أكن أعلم أن قلبك أسود هكذا، ما كل هذه المرارة التي تحملينها بداخلك؟! مرارة يمكنها أن تقتلك.

يومها عندما اقترب منها إسماعيل ليأخذها في حضنه دفعته بعيدًا، فهي لم تكن لتدعه يقترب منها، فهي تعلم أنها دومًا كانت ضعيفة أمامه:

«الآن تريد أن تأخذني في أحضانك؟!» قالت محدثة نفسها وهي تتذكر المرات التي احتاجت فيها إلى حضنه يضمها ويعطيها الأمان الذي تحتاجه كل امرأة من زوجها، ولكن -مع الأسف- حتى هذا الحزن كان يبخل عليها به، وكان دومًا يسخر منها كلما جاءت بين أحضانه مُطالبة بلحظة حنان، فهو لم يكن من عاداته أن يرى سوى نفسه واحتياجاته.

- أرجوك يا ندى أعطيني فرصة، فأنا تغيرت، طباعي، طريقة معيشتي، مواعيد عملي، عاداتي التي تربيها مملّة، كل شيء فيّ قد تغيّر، سوى حبي لك، فأنا ما زلت أحبك، ولا أستطيع الاستغناء عنك أبدًا، أعدك من الآن فصاعدًا أن حياتنا ستكون مختلفة.

- للأسف كل ما قلته لك وكل المرارة والتعب والملل خلال سنين زواجنا لم يكن هو المشكلة، فأنا لم أشعر بكل ما كان ينقص حياتي إلا بعد انفصالنا، ولكن اللحظة التي مددت يدك عليّ كانت نقطة فاصلة في شعوري نحوك، بعدها كل شيء تغيّر.

- لا تقولي انفصال، فنحن لم ننفصل، بل أنت تركت بيتك ومملكته رغماً عني، أرجوك أنا ما يزال قلبي ينبض بحبك، ينادي عليك كلما دخلت المنزل، ذراعي تبحث عنك بجانب كل ليلة، أشتاق لرائحتك في المنزل، حتى صوتك وأنت غاضبة مني وتتشاجرين معي وحشني. أحبك.. والله أحبك.

كلمات خرجت من فمه لتتغلغل داخل مسامها، ولامست جرح الحنين للماضي، عزفت على أوتار ذكريات قصة حبهما وزواجهما، حب صمد أمام مشكلات السنة الأولى لأي زواج، حب تمسكت به ولم تتركه يفلت منها مهما كان يحصل بينهما من مشكلات، كانت كلما عصفت المشكلات بحياتهما معاً تلجأ إلى ذكريات ماضٍ جميل لهما، تحتمي به من تقلبات الحياة، كانت تُذكر نفسها بأن إسماعيل هو نصيبها الذي احتفظت من أجله بكل مشاعر الحب والاهتمام حتى من قبل أن تعرفه، حتى عندما نفدت منها الذكريات ولم يتبق لها سوى الواقع الذي تعيشه بمُرّه وحلوه صمدت وأكملت حياتها معه.

في هذا اليوم البعيد استمر حصاره لها بكلماته ولمساته الحانية وقبلاته التي تغمرها، حاولت أن تهرب، أن تقاوم، ولكنها لم تستطع، فلقد دمر هجومه كل خطوط دفاعها، جعلها تستسلم له من أول لمسة، فهي ترغبه كما يرغبها وتحبه كما يحبها، وتشتاق إليه كما يشتاق إليها، وفي تلك اللحظة اكتشفت أنها لا يمكن أن تتركه مرة أخرى، فهي لا يهمها مستقبلاً أو عملاً ما دامت معه وبينهما ابنتهما، وكان يكفيها أنه تغير من أجلها، وأكد لن يكرر فعلته مرة ثانية.

في هذا اليوم البعيد في أواخر الشتاء دخلت ندى منزل لم يعد بيتها، ولكن خلال ساعات قليلة كل شيء تغير، وعادت ندى للبيت ولحضان زوجها وكلها

أمل في بداية جديدة، تحلم بالتغيير الذي أغراها به والسعادة التي وعدتها بها، ولكنها سعادة لم تدم كثيرًا، واكتشفت أن التغيير كان تغييرًا وقتيًّا، انتهى بعد رجوعها للمنزل بأسابيع.

سنوات بعدها قضتها ندى تعالج وتسدّد زواجها وتبحث عن مفتاح للسعادة المفقودة بداخلها، ولكنها حتى اليوم الذي أبلغها فيه زوجها بقصة حبه مع زميلته في البنك ورغبته في الزواج منها لم تكن قد وجدت هذا المفتاح، وظلت السعادة هي الحلم المفقود بالنسبة إليها.

وكانت هذه الذكرى الأليمة وهذا اليوم الشتوي البارد هو كل ما تبقى لندى من ذكريات في هذا المنزل، وكانت تلك الذكرى هي آخر باب تحتاج ندى أن تغلقه قبل مغادرتها هذه الشقة.. وقد كان.

كلنا نحتاج من آن لآخر أن نقف وقفة جادة مع أنفسنا، نُقيّم ما مضى من حياتنا، نضع لحظات السعادة في ميزان حساس، ونقارن بينها وبين تلك اللحظات في حياتنا التي نكرهها ونتمنى أن تختفي من ذاكرتنا للأبد، فلا نعيشها مرة ثانية ولو ذكرى.

لو تلك اللحظات غلبت لحظات السعادة والفرح في حياتنا، إذًا نحن في حاجة لأن نشد خطأ ونقلب الصفحة ونبدأ بدايةً جديدةً.

بعد مرور ما يقارب العام على طلاقها، جلست ندى في النادي تتأمل خصلات شعر ابنتها وهي تلمع تحت شمس سبتمبر الجميلة، وكل ما يشغل تفكيرها هو كيف سيكون شكل حياتها الآن بعد التغييرات الجذرية التي حدثت فيها، وكان أكثر ما يشغل بالها هو موقف صغيرتها من مدرستها الجديدة التي نقلتها إليها، لتكون أقرب لشقتها الجديدة، ولكن الأصعب بالنسبة إليها كيف ستتملأ هي وقت الفراغ الذي سيخلفه دخول سميحة المدرسة، فها هي تدخل مرحلة جديدة في حياتها لم تحسب لها حسابًا، مرحلة صعبة ستدخلها دون أبيها -رحمة الله عليه- الذي كان دومًا ظهرها وسندها في الحياة، وبدون إسماعيل الذي كان بجانبها طوال السنين الماضية.

وبالفعل.. في اليوم الدراسي الأول لسميحة جلست ندى في السيارة أمام باب المدرسة، جلست لمدة تزيد عن الساعة تفكر أين تذهب، فأمرها سافرت مع خالتها في رحلة علاج طويلة في أمريكا، وصديقاتها أغلبهن يعملن، والبقية تفرّقن في بلاد الله مع أزواجهن وراء لقمة العيش.

جلست في مقهى قريب من البيت، وبدأت تسترجع أحلام صباها وشبابها، عساها تجد بينها حلماً ما زال ممكن التحقق، بحثت وبحثت حتى قادها بحثها إلى سكة الصحافة التي درستها وأجادتها، ولكن تساؤلاً كان يُلحّ عليها بشدة: هل سوف تسامحها هذه المهنة الجميلة على التضحية بها، عند أول تلميح من زوجها السابق، بصعوبة الجمع بين هذه المهنة ومسؤوليات الزواج؟

والأهم هل هناك مكان في مجال الصحافة أو أي مجال عمل لمبتدئة تعدت الخامسة والثلاثين؟

خلال بحثها عن خطة لاسترجاع الذات، تذكرت أن في عمارة جدّها القديمة، يسكن صديق والدها الكاتب والصحفي سالم الأسيوطي، الذي طالما شجعها على محاولاتها المستمرة في الأدب خلال فترة شبابها، وهو الذي وقّر لها فرصة العمر بعد تخرجها بالتدريب في الجريدة التي كان يرأس تحريرها. فرصة ضيّعها الحب، أو بالأصح الانصياع للحب. كانت ندى تُعشّم نفسها بأنه يستطيع الآن مساعدتها للالتحاق بالعمل في نفس الجريدة، وهي تعلم مدى صعوبة الالتحاق بها بدون واسطة قوية، لذا قررت المحاولة معه، فهو أكيد ما يزال له هناك بعض النفوذ، فهو واحد من أكبر وأهم الكُتّاب فيها، بالرغم من أنه ترك رئاسة تحريرها منذ فترة.

بالفعل بدأت اتصالاتها بالأستاذ سالم، ولكنها لم تلقَ منه تشجيعًا لهذه الفكرة، بل حاول إقناعها بالبحث عن مهنة أخرى أقلّ مشقة وأكثر دخلاً، ولكنها أصرّت على موقفها، فهي لم يكن لديها استعداد للتخلّي عن حلمها هذا مرة ثانية. وعدم مساعدة الأستاذ سالم لها تركتها مع علامة استفهام كبيرة، حتى بدأت تضع النقاط فوق الحروف، فكتابته للجريدة قلّت، حتى مقاله اليومي تقلص لمقال أسبوعي، وهنا فهمت، سلطة الأستاذ سالم بدأت تتقلص تدريجيًا في الجريدة، أو بمعنى أصح بدأ البساط يُسحب من تحت قدميه، وبالطبع لم يستطع أن يعترف أمامها بذلك.

وكان أكثر ما يشغل بال ندى بعد أن سُدَّ طريقها لجريدة الأستاذ سالم، أي الأبواب تطرق غير هذا الباب؟ من أين تبدأ بحثها عن عمل؟ هل تبحث في

صحف أو مجلات أخرى، أم تتنازل عن حلمها للمرة الثانية وتعمل بنصيحة خالتها وتبحث عن وظيفة إدارية في شركة من الشركات المتعددة الجنسيات، خصوصًا أن خالتها لها علاقات عمل كثيرة ومن السهل توفير فرصة عمل؟

في تلك اللحظة بالذات تمَّت رجوع أمها من السفر سريعًا حتى ترتمي في حضنها وتفكران معًا كما تفعل دائمًا كلما مرت بضائقة، ولكنها قررت أن تؤجل التفكير مؤقتًا حتى يفتح لها طريق جديد، فهي دومًا عندها يقين بأن الله -سبحانه وتعالى- لا يقفل بابًا إلا ليفتح بابًا آخر مكانه، وكان لها ما تمَّت، وفي لمح البصر، فاتصال من صديقة طفولتها فتح لها هذا الباب بأسرع مما كانت تتوقع:

- صباح الخير يا ندى، أين أنتِ مختفية؟ مر زمن منذ تحدثنا آخر مرة.

- لست مختفية، هي فقط مشاغل الحياة.

- يا صديقتي.. لست أول واحدة تنفصل عن زوجها، فالحياة لم تنته هنا، أنتِ عندك حياتك وعندك سميحة لتفكري فيها.

- أنا بالفعل أشعر بتحسُّن كبير الآن عن الفترة التي تلت الطلاق، حتى أنني بدأت أبحث عن عمل، فأنا أشعر بفراغ شديد بعد دخول سميحة المدرسة.

- ياه يا صديقتي! تاهت ولقيناها، الشركة التي أعمل بها أطلقت أولى بواخرها العملاقة وستبدأ رحلة دعائية لها تجوب عدة موانئ في البحر الأبيض بالباخرة، وتمضي في كل ميناء عدة أيام، ثم تصل لمحطتها الأخيرة

في لبنان، حيث سيمكث الركاب أربعة أيام ثم يعودون بالطائرة، والرحلة كاملة تستغرق اثنين وعشرين يومًا، و...

- لا أعتقد أن هذا ممكن يا لينا، فلا أريد لسميحة أن تتغيب عن المدرسة، فهي بالكاد بدأت تتأقلم عليها، فمنذ الطلاق أصبحت ملتصقة بي جدًّا، كل صباح عندنا مشكلة لأنها لا تريد أن تتركني وتذهب للمدرسة، لا تنام إلا لو كنت بجانبها، حتى شقتي التي انتقلت إليها بعد الطلاق لا تحبها، وترفض أن تقول عليها «بيتنا»، برغم أنني أفهمتها كثيرًا أن تلك الشقة جدها اشتراها لنا خصوصًا لتكون بيتنا وقت الحاجة، بالطبع هي تفتقد بيتها القديم ووالدها وحياتنا معًا.

- يا صديقتي.. هذه الرحلة سوف تكون فرصة لسميحة لتخرج من الجو الذي تعيشه معك، أما بخصوص المدرسة فهي لن تغيب كثيرًا، ألم أقل لك إن هذه الرحلة ستكون في فترة الأعياد؟ أرجوك لا تُضحِكيني يا ندى، ابنتك ليست في الثانوية العامة، بل رابعة ابتدائي. على أي حال أنا سوف أبعث لك بتفاصيل الرحلة، وفكّري.

العين يمكن خداعها.. القلب يمكن خداعه.. أما الروح أبدًا، لأنه ليس في أيدينا، ولذلك سأتبع دائمًا ما يمليه عليّ حدسي، وأترك باب قلبي دومًا مفتوحًا للحب، فالحب يأتي بدون أي مقدمات ولا ميعاد مسبق، وإذا شعرت بمشاعر حب صادقة سأتمسك بها جيدًا، فالحب هدية من رب العالمين يرزق به من يشاء وقتما يشاء، فيؤلف بين الأرواح ويوفق بين القلوب.

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كلّ الظنّ أن لا تلاقيا

ها هي ندى تجد نفسها بعد أقل من أسبوعين على متن سفينة عملاقة تجوب بها موانئ البحر المتوسط.. رحلة لم تكن في الحسبان.

جلست في قاعة الطعام في السفينة العملاقة متأملة الذين يشاركونها مائدة العشاء، الذين وضعهم مسؤولو السفينة معًا، يتشاركون الوجبات والرحلات الخارجية، ولهم نفس الدور في السفينة، بالطبع كانت أولهم صديقة عمرها لينا، فلسطينية الجنسية، مصرية الطبع والأصل واللغة، حيث عاشت كل عمرها، ويوجد أيضًا عائلة أردنية مكونة من خمسة أفراد: أب دبلوماسي سابق، وزوجته، وبنتين وولد، ومع الوقت اكتشفت ندى أن هذه الأسرة تمثل كل ما تكرهه في حياتها، أو بالأدق ما أصبحت تكرهه في شكل العلاقة بين رجل وامرأة، فالزوج شخصية مسيطرة بطريقة مستفزة، والزوجة تخضع له بدون مناقشة، حتى عندما تريد دخول الحمام يجب أن تستأذنه أولاً، وكثيرًا ما أرادت ندى أن تمسك هذه السيدة من كتفيها وتهزها وتقول لها أفيقي ولا تخضعي له بهذا الشكل، صدقيني سيملك ويتركك في النهاية، وكان هناك شقيقان متزوجان من شقيقتين ويمضون شهر العسل على متن الباخرة، ولكنهم لم يتركوا لديها انطباعًا، ربما لأنهم ما زالوا في أولى سكرات الزواج، حيث يكون الجميع شكلاً واحداً وطبعاً واحداً، في حالة من الهيام والخنوع والاستسلام.

ولكن ما شد انتباهها فعلاً هو هذه العائلة المصرية ذات الأصول العراقية، السيدة حنان، سيدة وقورة ذات جمال هادئ، وابنها وابنتها. ابنها مالك، شاب

وسيم في أوائل الأربعينيات، لفت نظرها منذ وقعت عينها عليه، لم يكن ما شدها إليه وسامته ولا جسمه الرياضي الممشوق، فندی لم تكن من هؤلاء السيدات اللاتي يشدهن في الرجل مظهره فقط، كانت دومًا لها حسابات أخرى، يُمكن أن يكون ما شدّها إليه اهتمامه الشديد بأمه وحنانه في التعامل مع أخته الصغيرة التي تصحبه في هذه الرحلة، فغالبًا هذا ما لمس قلب ندى وهز مشاعرها، فهي عندها قناعة أن طباع أي رجل تظهر من خلال أسلوب تعامله مع أهله، وقد عرفت لاحقًا من لينا أنه صاحب سلسلة مطاعم شهيرة في مصر وعدد من الدول العربية.

ومع مرور الأيام على متن هذه السفينة، وفي هذه الرحلة، بدأت ندى تسترد مرة أخرى تلك الشابة المليئة بالحيوية، المُقبلة على الحياة، ندى التي تاهت منها خلال مشوار زواجها وطلاقها، مشوار ترك آثاره عليها كأنه عشرات السنوات.

وكانت أولى خطوات استرجاعها أو استعادتها لنفسها هي رجوعها مرة ثانية لتدوين يومياتها، عادة انقطعت عنها لا إراديًا منذ تلك الليلة التي تلقت فيها صدمة عمرها من زوجها السابق، فمنذ تلك الليلة لم تمسك ندى بالقلم وتخط حرفًا واحدًا، وكانت هذه الخطوة بمثابة تمهيد لها لتبدأ فعليًا صفحة جديدة.

واكتشفت ندى أن هذه الرحلة كانت طوق النجاة الذي تحتاجه لينتشلها من الإحساس المصاحب لها منذ تركت منزل الزوجية، شعور لم تستطع ندى أن تجد له تصنيفًا، كل ما كانت تشعر به هو هذا الإحساس بالمرارة التي تقبع بداخلها، أوقات تشتد وأوقات أخرى تختفي في وسط الزحام والناس على متن السفينة.

مرت الأيام الأولى لندى على متن السفينة تُعرّف ابنتها على كل مكان فيها، وتجلس بين التجمعات المختلفة لركاب السفينة، تتأمل الوجوه وترد المجاملات المعتادة من ابتسامات وكلمات تحية كالتى يتبادلها الأعراب عندما يجمعهم مكان ما، وترجع مساءً بصغيرتها لتناما الاثنتين من التعب، ولكن في هذه الليلة القمرية الجميلة عندما وصلت ندى لحجرتها وتمت أن تشارك صغيرتها النوم سريعًا، فالיום كان طويلًا ومرهقًا بالنسبة إليها، حيث قضته مع باقي الركاب في أحد الموانئ التي تقف فيها الباخرة، ولكن عينيها أبتأ أن تطيعاها وتستسلما للنوم، لقد أرادت شيئًا آخر، أرادت أن تسجل كل ما جرى في يومها من أحداث وأشخاص قابلتهم، انطباعاتها عنهم، وبالفعل جلست ندى أمام دفترها والقلم في يدها، تعتذر له عن التقصير في حقه وعدم الكتابة فيه منذ ما يزيد عن ثلاثة أيام، وتشتكي له من عيني السيدة حنان الفاحصتين، ومن النظرات الوقحة للأب الأردني، حكّت لدفترها عن الإحساس الغريب الذي يدغدغ مشاعرها كلما التقت بالشاب مالك في أروقة السفينة، واعترفت لنفسها أنها تشعر بغضب غير مُبرّر تجاهه بسبب تجاهله لها، ربما لأنها ترى كيف يتصرف مع الآخرين، يضحك ويلقي النكات ويتحدث بلا توقف، حتى مع ابنتها، فهو يلعب معها ويتحدث إليها عند غياب ندى في حجرتها، مثلما قالت لها لينا: «ربما تخيفينه بنظراتك يا ندى».

ولكن بعد مرور عدة أيام على ظهر السفينة بدأت أحاسيس جديدة تدغدغ مشاعر ندى، كأن الزمن عاد بها لأول يوم لها في الجامعة، رجع بها لتلك الفتاة ذات ثمانية عشر عامًا التي تخطو أولى خطواتها في مرحلة جديدة من حياتها، حيث تتعرف فيها على الحياة من منظور مختلف، ففي هذه الرحلة كل شيء تغير بالنسبة إليها، التقت بأشخاص، تقربت من بعضهم وتمت

القرب من البعض الآخر، أو بوضوح تمتت القرب من مالك، هذا الغريب الغامض الذي لم يتحدث معها طوال الأيام الماضية إلا في أضيق الحدود، بالرغم من أنها كانت في بعض الأحيان تضبطه يختلس نظرات خاطفة إليها كلما جمعهما مكان واحد على السفينة، أو في أي من المدن التي توقفوا في موانئها ونزلوا لزيارة معالمها، كما حدث عندما جمعتهما الصدفة في المحل المشهور للمنتجات الزجاجية في أثينا، حيث نظر نحوها وألقى عليها السلام وأثنى على ذوقها في اختيار التحف الزجاجية الملونة، وانصرف مسرعًا بعد أن دفع ثمن ما اشتراه، انصرف بعدما تركها مع خيبة أمل، أمل كان يداعب خيالها أن تسنح لها الفرصة لتتعرف على هذا الغامض الذي اقتحم عقلها دون استئذان.

في تلك الليلة بعد رجوعهم من أثينا، وعلى غير عاداتها، أغلقت ندى دفترها دون أن تكتب حرفًا واحدًا، فالأفكار المتلاحقة داخل رأسها لم يكن لها مكان في هذا الدفتر، فماذا ستكتب؟ أستكتب أنها تشعر نحو مالك بمشاعر إعجاب شديدة وأنها فعلت ما أقسمت ألا تفعله أبدًا، وهو الإعجاب من طرف واحد؟ فهو غباء من هذا الطرف الواحد.

أستقول لدفترها إن مالك هذا لم تصدر منه بادرة اهتمام نحوها، وبالرغم من ذلك قلبها مُصر بشدة أن يُحدّثها عنه، أم ستشتكي له من القدر الذي يضع مالك في طريقها أينما ذهبت؟

بعد انتهاء عشاء الليلة السابعة لها على متن السفينة، ذهبت ندى لغرفتها وحيدة، فسميحة اختارت أن تبيت مع لينا هذه الليلة. لم تكن وحدتها مشكلة لها، وإنما كانت عينيها، هاتين اللتين تأبيا أن تناما كأنهما تحالفتا مع عقلها

الذي لم يهدأ لحظة، نفس تساؤلات الأمس وأول أمس.. عشرات التساؤلات حول مالك وسلوكه تجاهها، حول قلبها الذي يحدثها بأن مالك هذا بدأ يأخذ مكانًا صغيرًا فيه، وحول عقلها الذي يريد أن يفرمل اندفاعها نحو أول رجل يلفت انتباهها بعد الطلاق، اندفاع وارد أن يكون للأسباب الخطأ.

لم تجد ندى مفراً من أن تغير ملابسها مرةً ثانية، وتخرج للتمشية على سطح السفينة، عسى عقلها يهدأ قليلاً، فطالما أفادها الوجود تحت ضوء القمر في تهدئة عقلها وجلب السكينة لروحها، خصوصاً لو اجتمع ضوء القمر مع الماء، سواء كان بحرًا أو نهرًا أو حتى بحيرة.

وكثيرًا كانت تشعر أنها فعلاً مجذوبة كما كان صديقاتها في الجامعة يقلن لها ضاحكات، كل مرة تُصر فيها أن يذهبن للتمشية أو التنزه على كوبري الجامعة، كلما اكتمل القمر في السماء.

وذهبت بخيالها مع شعاع القمر المفروش على صفحة الماء، تتأمل حياتها الماضية والحاضرة، وتفكر في المستقبل وما سيحمله لها من مفاجآت جديدة، عندما لفت نظرها خيالٌ قادمٌ في الظلام، ومن هيكله ومشيته عرفت أنه مالك؛ تجمّدت مكانها؛ لم تعرف ماذا تفعل، أتبتسم؟ أتحييه، أم تتجاهله ولا تبدي نحوه أيّ اهتمامٍ؟ فكفاها خيبات الأمل المتتالية التي تتلقاها منه، وقبل أن تقرر ماذا تفعل ألقى عليها التحية بصوتٍ بالكاد مسموع، ووقف يتأمل البحرَ لدقائق وانصرف، انصرف تاركًا إياها مع علامة تعجب كبيرة.

«ليس معقولاً أنني ثقيلة الظل إلى هذه الدرجة! ثم أنه يتحدث ويمزح مع الجميع، فلماذا يتجاهلني أنا تحديداً، حتى التحية ألقاها على مضض!».

والليلة التي تلتها تكرر نفس السيناريو. عينان عنيدتان تَبيان النوم وعقل لا يريد أن يستريح وقدمان تشدَّاهما شدًّا لنفس مكان الأمس، حيث القمر والماء. وقفت ندى تتأمل البحرَ وتنظر إلى السماءِ تدعو ربها أن يساعدها حتى لا يتعلَّق قلبها بما ليس لها، فتزداد تعلُّقًا بمالك هذا، فهي متأكدة أن ما تشعر به نحوه ليس أكثر من مشاعر احتياجٍ لاهتمامٍ ذكوريٍّ بها، لتشعر أنها ما تزال مرغوبةً، خصوصًا أن توقيت ظهوره في طريقها تصادف مع توقيت هشاشة مشاعرها كقطعة البسكويت.

دقائق وتكرر نفس سيناريو اليوم السابق، ظهر مالك وتوقعت منه نفس ما جرى أمس، ولكن هذه المرة -ولدهشتها- ألقى عليها التحية ووقف بجانبها يتأمل البحر، وتبادل معها حديثًا مقتضبًا وسريعًا، سألتها عن مدونتها على الإنترنت التي حكت له عنها صغيرتها سميحة، ثم طلب منها أن ينقل مجموعة الأغاني الأجنبية القديمة التي لديها على الكمبيوتر، التي أسمعته إياها سميحة على موبايلها، واتفقت معه ندى أن تأتي بالكمبيوتر غدًا صباحًا بعد الإفطار لينقل منه ما يريد من أغانٍ.

في الصباح التالي جلست ندى في صالون السفينة تتأمله وهو ينقل الأغاني من على كمبيوترها، ومن آنٍ لآخر يلقي نحوها نظرةً خاطفةً مصحوبةً بابتسامة متحفظة، كان التعجب يملؤها، فهذا المالك سيفقد عقلها بتصرفاته المتقلبة نحوها، فتارة يحدثها وتارة يتجاهلها، تارة يطلب منها أغاني ويجلس معها ينقلها، وتارة أخرى يلقي عليها التحية وهو يجري كأنه في سباق.

لكنها لم تدع هذه الأفكار تغطي على فرحة قلبها بأنها تجلس معه في مكانٍ واحدٍ ويتبادلا أطرافَ الحديث، حتى ولو كان بخصوص المُغنين والأغاني المفضلة لكل منهما.

تمتّ ندى أن يكون موضوع الأغاني هو بداية الطريق للتعارف بينهما، وفعلاً حدث ما تمتّ.

مساء نفس اليوم وهي تهم بالانصراف من مكانها المفضل تحت القمر وأمام البحر، ظهر لها فجأة:

- إلى أين؟

- أنا؟!!

نظرت ندى حولها لتتأكد أنه يحدثها هي، فليس من عادته أن يوجّه لها كلامًا مباشرًا هكذا، بل بابتسامة على وجهه أيضًا:

- نعم أنتِ يا ندى.

نطق اسمها برِقّةٍ لم تعهدها منه من قبل، لم تصدق أذنيها، هل هذا الذي أمامها الآن هو نفسه مالك الذي داوم على تجاهلها منذ أول يوم في الرحلة؟ هل هذا مالك الذي يتبادل معها أي حديث بكلمات مقتضبة وسريعة؟ ولكنها لم تكن لتدع مثل هذه الأمور تُضَيِّع عليها اللحظة.

- ههههه.. أرى علامات تعجب كثيرة في عينيك.

- ما الذي يضحكك لهذه الدرجة في تعجبي؟! طبيعي أن أكون متعجبةً، بل
مصدومة من التحوّل المفاجئ في سلوكك نحوي، منذ بداية الرحلة ونحن لا
نتحدث معًا، حتى اليوم طوال الوقت الذي كنت تنقل فيه الأغاني كنت
تتحدث معي كأنك تمرُّ عليّ بالكلمات. أنت فعلاً شخصية مثيرة للعجب.

وأكملتُ ندى حديثها معه وهي تشعر بالتعجب من نفسها، فهي تعاتبه كأن لها
عليه حق العتاب، وهو يقف أمامها يجاوبها بمنتهى السلاسة كأنه يؤكد لها
هذا الحق:

- لا عجب في الأمر، مشكلتي أنني لا أتعود على الناس بسرعة.

- لا تتعود على الناس بسرعة؟! تقصد بعض الناس.

ردّت بتهكّم.

- دعينا مما مضى. ماذا تفعلين هنا كل ليلة في هذا الوقت المتأخر؟

وكانت نبرة صوته الحانية كمفتاح سحري أطلق العنان للسان وقلب ندى،
مسح كل ما شعرت به من غضبٍ تجاهه. تحدثا معًا كأنهما يعرفان بعضهما
بعضًا منذ سنين، حكّت له عن عشقها للقمر والماء، عن عائلتها وأصدقاء
طفولتها. عن أيام الجامعة وصديقاتها فيها ونزهتهن معًا على كوبري الجامعة
في الليالي القمرية. عن وفاة والدها التي تركت داخلها شعورًا مرؤّعًا بعدم
الأمان، عن قصتها مع زوجها وغدره بها. وفعل مالك نفس الشيء، حكى لها
عن دراسته وسفرياته وعمله. عن أسرته الصغيرة، وعن المطاعم التي تركها
لهم أبوه، عن أمه وأخته الصغيرة اللتين تركهما أيضًا والده أمانةً في عنقه،

عن زواجه الذي لم يدُم طويلاً. واكتشفا معاً في هذه الليلة أن عشقهما للقمر والماء الذي جمعهما في هذه الليلة ليس هو العامل المشترك الوحيد بينهما، تحدثا دون توقف كأنهما يعوضان الأيام الماضية التي أمضيها بلا تواصل، بقيا معاً حتى لاح ضوء النهار في الأفق.

نظر مالك في ساعته:

- ياه يا ندى! لقد قضينا ما يزيد على ثلاث ساعات نتكلم، كيف حدث ذلك؟ أتصدقيني إذا قلت لك إن ما حدث بيننا شيءٌ عجيبٌ جداً؟ أنا شخصٌ متحفّظٌ جداً ولا أعطي ثقتي لأحد بهذه السرعة لأحكي له حياتي الشخصية كما حدث معك، ماذا فعلتِ بي؟!

- ههههههه.. والله أنا أيضاً مُستغربة نفسي! ولكني أوّمن بمقولة كان جدي -رحمه الله- يقولها لي دائماً: «الأرواح جنود مجنّدة من تعارف منها ائتلف ومن تناكر منها اختلف»، أعتقد -والله أعلم يا مالك- أن روحينا قد تآلفتا.

- فعلاً، هذا ما أشعر به بالضبط، لقد تلاقت روحانا واندمجتا كأننا نعرف بعضنا بعضاً منذ زمن.

افترقا كل لحجرتة، وما أن وصلت ندى لحجرتها إلا ووجدت مليون سؤال يعصف برأسها: هل ما حدث منذ قليل كان بالفعل واقعاً أم مجرد أمنية صوّرها لها خيالها على أنها حقيقة؟ ما الذي دفع مالك للاقتراب منها أخيراً وتبادل معها حديثاً طويلاً كهذا؟ هل يشعر مالك بالإعجاب نحوها أم الوقت الذي أمضيها معاً كان بالنسبة إليه لقاءً عابراً بين شريكي رحلة؟

تعجبت ندى من نفسها؛ كيف وهي الشخصية الكتومة التي لا تحكي أمورها الشخصية لأي كائن كان، تفتح لمالك عقلها وقلبها بهذه السرعة، لدرجة أن تحكي له عن تفاصيل قصتها مع زوجها السابق!؟

نامت ندى وهي تحمل في قلبها سعادةً جديدةً، وتميَّي نفسها بغدٍ مختلف وجميل، يحمل بين نسماته فرحةً وسعادةً وبدايةً قصةً جديدةً، ولكن تأتي الرياح بما لا يشتهي السفن.

عندما يدق الحب أبواب قلوبنا، لا مجال لرفضه أو الهروب منه، فالحب زائر لحوح لا يكلُّ ولا يملُّ وبالرغم من رفضنا في أحيانٍ كثيرة فتح الباب له، نجده يتسلل غنوةً بكامل عتاده، ويحتل كياننا كله رويدًا رويدًا، لنستيقظ يومًا وقد وقعنا في حبٍ لا مفرَّ ولا مهرب منه، إلا إلى أحضان الحبيب.

لم تستطع ندى الاستيقاظ مبكرًا للإفطار، وفضّلت أن تذهب مباشرة لسطح السفينة، كانت تشعر أنها تطير لا تمشي، فهي تريد أن تصل سريعًا لترى مالك، ووصلت، لكن ما أن رآها مالك حتى سلّم عليها سلامًا فاترًا وانصرف مسرعًا، تاركًا في نفسها استفهامًا كبيرًا، هل هذا مالك الذي كان معها طوال ليلة أمس؟! هل هذا مالك الذي شعرت معه بالأمس بألفةٍ وحميميةٍ لم تشعر بهما تجاه أي رجل من قبل ولا حتى زوجها السابق؟!!

أمضت ندى هذا النهار تحاول أن تجد أي مناسبة تجمعها بمالك، بينما شعرت أنه كان يتفادى البقاء معها في نفس المكان.

وفي المساء بعدما نامت سميحة، خرجت ندى، ولكنها لم تخرج الليلة لتأمل القمر والماء، إنما خرجت على أمل أن تجمعها الصدفة بمالك مرة ثانية، فهي تشفق للكلام معه، تشفق لإحساس الراحة والأمان اللذين شعرت بهما بمجرد وجوده بجانبها، اشتاقت لشعور الحميمية الذي يغمرها بمجرد أن يبدأ الحديث، والأهم مما سبق هي تريد أن تفهم لماذا كان يتجنبها طوال اليوم.

مرت الدقائق بطيئة وهي تنظر خلفها كل دقيقة، على أمل أن تلمح هيكله قادمًا من بعيد، ولكنه لم يأت، انتابت ندى خيبة أمل كبيرة، فقد شعرت أنه نكث بالوعد غير المنطوق بينهما، على أن يكون القمر والماء رفيقهما كل ليلة، حتى تصل بهما السفينة للبنان.

وفي الصباح التالي تكرر نفس السيناريو السابق. مالك يتهرَّب من البقاء معها في مكان واحد، وهي تقاوم رغبتها في البقاء بقربه ومحاولة تبادل أي حديث معه.

وكذا المساء نفس المساء.. ندى تنتظر، مالك لا يأتي. ذهبت لحجرتها وهي تحدث نفسها من الغضب:

«مالك هذا مجنون، أكيد مجنون، فهو من بدأ معي الكلام، وهو من قال بأن بيننا أمرًا مشتركًا، هو من أعرب عن فرحته بالحديث الذي دار بيننا، وأعرب عن شعوره بالألفة، هو من طلب لقاءً آخر في الغد.. طبيعي يا ندى، يبدو أن شيئًا ما بك جاذبٌ لغريبي الأطوار. عمومًا لقد أخذت مناعة بسبب تصرفات إسماعيل الغريبة، كما أن الجواب واضح من عنوانه، فهو من أول الرحلة وتصرفاته غريبة وغير مفهومة».

لأيام بعدها حاولت ندى أن تُهدِّئ من وتيرة هذا الغضب الذي تشعر به تجاه مالك، شعور لم تستطع أن تجد له تفسيرًا، بل زادها حيرةً وتعجبًا، فنحن نغضب ممن لنا رجاء فيهم، وهي بالكاد تعرفه، ولكنها ترجع وتحدث نفسها بأن الذي شعرت به تجاهه منذ جمعتهما هذه الرحلة لم تشعر به تجاه أي رجل من قبل، حتى زوجها السابق في بداية تعارفهما، وتساءلت بينها وبين نفسها: هل هذا ما يسمى بالحب من أول نظرة، أم تلاقي أرواح، أم مجرد إعجاب بشخص غامض قابلته في فترة من حياتها تطوق مشاعرها فيها لأي عزف على أوتارها، أم تراه عقلها الباطن أراد لها أن تعيش قصةً تُشعرها أنها ما تزال تملك تلك المشاعر التي اعتقدت أنها ماتت مع ورقة طلاقها؟

«لا لا»، حدثت نفسها «لا يوجد ما يسمى بالحب من النظرة الأولى، ثم سواء كان حبًا أم لا فيكفى أسلوبه في التعامل معي».

وبدأ حزن غريب يتسلل إلى قلبها، كلما مر يوم عليها في السفينة دون تواصل مع مالك، سوى نظرات عابرة منه وهما على طاولة الطعام، أو إذا تقابلا في أروقة السفينة.

حتى حدثت المعجزة في إحدى الليالي وفوجئت بمالك يأتي خلسة ليشاركها ووقفها المعتادة مع القمر والماء. أجمتها المفاجأة، فها هو مالك يقف على بُعد أمتار منها يتأملها، ولكنها لا تجد ما تقوله، فماذا ستقول له؟ أتكمل حديثهما الذي بدأه المرة السابقة، أم تسأله عن تصرفاته الغامضة؟ لم تكذ تفق من دوامة التساؤلات التي غرقت فيها حتى فوجئت بمالك يُقبّل وردة حمراء ثم يعطيها لها، وهو ينظر إليها نظرةً تحمل كلماتٍ كثيرة غير منطوقة، ويتمنى لها ليلة سعيدة وينصرف مسرعًا.

«ما الذي حدث الآن؟! هل كان هذا مالك فعلاً، أم كنت أتخيل؟ لا لم أكن أتخيل، فها هي وردته بين يدي. هو فعلاً كان هنا ولكنه لم يتحدث معي، قبّل الوردة وأعطاني إياها وانصرف. ما هذا الذي يفعله هذا الشخص؟ أمجنون هو أم ماذا؟».

وفي الصباح التالي توقعت تجاهله المعتاد نحوها، ولكنه على غير العادة شارك الجميع لعبة الكوتشينة التي كانوا يلعبونها جميعًا بما فيهم ندى، ثم عرض على الصغيرة سميحة أن تشاركه هو ونورا السباحة في حمام سباحة السفينة. تصرفات لم تجد لها ندى أي تفسير معقول، ولكنها قررت أن تُسقط

هذا المالك وتصرفاته من حساباتها، وتستمتع بالأيام القليلة المتبقية من إجازتها.

وعندما حلّ الليل قررت ندى أن تفعل شيئًا طالما تمت فعله، ستقضي هذه الليلة على سطح السفينة حتى بزوغ الشمس، تودع فيها الماء وهذا الهلال الذي تبقى من قمرها، ترتب أوراقها، تستعيد ذكرى هذا اللقاء السريع الذي جمعها بمالك، هذا اللقاء الذي أكد لها أن قلبها ما زال يعمل ولم يصبه العطب كما كانت تعتقد، فيكفيها أنها اطمأنت بأنه ما زال يشعر ويتمنى ويشتاق، حتى لو كان من طرف واحد، ما زال ينبض بمشاعر اعتقدت ندى أنها فقدت القدرة على الشعور بها ثانيةً.

تركت صغيرتها مع لينا وخرجت إلى نفس مكان لقائها هي ومالك على سطح السفينة، لتودع المكان وما يحمله من ذكريات، وما أن وصلت ندى إلى مكانها المفضل فوجئت بمالك يقف عاقدًا يديه على صدره، وابتسامة كبيرة على وجهه:

- لماذا تأخرتِ يا ندى؟

نظرت إليه والتعجب يملأ وجهها، ولسان حالها يقول له أنت مجنون بالتأكيد.

- تأخرت؟! لا أنت فعلاً ظاهرة غريبة.. منذ لقائنا هنا قبل خمسة أيام مضت وأنت تتجاهلني تمامًا. هل أنت طبيعي؟! حتى الوردة التي أهديتني إياها أمس جرحت إصبعي وأنا أضعها في كراستي.

في لحظة وجدت يديها بين يديه يرفعها نحو فمه ويبدأ في تقبيل أصابعها،
وبحركة لا إرادية سحبت يديها من يديه وهي تنظر إليه شزراً:

- ما الذي تفعله؟ لا يصح هذا.

ولكن نظرة الحزن التي رأتها في عينيه أخرستها، ليبدأ هو حديثه بنبرة شجن
مست قلبها قبل حتى أن تسمعه:

- ندى.. توجد أشياء كثيرة تخصني أنتِ لا تعرفين عنها شيئاً، وهي السبب
في تصرفاتي هذه نحوك، ولكن قبل أن أحكيها لك لا بد أن أتأكد منك من
شيء.

- لا تقل.. دعني أضمن.. تريد مني «فيش وتشبيه».

- أنا أتكلم جدياً يا ندى.

صمت مالك لدقائق، كانت كالساعات بالنسبة إلى ندى:

- أتصدقيني إذا قلت لك إنني منذ رأيتك أول مرة في صالون السفينة
وصورتك لم تفارق خيالي؟ أتصدقيني إذا قلت لك إن ما أشعر به نحوك لم
أشعر به من قبل في حياتي؟ مشاعر غريبة، مشاعر حب وليد تجاهك كنت
أقاومها بشدة.

كان قلب ندى يرقص فرحاً بتلك الكلمات، ولكن في نفس الوقت كان عقلها
يرفضها، يرفض هذا التناقض بين الكلام والأفعال.

- أرجوك يا ندى قولي أي شيء.

- ماذا أقول؟ أقول لك إني ينتابني شعورٌ قويُّ الآن أنك تتسلى بي؟

- أتسلى؟! سامحك الله! ندى.. أنا لم أوْمَن قط بما يسمى بالحب من أول نظرة، فأنا أعلم أن الحب يحتاج إلى شهور من العناية والاهتمام والاحتواء ليتبلور لشيء جميل وكامل، ولكني منذ رأيتك وصغيرتك في يدك وأنا وقعت في هوائك، منذ تلك اللحظة لم أستطع أن أخرجك من عقلي، تابعتك من بعيد، عرفت عنك كل شيء، عرفت ماذا تفضلين من الأكل، ماذا تقرئين، من تفضلين من ركاب السفينة، ما الذي يلفت نظرك، ما الذي يضع ابتسامة على وجهك.. أتعلمين أنني كثيرًا ما أمسكت أعصابي كي لا أضرب هذا الدبلوماسي الأردني الذي يلاحقك بنظراته؟

حاولت ندى أن تقطع سيل الكلمات المنهمر من فمه، لتسأله عن سبب تجاهله لها طوال الفترة الماضية رغم المشاعر الجميلة التي يكتنُّها لها، ولكن دفاء كلماته والحنان الذي استشعرته بين حروفه أفقداها النطق ولم تستطع أن تتمالك نفسها، وغلبتها دموع الفرحة. إذًا ما تشعر به تجاهه حقيقي. يوجد فعلاً هذا السحر الذي يسمى الحب من النظرة الأولى.

فجأة بلا أي مقدمات وجدت نفسها بين أحضان ذلك الغريب الذي التفتته منذ أيام، وجدت ذراعيه تحيطان بها، تسحقاها بحنان، شعرت بشعور جميل لم تشعر به من قبل خلال سنوات زواجها الثلاثة عشر، لم تحتوِها ذراعا زوجها بهذه القوة قط ولم يحتوِها قلبه بهذا الحنان. لم تعلم ماذا تفعل، فهي تستعذب هذا الشعور الجميل، ولكن في الوقت نفسه يدور في عقلها نظرية الصواب والخطأ، فهي حتمًا مُخطئة بترك العنان لنفسها هكذا، ولكن هيهات أن يطيع قلبٌ نداءً العقل في مثل هذه اللحظات. لم تعلم كم مضى عليها بين

ذراعيه، ولكن ما تعلمه فقط أن تلك الرنات المتتالية على هاتف مالك جاءت لتخرجهما من غيبوبة الحب الجميلة التي احتوتهما، والتي لم تكن تعلم إلى أين كانت ستأخذهما لولا تلك الرنات. وانتظرت أن ينهي مالك حديثه المقتضب مع الطرف الآخر من المكالمة لتنسحب سريعاً:

- ياه! لقد تأخر الوقت؛ يجب أن أذهب.

- أرجوك انتظري، فأنا أحتاج للتحدث معك في موضوع هام جداً.

شعرت ندى بغصة في قلبها خوفاً مما سيخرج من بين شفثيه الآن. كثير من التساؤلات عصفت برأسها، ولكن مالك تابع على الفور.

- أرجوك لا تفهمي خطأ.. أنا لدي ظروف خاصة جداً، تفرض عليّ ألا أرتبط حالياً، ألم تتساءلي من قبل لماذا كنت أتجاهلك؟ ألم تتعجبي من محاولاتي ألا يجمعنا مكان بالرغم من مشاعري الواضحة تجاهك، خصوصاً بعد ليلتنا الأولى هنا؟ ألم يساورك الفضول عن السبب الذي يجعلني أتكلم مع الكل سواك؟

نظرات ندى له حملت آلاف التساؤلات.. ولكنه جاوب جميعها بقبلة حانية على جبينها.

- أرى الشكوك والأسئلة الحائرة في عينيك، ولكن لأطمئنك، لا يوجد شيء مما تفكرين فيه.

ابتسمت ندى قائلة: وكيف لك أن تعرف ما الذي أفكر فيه؟

- هههه.. لست مرتبًا، فقد حكيت لكِ أنني طلقت زوجتي منذ سنوات، ولا يوجد أي مانع شخصي يقف أمام تتويج المشاعر الجميلة تلك في علاقة أجمل.

وفجأة تحولت الابتسامة على وجهه إلى نظرات حزن وأسى:

- لقد قلت لكِ إنني ورثت عن أبي عددًا من المطاعم في مصر وبعض الدول العربية، ولكن ما لا تعرفينه أن لديّ مهمة مؤقتة بجانب تلك المطاعم مع إحدى الهيئات الأمنية.. وهذا العمل الجانبي قد يُعرّض حياتي للخطر.

لحظات من الصمت سرت بينهما، ولكن الذعر اللي ظهر على ملامح ندى جعله يُسرّع ليوضح لها:

- لا تفزعي.. هذا العمل المؤقت سيفيد أشخاصًا كثيرين وسيدراً مشكلات كبيرة، ولكني لا أستطيع أن أحكي لك تفاصيله الآن، ولأكون أمينًا معك، نسبة الخطورة فيه عالية، ولذا لم أريد أن أعترف في البداية بإعجابي بك، وهذا أيضًا ما جعلني أتهدّب من أي مصادفة تجمعنا بعد أول لقاء لنا مع القمر، فما ذنبك أنتِ لترتبني بإنسان قد يفقد حياته أو يصاب في أي وقت؟!

- هيئة أمنية؟! تفقد حياتك؟! تصاب ونسبة خطورة؟! ما هذا الذي أسمعته؟!
أهذا جاد؟!

- مع الأسف جاد، وقد طلب مني المسؤول عن المهمة أن أبعث أُمي وأختي في مكان لا يعلمه أحد كإجراء احترازي، وبما أنني سأغيب فترة في هذه المهمة فرأيت أنه من الآمن لهما أن تتركا مصر مؤقتًا وتختفيا حتى أرجع وأطمئن

أن الوضع أصبح آمنًا، فقامت باصطحابهما في هذه الرحلة حتى تنزلا مع باقي الركاب في لبنان، كأنهما في رحلة سياحية عادية، ثم سيهرَّبهما أصدقاء لي من هناك للأردن عند أقارب لهم هناك، ولكن ما لم أعمل له حسابًا أني على نفس الرحلة التي استخدمتها كغطاء لأهرب بأقرب الناس لي، أقابل حب حياتي، أنت يا ندى، ولكن بالطبع القرار يعود لك، أن تقبلي أن يرتبط قلبك بقلب شخص حياته معلقة على حافة الخطر.

لدقائق لم تعلم ندى ماذا تفعل، أتطيع عقلها الذي ينصحها أن تستدير وتمشي على الفور كي لا تقع في مشكلات هي في غنى عنها، أم تستمع لكلام قلبها الذي يقول لها إن مالك هذا قد وضعه القدر في طريقها لغرض واضح، وهو أن يعطي قلبها صدمة كهربائية ليعيده للحياة مرة أخرى، وليذيقها حلاوة العشق الذي طالما تمننت أن تشعر به؟

وانتصر قلبها الذي دفعها دفعًا لترتمي مرة ثانية في أحضانه وهي تهمس له: «أنا لك مهما يكون».

وافترقا في هذه الليلة وكل منهما يطير فرحًا بالمشاعر الوليدة التي اعترف كل منهما بها للآخر، افترقا على أمل أن يحمل لهما الغد ذكريات أخرى جميلة.

وجاء الغد حاملاً معه مفاجأة جميلة. احتفالية كبيرة أقامتها السفينة بمناسبة انتهاء الرحلة، احتفالية أتاحت لمالك وندى أن يبقىا معًا طوال الوقت دون أن يلفتا الانتباه، فقضيا اليوم كله بين الركاب، ولكن كلاً منهما لم يكن يرى سوى الآخر، وعندما وصلت لحجرتها في المساء وجدت باقة جميلة من الزهور مصحوبة بجملة واحدة «في انتظارك في مكاننا المعتاد.. أرجوك لا تتأخري».

ملحوظة: جهزي شنطك واطركي سميحة عند لينا، فانت الليلة ملكي حتى شروق الشمس».

ووصلت ندى لمكانهما المعتاد لتجد نفسها كأنها بطلة في أحد الأفلام عندما يفاجئها حبيبها بجلسة رومانسية بين الشموع والموسيقى والزهور، فها هو مالك أمامها يقف في وسط دائرة من الشموع، وابتسامة كبيرة على وجهه، تقدمت ندى نحوه وهي لا تعلم ماذا تفعل، أتلقى بنفسها في أحضانه أم تستدير وتهرب قبلما يتعلق قلبها به أكثر. ولكن مالك لم يترك لها مجالاً للتفكير، فتقدم نحوها وأخذها بين ذراعيه وهو يهمس في أذنها:

- أتصدقيني إذا قلت لك إنني أحبك؟

وكانت تلك الكلمات هي آخر ما سمعته ندى بأذنيها، فبعد هذه اللحظة لم تعد تسمع سوى بقلبيها.

قضى ندى ومالك ليلتهما الأخيرة على السفينة بين ضوء الشموع وأنغام الموسيقى التي أخذها مالك من كومبيوتر ندى، تحدثا كثيرا وهما في حضن بعضهما بعض يرقصان:

- أشعر وأنا بين أحضانك كأني عدت فتاةً مراهقة تختبر الحياة لأول مرة، كأنك أول رجل يدق باب قلبي، بل بالفعل أنت أول رجل يلتحم روعي بروحه هكذا.

- لن أكذب عليك، لقد عرفت نساءً كثيرات في حياتي، ولكني لم أشعر بهن كما أشعر بك قط، لقد احترقتني بطفولتك ونضجك في نفس الوقت،

بعفويتك وخفة دمك، بشقاوة عينيك واهتمامك بمن حولك، لقد ملكتِ روحي قبل قلبي.

- ياه يا مالك! بعد تجربتي مع زوجي السابق لم أتخيل أن قلبي يمكن أن يستسلم بسهولة لرجل آخر، ولكن لم يعد في يدي ما أفعله سوى الرضوخ لك بعدما قال القدر كلمته وتآلف روحانا بهذه الطريقة. لقد ملكت قلبي، فرفقًا به أرجوك.

دقات من هاتفه قطعت عليهما لحظتهما هذه، كلمات مقتضبة تبادلتها مالك مع الطرف الآخر من الهاتف، تبعها بكلمات مقتضبة مع ندى أيضًا:

- حبيبتي.. يجب أن أنصرف الآن.

- تنصرف الآن؟! إلى أين؟ نحن لم نصل لبنان بعد!

- مع الأسف جدتُ أمورًا تفرض عليّ أن أغادر السفينة قبل وصولنا لبنان، يوجد مركب صغير ينتظرنني الآن بجانب السفينة. انتظريني دقائق، سأذهب لأودع أمي وأختي وسأرجع لك.

دقائق مرت عليها كسنوات، عصفت برأسها خلالها أفكار بين الخوف والقلق، وصب لعنتها على القدر الذي يقف لها بالمرصاد، فها هو أول رجل يمتلك قلبها فعلاً ستحرمها منه ظروف غامضة. وما أن رجع ولمحت ندى آثارَ دموعٍ في عينيه نسيث كل تلك الأفكار وهمّت أن تمسح بيديها تلك الدموع عن عينيه عندما ارتمت فجأة بين أحضانها:

- أمي وجعت لي قلبي هي وأختي، كأنها أول مرة أذهب فيها لمهمة، ادعي لي أن أرجع لهما سالمًا.

- سادعو الله أن يردك سالمًا لهما ولي.

ضمت يديها حوله كما تفعل مع سميحة عندما تكون حزينة أو عندما ينتابها كابوس، لم تعلم كم من الوقت مر عليهما وهو يبكي كطفل صغير بين أحضانها، وهي تبكي لبكائه الذي لم تعلم السبب الحقيقي وراءه، عندما انتزعته رنات هاتفه من بين ذراعيها:

- لقد حان الوقت حبيبتي، لا أعلم هل سيُكتب لنا اللقاء مرة ثانية أم لا يا ندى، ولكن حتى يقول القدر كلمته أريدك أن تضعي سلسلتي هذه حول رقبتك حتى تُذكرك بي كلما تحركت ولا مست جسدك.

- لماذا تقول هذا؟ إن شاء الله يكون مكتوبًا لنا أن نتقابل مرة ثانية، أنا متأكدة أن لقصتنا بقية، خذ رقم هاتفني كي نبقي على تواصل حتى تصل بالسلامة.

- لا.. لا يا حبيبتي، أرجوكِ دعينا هكذا أفضل، كلما قلَّت التفاصيل التي نعرفها عن بعضنا بعض كان أفضل وآمن، فحتى عنوان أقارب أصدقائي حيث ستمكث أمي وأختي فضلت ألا أعلم عنه شيئًا، فلا قدر الله لو وقعت في أيدي أعداء فلا أريدهم أن يستخدموا أيًا من تلك المعلومات ضدي، فأنت لا تتصورين ما يستطيعون فعله. والله والله هذا صعب عليّ، ولكنني أفعل ذلك لمصلحتك ومصلحة سميحة. ولا تقلقي؛ إذا مرت هذه المهمة على خير سأعرف كيف أعثر عليك، فقلبي الذي وجد الحب في مثل هذه الظروف لن

يسمح لي أن أضيعك منه. يجب أن أنصرف فورًا قبل شروق الشمس،
فالمركب الذي ينتظرني الآن بجانب السفينة سيصحبني لنقطة التلاقي مع
باقي أفراد المهمة.

وقفت ندى تشاهد مالك وهو يهم بمغادرة السفينة، وشعور غريب بضيق في
التنفس ينتابها، كأن روحها يُسحب منها، كأن قطعة منها انتزعت وابتعدت
بعيدًا، فها هو من ملك روحها وقلبها ذاهب إلى المجهول في مهمة الله أعلم
بها وبخطورتها.

- مالك.. أرجوك انتظر.

وجرت نحوه لترتمي بين ذراعيه ربما للمرة الأخيرة، ثم أخرجت من سلسلة
تلبسها خاتم والدها الفضي ذا الحجر الأخضر، هذا الخاتم الذي لم يفارق
إصبع والدها حتى يوم وفاته، ولم يفارق رقبتها من وقتها، قبّلت الخاتم
والبسته لمالك:

- هذا أغلى شيء عندي في الدنيا، خاتم أبي. هذا الخاتم هو اللي سيجمعنا
مرة ثانية، أنا متأكدة.

وانصرف مالك في الظلام تاركًا ندى بدموع في عينيها وغصّة في قلبها
صاحبته طوال أربعة أيام قضتها في لبنان، أربعة أيام لم تغادر فيها غرفة
الفندق إلا لتذهب لتأخذ الطائرة التي سترجعها القاهرة.

أسوء شعور في الدنيا عندما تجد نفسك مجبرًا على القيام بعمل أنت لا
تريده، ولكن تفرضه عليك الظروف.. حينها نجد أنفسنا في مواجهة غريبة مع

ذواتنا نفكر ونتساءل، كيف وصل بنا الأمر أن نقبل القيام بما لا نريده، حينها تفاجئنا الحياة بإجابة قاسية: في أحيانٍ كثيرة تفرض علينا الظروف مواقف معينة وأفعالاً لم نكن لنفعلها أو نقبلها في ظروف أخرى.. ولكن -مع الأسف- هذه هي الحياة.

-٦-

وصلت ندى القاهرة، ولكنها لم تعد نفس ندى التي تركتها منذ شهر تقريبًا، لم ترجع ندى التي سافرت تحمل حزن العالم في قلبها، وتتمنى أن تساعدنا هذه الرحلة لتللم شتات كبرياتها المبعثرة، بل عادت ندى جديدة، بمشاعر نضرة، ومنظور مختلف لكثير من أمور حياتها، رجعت وقلبها يحمل بين جنباته مالك، هذا الغريب الذي قابلته وأحبته وملك قلبها في أقل من عشرين يومًا، هذا الغريب الذي اقتحم كيانها بقوة الحب، ولم يترك فيه مكانًا لذكرى تجربة أليمة، كالتى مرت بها مع زوجها السابق.

لم تكن ندى قد انتهت من إفراغ حقائق السفر حين دق جرس الباب، لثفاجاً بزوجها السابق إسماعيل يقف أمامها مستأذناً للدخول.

لم تصدق عينيها، فهذه أول مرة منذ طلاقهما يتجرأ فيها ويأتي لباب بيتها، حتى عندما كان يأتي لاصطحاب سميحة لتقضي معه اليوم، كان ينتظرها في السيارة تحت البيت حتى تنزل له.

استقبلته ندى بوجه متجهم:

- خير؟! -

- حاولت الاتصال بك عدة مرات منذ الصباح، ولكنك لم تردى على هاتفك.

- أنت تعلم أنه لم يمر على وصولنا من السفر إلا ساعات قليلة، وأكد الرد على المكالمات سيكون آخر ما يمكن أن يشغل بالي.. خيرا؟!

- أحتاج أن آخذ سميحة معي الآن، أمي في المستشفى وتريد رؤيتها.

- طنط سميحة؟ ما لها؟

- تعبت فجأة ونقلناها للمستشفى وستجربى لها غداً عملية قلب مفتوح.

انتاب ندى حزن شديد، فبالنسبة إليها حماتها سميحة لم تكن مجرد جدة لابنتها، إنما كانت بمثابة أم ثانية لها هي شخصياً، فطوال مدة زواجها من إسماعيل لم ترَ من سميحة الكبيرة سوى كل خير، وحتى عندما ولدت ابنتها وقررت أن تسميها سميحة تيمناً بها رفضت وقالت لندی إن من الأولى أن تسمي الطفلة على اسم جدتها لأمها، فالمولودة ستحمل اسم جدها لوالدها، فلتكن قسمة العدل، ولكن ندى شرحت لها أنها اختارت اسمها لأنها تشعر نحوها مثلما تشعر نحو والدتها، ثم أكدت لها أن أمها هي أيضاً مُرَحَّبَةٌ بهذا الاسم، وخصوصاً أن ابنة خالتها لديها طفلة عمرها عام وسميت مايسة على اسم مايسة الكبيرة:

- كفانا «مايسات» يا سميحة، دعي ندى تسميها باسمك لتكون مثلك طيبة وجميلة وحنونة.

وحتى بعد طلاق ندى وإسماعيل، لم تنقطع عن السؤال اليومي عن ندى، مثلما كانت تفعل خلال سنوات زواجها بابنها، وقد صممت أيضاً على عدم

حضور كتب كتاب إسماعيل على زوجته الجديدة حفاظًا على مشاعر ندى،
وكأسلوب لإظهار رفضها لموقف ابنها.

ووقعت ندى في حيرة شديدة، أتذهب الآن لزيارة حماتها السابقة في
المستشفى أم تنتظر بعد العملية حتى لا تتسبب في إزعاج أو تعتبر زيارتها
تلك تطفلاً، أو تُفسّر زيارتها بأنها مجرد حجة لرجوع المياه لمجاريها بينها
وبين إسماعيل، ولكنها لم تهتم بكل هذا وقررت الذهاب:

- فليعتقدوا ما يريدون، بالنسبة إليّ هذه السيدة مثل أمي ولن أتوانى لحظة
عن زيارتها والاطمئنان عليها مهما يكن.

ونزلوا معًا هي وإسماعيل وسميحة، التي كانت قاب قوسين أو أدنى من
النوم. وأصرت ندى أن تأخذ سيارتها برغم إنه حاول إقناعها بالعكس، فهي لن
تركب معه في سيارة واحدة، ولو اضطرت أن تذهب مشيًا على الأقدام.
ولكن الأقدار كان لها رأي مخالف.

زيارة ندى لسميحة الكبيرة في المستشفى تركت على نفسها أثرًا سيئًا جدًا،
فلم يكن سهلاً بالنسبة إليها أن تراها ممددة هكذا، فهي تمثل لندی القوة
والظهر الذي تستعين به في أي خلاف مع إسماعيل، سواء خلال سنين
زواجهما أو بعد الطلاق، والذي شهد كثيرًا من الشد والجذب فيما يخص
سميحة الصغيرة. ولحسن حظ ندى لم يكن هناك زوار سواها، فأعصابها لم
تكن لتتحمل رؤية الزوجة الجديدة لإسماعيل في مثل هذا اليوم المُهلك
للأعصاب. هذا اليوم الذي قضته ما بين لبنان والمطار وزيارة والدتها وخالتها
في منزل الأسرة، ثم خبر مرض سميحة الكبيرة وزيارتها لها في المستشفى.

«كان اليوم اكتمل لو كنت قابلت فيه الهانم زوجته الجديدة».

وكان هذا اليوم كان يقف لها بالمرصاد، أبى ألا ينتهى بسلام، فسيارتها أصابها عطل تحت المستشفى ولم تدّر، مما جعلها تواجه موقفًا صعبًا جدًّا، أتجازف وتأخذ تاكسي في هذا الوقت المتأخر ومعها ابنتها التي نامت على كرسي السيارة من التعب، أم تتصل بإسماعيل لينزل من المستشفى ويوصلهما للمنزل؟ وكان الاختيار الثاني، فالمستشفى في مكان ناءٍ والوقت تأخر.

وركبت معه السيارة، وهي ترتجف من التوتر، فهذه أول مرة منذ طلاقهما يجمعهما مكان وحدهما، ولا يفصل بينهما سوى سنتيمترات قليلة، واكتشفت أن إسماعيل بالرغم مما فعله معها، ولكن ما زال له مكانة خاصة عندها، مكانة لم تعرف ندى كيف تصنّفها أو تحت أي مسمى تضعها، ولكن الذي كانت تعرفه جيدًا أن إسماعيل سيبقى الرجل الأول في حياتها، سيبقى أول من كشف الغطاء عن الأنثى بداخلها، وسيبقى صاحب أول همسة حب، وأول لمسة وأول قبلة وأول حضن.

ولكن القدر كان له حسابات أخرى، وكأنه أراد أن يعطيها القوة لتقاوم أي أحاسيس يمكن أن تتولد لديها بمجرد وجودها بالقرب من إسماعيل في سيارة واحدة، كأنه أراد أن يذكرها أن قلبها لم يعد ملكها، فبعد أن انطلقت السيارة بقليل وجدت أحيانًا تعرفها جيدًا تخرج من راديو السيارة، أحيانًا مست قلبها على الفور، فهذه أغنيتها هي ومالك، الأغنية التي رافقتها في ليلتهما الأخيرة، أغنية سمعها مرارًا وتكرارًا ورقصا على أنغامها معًا، وما أن سمعت ندى نغمات الأغنية إلا وذهبت في دنيا ثانية، ذهبت بعقلها وقلبها

آلاف الأميال، رجعت لهذه الليلة على سطح السفينة وهي بين ذراعي مالك، رجعت لهذا الشعور الجميل بالاحتواء الذي زلزل كيائها كله.

في هذه الليلة ما أن وضعت رأسها على المخدة إلا وآلاف الأفكار بدأت تتلاحق في رأسها، فكلمات سميحة الكبيرة لها، أو وصيتها - كما شعرت ندى - ما تزال تردن في أذنها:

- وصيتك إسماعيل لو أصابني شيء في العملية، أرجوك يا ابنتي سامحيه، لن يبقى له من بعدي غيرك أنتِ وسميحة الصغيرة، فأخوه ليس في مصر وهو بلا أقارب، لا خال ولا عم.

- حماك الله ورزقك عمراً طويلاً. ولكن بالنسبة إليّ إسماعيل صفحة وطويتها، فهو أصبح أبا سميحة فقط.

- يا ابنتي اسمعيني أرجوك.. إسماعيل تعلّق بك من أول مرة رآك فيها، والملعونة التي تزوجها هي التي لعبت به عندما عرفت أنه وارث أموال وعقارات من والده. أنا متأكدة أن هذا الزواج لن يستمر أكثر من ذلك، فكل شيء انكشف، وإسماعيل بدأ يلاحظ أخيراً أنها تجري وراء فلوسه. أعطي له فرصة ثانية من أجل ابنتك يا ندى.

أرادت ندى أن ترد، ولكنها رأفت بحال سميحة الكبيرة، فكفاها آلام الجسد وتوتر ما قبل العملية فلن تُحمّلها آلاماً نفسية وتأنيب ضمير، إذًا ماذا ستقول لها؟ أستقول لها إنها بعد طلاقها اكتشفت به عيوبًا لم ترها طوال فترة زواجهما؟ أستقول لها إن طيبتها وتديلها لإسماعيل منذ صغره هما ما أوصلاه إلى هذه الدرجة من الأنانية؟ أستقول لها إن طلباته المُجابهة منذ

نعومة أظافره هي التي خلقت منه هذا الشخص الذي لا يرى سوى رغباته وطلباته؟ أستقول لها إنها الآن عندما ترجع بالذاكرة لحياتها مع إسماعيل تتعجب كيف استطاعت أن تتحمل مثل هذه الحياة، مع شخصية مثل شخصية إسماعيل، شخصية خاوية بلا مشاعر أو إحساس بالغير، حتى أقرب الناس إليه؟ ربما كان احتمالها لأن مرآة الحب عمياء، أو أنها احتملت من أجل ابنتها، أو لأنها تربت في أسرة بالنسبة إليها الطلاق ضعف واستسلام وأي امرأة تستسلم وتطلب الطلاق هي امرأة ضعيفة، وهي لم تكن قط ضعيفة، لذا تمسكت وفعلت كل ما في وسعها لآخر لحظة لتسير المركب بها وبإسماعيل.

هل ستحكي لها عن مواقف كثيرة بينها وبين إسماعيل كادت تهدم بيتها عشرات المرات، ولولا أن في كل مرة كان إسماعيل يتدارك الموقف، فيستغل حبها له ليصالحها وترجع ريمًا لعادتها القديمة؟ ماذا ستحكي لها؟ أستحكي لها محاولاته الدائمة لهدم أي شيء جميل تفعله والتقليل من شأنها دومًا؟

وأخيرًا داعب النوم جفنيها بعد محاولات كثيرة منها لمقاومة الذكريات القديمة التي استيقظت بداخلها مرة أخرى، وكانت كفيلة أن تحرق دمها وتذهب النوم من عينيها للصباح، لكنها لم تكد تغمض عينيها حتى استيقظت على صوت بكاء ابنتها في الحجرة المقابلة، تصرخ من كابوس أصابها، وبعد أن هدأتها وأعطها قليلاً من الماء، رجعت ندى لحجرتها، ولكن كان النوم قد ذهب بلا رجعة، وتركها مع ذكريات بعيدة مع إسماعيل، لم تكن تريد أن تتذكرها مرة أخرى.

جاءها أذان الفجر نجدة، حيث قطع عليها وصلة الذكريات، وعلى سجادة الصلاة سجدت ندى وهي تدعو الله أن يعينها ويقويها، وأن يرحم والدها ويحفظ لها والدتها ويؤتم شفاء خالتها، وأن يحفظ سميحة الصغيرة ويشفي سميحة الكبيرة، وهمت أن تقوم من على سجادة الصلاة فتذكرت أنها نسيت مالك في دعواتها. جلست مرة ثانية وهي تؤنب نفسها، فكيف لها أن تنسى مالك؟! مالك الذي ضمد لها جراح قلبها وداواه بعدما جرحه إسماعيل.. مالك الذي أعطته خاتم والدها ومن قبله منحته قلبها. وكأنها رُزقت الدعاء له في هذه اللحظة، وجدت لسانها يدعو كما لم يدعُ من قبل، طلبت من الله أن يحفظه لها ويوفقه في مهمته ويرده لها سالمًا.

من أقسى المشاعر الشعور بالحنين، الحنين لحياة مضت، الحنين لحب كان، الحنين لشخص تُوفِّي، الحنين لمكان، الحنين لنفسك القديمة، الحنين لحضن أمك ولابتسامة أبيك.. قاسٍ هو إحساس الحنين، ولذلك خلق الله - سبحانه وتعالى - من أجلنا الذاكرة التي تحتفظ لنا برائحة الذكريات، فنعود إليها كلما شعرنا بالحنين.

-٧-

كما توقع مالك، فوجود سلسلته في رقبة ندى كان سببًا رئيسيًا لئلا يفارق خيالها طوال اليوم، وخصوصًا خلال زيارتها اليومية لسميحة الكبيرة في المستشفى، حيث كانت تحتمي بذكرى مالك من تأثير وجودها اليومي بالقرب من إسماعيل، ولكن بالنسبة إلى أمها لم يكن هذا كافيًا، فهي كانت تخاف من تداعيات وجود ندى يوميًا بجانب إسماعيل:

- يا ابنتي قد شُفيتِ لتوِّك من إسماعيل وحكايتك معه، والآن تُعرِّضين نفسك لضغط عصبي من جديد! بصراحة أخاف أن شعري بالحنين تجاهه وتراجعين عن قرارك بالابتعاد عنه، والذي خان مرة يخون ثانية وثالثة، وأنتِ لن تتحملي منه صدمة أخرى. أرجوكِ تراجعِي عن زهابك شبه اليومي للمستشفى؛ أنتِ لست مدينة لهم بشيء.

- لا تخافي يا ست الكل؛ ندى التي تقف أمامك الآن غير ندى التي سافرت في رحلة بحرية منذ أسابيع مضت، وأنتِ تعرفين هذا جيدًا، أنا الآن بفضل الله -سبحانه وتعالى- ومن بعده مالك، أصبحت إنسانةً جديدةً لن تخضع لأي ضغطٍ من إسماعيل ولا من سميحة الكبيرة، ولا حتى سميحة الصغيرة التي تمتلئ عيناها بالدموع كل مرة تودع فيها أباهما ونحن ننصرف من المستشفى. اطمئني؛ صفحة إسماعيل أغلقت أبدًا، وصراحة أنا لن أستطيع أن أحنث بوعدِي لسميحة الكبيرة، فأنا وعدتها كما طلبت مني أن ترى حفيدتها يوميًا، وأنتِ تعرفين حفيدتك كل مرة تصمم أن أصعد معها.

وكانت ذكرى أيامها القليلة مع مالك، هي ما يعطي لندی القوة لتقاوم تأثير وجودها مع إسماعيل في نفس المكان، فإسماعيل بدأ مناورة جديدة معها شبيهة بمناورته في هذا اليوم الشتوي البعيد عندما استطاع أن يُرجِعها لحضنه بعد قرارها بالانفصال عنه، ففعلًا كما توقعت سميحة الكبيرة، فقد طلق إسماعيل زوجته الجديدة بعدما تأكد من نواياها تجاهه وطمعها في ثروته، وبالتالي حوّل الدفة مرة أخرى تجاه ندى، فهو لم يتعود أن يتحمل مسؤولية نفسه ويحتاج دومًا مساعدًا في حياته، بمعنى أصح شخص يتحمل مسؤوليته، ووضع والدته الصحي لن يسمح لها أن تقوم بالعناية به مثل زمان، ولكن ما لم يكن يتوقعه أو يتخيله إسماعيل أن ندى التي يراها يوميًا وهي تزور أمه مختلفة نهائيًا عن ندى الذي تركها محطمة منذ ما يزيد عن العام.

وكان يوم خروج سميحة الكبيرة من المستشفى يوم هام بالنسبة إلى ندى، فأخيرًا ستبتعد عن توتر الأعصاب والضغط النفسي الذي كان يُمارَس عليها من إسماعيل من ناحية ومن أمه من ناحية أخرى.

وبخروج سميحة الكبيرة من المستشفى رجع كل شيء لحالته الطبيعية، سميحة ترجع من مدرستها تذاكر وتذهب للنادي بصحبة أمها لتمارينها وندی تقضي اليوم في القراءة والكتابة على مدونتها.

أما عندما يأتي المساء كان مالك شريك ليايلها وأحلامها، هو الوحيد الذي تصطحبه معها لفراشها، تلغي أي شيء آخر من تفكيرها، تنسى قلقها من المستقبل، خوفها على ابنتها الممزقة بينها وبين أبيها، تنسى همومها، تنسى كل شيء.. ما عدا هو وحبه الذي لم تأخذ كفايتها منه خلال الأيام القليلة لهما

معًا. كلما أغمضت عينيها كانت تراه في أحلامها، وعندما تستيقظ من النوم كان أول ما تفعله هو الدعاء له أن يحفظه الله ويرده لها سالمًا، فالأفكار التي تتلاحق في عقلها كانت تبتث القلق في قلبها، فحبيبها الآن في مكان بعيد، يقوم بمهمة الله أعلم بها، لا تعلم.. هل هو آمن أم أصابه مكروه؟ هل ستراه مرة أخرى أم قصتهما تلك انتهت بانتهاء هذه الرحلة؟ هل يفكر فيها أم انشغل بمهمته ونسيها؟ هل وجود خاتم والدها في إصبعه يثير في قلبه مشاعر مثل التي تشعر بها ندى كلما تحركت سلسلته في رقبتها؟

خلقت هذه الأفكار حالة من الشوق والقلق والترقب لدى ندى، فأصبحت تبحث عن مالك في وجوه كل من تقابلهم في أي مكان تذهب إليه، كانت تبحث عن أي إشارة منه، أصبح طريق مطعمه هو البوصلة التي تبدأ بها أي مشوار وتنتهي، وأصبحت زيارة هذا المطعم مرة أسبوعيًا شيئًا مقدسًا بالنسبة إليها، تذهب إليه مع أمها أو إحدى صديقاتها، على أمل أن تراه، فربما يكون قد وصل القاهرة ولم يستدل عليها، وكثيرًا ما كانت تمنع نفسها من السؤال عنه في المطعم عندما تتذكر ما قاله لها، أما تليفونها فلا يفارق يديها حتى عندما تدخل الحمام، فربما يحاول مالك الاتصال بها، فهي كانت متأكدة أنه سيستطيع الحصول على رقم تليفونها بمنتهى السهولة إذا أراد، فمالك الذي حصل على مفتاح قلبها لن يكون من الصعب عليه أن يحصل على رقم تليفونها.

واستمر الوضع هكذا لأسابيع كثيرة، حتى بدأت أمها تقلق من انشغال ندى الزائد عن الحد بمالك، فأبي حديث بينهما لا يخرج عن موضوعين، سميحة ابنتها أو مالك، فبالنسبة إلى مایسة كان أكثر ما يقلقها أن يكون ما جرى في

السفينة بين ابنتها ومالك مجرد نزوة بالنسبة إليه ومضت، فتصاب ابنتها بحالة نفسية سيئة كالتي أصابتها بعد طلاقها، ولكنها في نفس الوقت كانت سعيدة بالتغير الملحوظ في شخصية ندى، أو بمعنى أصح كانت سعيدة بعودة ندى القديمة، الشابة المليئة بالحيوية، التي تشع مرحًا وإشراقًا في أي مكان تظهر فيه.

وبدأت السيدة مایسة في تشجيع ابنتها للبحث عن عمل، فهي تعلم جيدًا أن الانشغال بأي عمل مهما كان بسيطًا قادرٌ على خلق حالة لا إرادية من الإلهاء، مما سينسيها مالك هذا مع مرور الوقت.

ولكن كيف لندی أن تنسى الحب الذي أهداها إياه القدر؟ كيف تنسى من ملك قلبها وروحها من أول نظرة؟

ولكن اختفاه الذي طال حتى تعدى ستة أشهر زرع القلق في قلبها.. هل أصابه مكروه؟ لكنها كانت ترجع وتطمئن نفسها، لو أصابه مكروه -لا قدر الله- أكيد كانت ستعرف سواء من ردة الفعل في المطعم أو من الجرائد التي تقرؤها بانتظام، عساها تجد فيها ما يدلها على مالك أو مهمته.

أفكار كثيرة عصفت بتفكير ندى مئات المرات قبل أن تتخذ قرارًا مهمًا، يجب أن تقلب صفحة مالك من حياتها ولو مؤقتًا، يجب أن يدخل مالك في خانة الذكريات داخل قلبها، يجب ألا يأخذ حيزًا أكبر من حجم قصتهما حتى إشعار آخر، فالحياة يجب أن تستمر، كانت خطوة صعبة جدًا بالنسبة لندی، ولكن كلمات أمها طمأنتها وأراحت قلبها قليلًا:

- ندى حبيبتي.. كل شيء محسوب بدقة عند الله سبحانه وتعالى، وأكد ظهور مالك في حياتك في هذا التوقيت كان له مغزى أو إشارة، ربما أراد الله أن يفهمك أن الحياة لم تقف بعد طلاقك من إسماعيل وأن قلبك يمكن أن يحب مرة ثانية وثالثة. اقلبي صفحة مالك وابدئي في التخطيط لحياتك. لمرة في حياتك ضعي خططًا مستقبلية لندی فقط، لا لندی زوجة إسماعيل ولا ندى حبيبة مالك، ولا حتى لندی أم سميحة، فقط ندى الشابة المليئة بالحيوية، التي تتمتع بذكاء وقوة ملاحظة يشعر بهما كل من يتعامل معها، ندى التي تتحلى بإرادة حديدية. أعتقد أن نجاحك في إعادة التواصل مع قراء مدونتك بعد أن هجرتِ الكتابة فيها لعدة أشهر بعد طلاقك هو أكبر دليل على أنك مستعدة لدخول معترك الحياة العملية، ولا أقصد بكلامي هذا أن تهملِي ابنتك، ولكني موجودة هنا للعناية بها عندما تبدئين العمل، وأعدك أن أقنع خالتك ونرجع للإقامة في شقتنا التي أمامك، لأكون بجانبك وأساعدك في رعاية سميحة، ثم الحمد لله أنها بدأت تتأقلم في المدرسة الجديدة، ومن ناحية أخرى بدأ إسماعيل في تحمل مسؤوليته الأبوية وشعر باحتياج ابنته وأصبحت تقضي معه يومين في الأسبوع، مما حسن نفسيته كثيرًا.. خدي قرارك يا ندى وابدئي بأي عمل حتى لو موظفة صغيرة في أي شركة، أي شيء المهم تبدئي.

طريق الألف ميل يبدأ بخطوة نخطوها في الطريق السليم. لا شيء في الحياة يأتي سهلاً، يجب أن نعاقر ونسعى ونحفر في الصخر لنحصل على ما نريد.

كان كلام والدتها أكبر حافز لها، حيث بدأت ندى بالفعل في البحث عن عمل، ولكن في المجال الذي تحبه، عشقها الأول، الصحافة والكتابة، بالرغم من تخوّفها ألا تجد لها مكانًا في هذا العالم، فأبي جريدة أو مجلة لن تريد صحفية تحت التمرين تعدت السادسة والثلاثين بشهور، ولكنها قررت أن تخوض التجربة وتحاول، لذا رفضت الوظيفة التي جاءها بها خالها في قسم العلاقات العامة في شركة أحد أصدقائه، فهي لم تكن تبحث عن عمل سوى في الصحافة، وقدمت في عدد من المجلات والجرائد، وبحثت على الإنترنت عن وظائف، ولكن لم يحالفها الحظ، حتى كانت ذات يوم عند الكوافير في انتظار دورها فسمعت حديثًا بين سيدتين تتحدثان فيه عن مجلة جديدة صدر لها العدد الثالث منذ أيام، وكيف أن هذه المجلة «كسّرت» الدنيا من أول عدد، وأنها تبحث عن محررين وصحفيين ذوي خبرة. حاولت ندى أن تعرف من سياق حديثهما اسم المجلة أو أي تفاصيل بخصوصها، ولكنها لم تُوفّق.

لكن ندى الجديدة لم تكن لتدع هذا الأمر البسيط يقف عائقًا أمامها، وخرجت من عند الكوافير فورًا لبائع الجرائد، حيث عرفت اسم المجلة، ومن بائع الجرائد للإنترنت، حيث بحثت كمخبر سري عن المجلة وعن رئيس تحريرها والعاملين بها والسياسة التحريرية لها، وكذا عنوانينها وأرقام تليفوناتها، ثم قرأت الأعداد السابقة على الإنترنت، وكوّنت فكرة مبدئية عما قد تحتاجه المجلة في مجالات الكتابة، ولكن ما شد انتباهها فعلاً هو المقال الافتتاحي لرئيس تحرير المجلة في أول عدد، حيث حكى عن بداياته في الصحافة،

وكيف أنه بدأ بمجهوده الخاص دون واسطة أو مساعدة من أحد، وكيف أنه بدأ طريق الصحافة من أول السلم، وكيف أنه يحترم كل شاب مقدم يبحث عن العمل ولا ينتظر العمل أن يدق بابه.

وفي ظهر اليوم التالي كانت ندى في طريقها للمجلة، بعدما اتصلت برئيس تحريرها على تليفون المجلة، برغم أن إمكانية التحدث مع رئيس تحرير أي مجلة أو جريدة شخصيًا على التليفون يعتبر من المستحيلات، ولكن الحظ كان حليفًا لندی، واستطاعت أن تتحدث معه بعد محاولات عدة، وتطلب منه موعدًا لأمر مهم، وعندما سألتها بخصوص ماذا هذه المقابلة، قالت له «دَيْنٌ قديم»، وكانت هاتان الكلمتان كفيلتين بشد انتباهه وإثارة فضوله، وأعطاهما على الفور موعدًا في اليوم التالي.

وما أن وصلت ندى مقر المجلة إلا وأصابها التوتر، فماذا ستقول لرئيس التحرير عندما تقابله؟ أستقول له إنها تريد العمل ولكنها ليس لديها خبرة؟ أستريه شهادتها الجامعية؟ أستحكي له الظروف التي جعلتها تبحث عن عمل بعد أربعة عشر عامًا من التخرج؟

ولكن ما أن وجدت نفسها أمامه إلا -وللدهشة- انطلق لسانها:

- حضرتك قد تستغرب طلبي لمقابلتك دون سابق معرفة بيننا، ولكني أتيت لأطلب منك أن انضم لفريق العمل في مجلتكم هذه، فأنا لم أحاول أن أبحث عن تزكية من أحد يعرف حضرتك، أردت أن أعمل بمجهودي الخاص، هذا طبعا لو حضرتك وجدت في ما يؤهلني للعمل الصحفي.

نظر إليها رئيس التحرير، الأستاذ توفيق، الخمسيني ذو الشعر الأبيض
القصير، من وراء نظارته نظرة إعجاب:

- وأنا يعجبني الشخص المقدم الذي يسعى وراء ما يريد، أنا عن نفسي
عندما بدأت طريقي في الصحافة بدأته مثلك تمامًا، ولكن أولاً قولي لي ما
حكاية «دين قديم» هذه التي حدثتني عنها في التليفون!

- حضرتك في مقالك الافتتاحي في أول عدد للمجلة كتبت عن بداياتك،
وكيف أن رئيس تحرير أول جريدة تقدمت للعمل فيها أعطاك فرصة على
الفور، وحكيت كيف أنك تدين له بذلك وأنت وعدته أن ترد الدين لمن يكون
في نفس موقفك، وها أنا هنا لأطالبك بسدادك دينك لهذا الرجل العظيم الذي
لا أعرفه.

ابتسامة إعجاب ارتسمت على وجه الأستاذ توفيق:

- أنتِ بالفعل تذكيرني بنفسي في هذا الموقف، وأنا فعلاً أدين له ولنفسي برد
الجميل للجيل الجديد، وأنت مبدأياً لديك أول صفات الصحفي الشاطر:
الذكاء والحيلة. قولي لي ما مجال كتاباتك؟ ما الذي تجيدين كتابته؟

وكانت إجابة ندى نظرة خجولة وكلمات متلجلجة خرجت من فمها:

- للأسف لا يوجد لي خط معين، فكما قلت لحضرتك إن هذا سيكون أول
عمل لي في مجال الصحافة، وأكد حضرتك متعجب من موضوع سني و...

- لا تكلمي. الصحافة مثلها مثل باقي أفرع الإبداع، لا سن لها. عموماً لا
تشغلي بالك بموضوع الخبرات السابقة والسن، فالصحفي الموهوب يظهر من

أول كلمة يكتبها، أريد منك أن تأتي لي الأسبوع القادم بخطة عمل عن أي موضوع يلفت نظرك في أي من الجرائد اليومية.

فوجئت ندى بطلبه، ف«خطة» عمل كلمة جديدة عليها، وظهر التعجب على وجه ندى، فاستطرد:

- خطة عمل معناها أن تختاري أي موضوع أو خبر مهما كان صغيرًا، من أحد الجرائد اليومية وتكتبين لي الخطوات التي ستتبعينها لتخرجي لنا بموضوع صحفي متكامل الأركان. لا تقلقي؛ الموضوع ليس صعبًا كما يظهر لك الآن.

خرجت ندى من المجلة وقدمها بالكاد تلمسان الأرض، تكاد تطير من الفرحة، وكان أول من جاء في بالها ليشاركها فرحتها مالك، وليس كما تعودت أن تكون أمها، تمت لو كان موجودًا لتحكي له عن لقاء اليوم وتفكر معه فيما طُلب منها، في هذه اللحظة اكتشفت أن مالك ما زال يسكنها وليس كما اعتقدت أنها قلبت صفحته من حياتها، فعندما تعترينا أي مشاعر حزن أو فرح أو حيرة يأتي في بالنا أقرب شخص لقلبنا لنتشارك معه ما نشعر به، ولكنها على الفور تذكرت العهد الذي قطعته لأمها، أن تكون ندى لندی فقط لا غير، ثم تعمدت أن تُذكر نفسها أنها أغلقت صفحة مالك مؤقتًا.

يومها فوجئت أمها عند دخول ندى المنزل أنها تحمل كماً غير عادي من الجرائد:

- ما هذا يا ندى؟ هل نويت أن تفتحي كشك جرائد؟!

ابتسامة ندى والإشراق الذي ظهر على وجهها انتقل لوالدتها:

- طمئيني، يبدو لديك أخبار سارة.

- قولي يا رب يا أمي.. رئيس تحرير المجلة التي كنت فيها اليوم وكُل لي مهمة، دعواتك أن أنجح فيها.

وحكت ندى لوالدتها تفاصيل اللقاء وتفاصيل المهمة، وطلبت منها أن تمكث معها عدة أيام مؤقتًا حتى تساعدتها في رعاية سميحة لتتفرغ هي لتجهيز المطلوب منها.

وقضت ندى الأيام التالية تفنّد الجرائد، جريدة جريدة، صفحة صفحة، عامود عامود، حتى وقعت عينها على خبر صغير في أحد جرائد المعارضة:

«دخول شحنة من لعب الأطفال مجهولة المصدر للبلاد، عن طريق ميناء الإسكندرية، وعند تحليل عيّنة منها ثبت احتواؤها على مواد مسرطنة».

وجلست ندى يومًا بليلة تُجهّز خطة العمل التي طلبها منها الأستاذ توفيق.

وفي موعدها المحدد كانت تجلس أمامه وهو يقرأ خطة العمل التي جهزتها، ومرت هذه الدقائق كالساعات على ندى «تُرى ستنول إعجابه؟ هل سأنجح في هذا الاختبار؟ هل سيقبلني معه في المجلة؟».

قطعت عليها الابتسامة الوقورة لرئيس التحرير سيل التساؤلات التي كانت تدور في رأسها، فقد ناولها الملف الخاص بخطة العمل قائلاً:

- نفّذي.. مُرّي على السكرتارية في طريقك ليجهزوا لك ورقة رسمية من المجلة مفادها أنك تمثلينا، ستحتاجينها في الأماكن التي ستذهبن إليها.

خرجت ندى من مقر الجريدة وهي لا تصدق نفسها، «هذا جادا! نعم جادا! ها هي الورقة عليها ختم المجلة».

وكانت سعادة ندى بهذه المهمة لا تُوصف، فقد كان هذا الموضوع يمثل لها أول خطوة في مستقبلها المهني، موضوع ينحصر بين ميناء الإسكندرية حيث مكان تخزين الشحنة، والنيابة، والشركة المستوردة في القاهرة. موضوع صحفي بسيط تتمنى أن تقوم به على أكمل وجه ليكون خير بداية لمستقبلها المهني.

أوقات كثيرة نكون مخططين لأمر ما ثم فجأة نلاقي كل شيء اختفت، ونجد القدر يأخذنا إلى طريق آخر غير الذي كنا سنسلكه.. لا تقلق فهذا الله سبحانه وتعالى يأخذ بأيدينا للطريق الأفضل لنا، استمر في هذا الطريق حتى لو كان مليئًا بالحفر والمطبات، قل الله أعلم فله حكمة في اختيار هذا الطريق.

استقلت ندى قطار الساعة الخامسة فجرًا للإسكندرية، فهي تريد أن تبدأ
النهار من بدايته حتى تنهي مهمتها في الميناء والنيابة، فتعود القاهرة قبل
المساء كما وعدت صغيرتها.

- وعد يا سمحية يا حبيبتي أن أكون في البيت قبل رجوعك من الغداء مع
أبيك.

- كنت أتمنى لو تأخذيني من المدرسة مع أبي كما كنا نفعل ونتغدى كلنا معًا.
هذا أول يوم لي في المدرسة بعد إجازة نصف السنة، لو سمحت يا أمي،
أجّلي مشوارك ليوم آخر.

- آسفة يا حبيبتي، ليس في استطاعتي تأجيل الأمر، كما أن أباك في إجازة
خصوصًا من أجل الخروج معك، والله يا حبيبتي سأكون في البيت ربما حتى
قبل عودتك.

ما أن نزلت من القطار في محطة سيدي جابر حتى أخذت نَفَسًا عميقًا، فهي
الآن وصلت إلى أحب مكان في قلبها، الإسكندرية، قصة حب قديمة كبرت
بداخلها منذ طفولتها، حين كان والدها يصطحبها هي ووالدتها ليقضوا
أسبوعًا كاملًا من إجازة نصف العام هناك، إجازة كاملة يقضونها بين شوارع
الإسكندرية المغسولة بماء المطر، لم تعرف أبدًا سر ولع والدها بالإسكندرية
شتاءً وإصراره على قضاء أسبوع كامل هناك في هذا الجو السحري الجميل،

جو أحيانًا يحمل بردًا وأمطارًا ورعدًا وبرقًا، وأحيانًا أخرى يحمل شمسًا ذات دفء عجيب.

وصلت ندى النيابة في الموعد الذي حددته مع وكيل النيابة تليفونيًا، عندما اتصلت به قبلها بيومين، واستقبلها الأستاذ رجب وكيل النيابة بابتسامة وترحيب شديد، مما أسقط في قلبها، فليس هذا ما تسمعه عن معاملة الصحفيين في الأقسام والنيابات، ولكن عندما عرفت السبب من والدتها بعد ذلك بطل عجبها، فلقد لجأت والدتها لأخيها مُعربة عن قلقها على ندى التي صممت على السفر وحدها للإسكندرية لتقوم بعملها، عرف الخال التفاصيل وبدأ يسأل عن طريق معارف له عن تفاصيل موضوع ندى، وعندما عرف اسم وكيل النيابة الذي ستذهب إليه ندى في الإسكندرية تبين له أنه ابن لصديق له، وبالطبع اتصل بهذا الصديق ليوصي ابنه على ندى.

ولكن ما قرأته بعينيها في أوراق القضية في النيابة، وما سمعته هناك قلب لها موازين التحقيق الصحفي الذي سافرت من أجله، رأسًا على عقب، فهي سافرت لعمل تحقيق بسيط حول دخول حاويات تحتوي على لعب أطفال غير مطابقة للمواصفات إلى ميناء الإسكندرية، وكانت خطة عملها أن تذهب للنيابة تطلع على المحاضر وأوراق القضية، ثم تذهب للميناء لتصور هذه الحاويات وما تحمله، وبعدها ترجع للقاهرة لتفرغ كل ما سجلته وكتبته في ملف داخل الكمبيوتر الخاص بها، ومنه إلى إيميل رئيس التحرير.

ولكن ما نتج من تحليل عينة من تلك الألعاب التي اكتشفوا أنها مُصنَّعة من مكونات ضارة جدًا أغلبها من مخلفات مستشفيات، هو الذي صدمها ووضعها في حيرة شديدة، فكيف سمح ضمير البعض أن يستورد لعب أطفال مصنعة

من مخلفات مستشفيات، لعب تُعرّض مستخدميها من الأطفال لخطر الإصابة بأمراض خطيرة أولها السرطان.

ولم تجد بُدًا من أن ترجع للقاهرة لتعيد النظر في الموضوع ككل، ولتستشير رئيس التحرير في التطورات الجديدة في الموضوع، حيث فكرت أن تتوسع قليلاً ليشمل التحقيق التخلص الآمن من مخلفات المستشفيات في مصر، والمخاطر الصحية للمنتجات التي تصنع في مصانع بير السلم.

وفي الصباح التالي كانت تقف أمام رئيس التحرير تعرض عليه كل المعلومات التي حصلت عليها، وتشرح له أن هذا الموضوع له أبعاد كثيرة وأطراف كبيرة ومسنودة، وشرحت له أن هذه الشحنات دخلت في حاويات إلى ميناء الإسكندرية، وكيف أنها لم تكن المرة الأولى التي تدخل مثل هذه الشحنات البلاد، ولكن هذه المرة لأمانة أحد الموظفين حديث التعيين في الميناء صمم على تحليل بعض الألعاب، بعد أن شك في الشحنة، بسبب الرائحة الغريبة التي شمّها وهو يفحصها.

وعرضت عليه ندى فكرتها في التوسع في الموضوع الصحفي.

نظرات الإعجاب التي ظهرت على وجه الأستاذ توفيق أسعدت ندى، فهي نظرات إعجاب أبوية ذكّرتها بنظرات والدها إليها عندما كانت تحصل على درجات جيدة في المدرسة:

- لم تخيبي نظرتي فيك يا أستاذة ندى، فأنت صحفية موهوبة بالفطرة، أنا كنت أعلم جزءًا من أبعاد تلك القضية، ولكنني أردت أن أختبر حسك الصحفي،

وقد نجحت فيه فأنت لم تكتفي بما قرأته وبذكائك وفطنتك رأيت للموضوع أبعادًا أخرى.

واتفق الأستاذ توفيق مع ندى أن تأتي غدًا ظهرًا لتحضر اجتماع أسرة التحرير الأسبوعي، ولكنه استطرد وأفهمها أن حضورها هذا الاجتماع لا يعني أنها انضمت رسميًا للمجلة، ولكن أهمية هذا الاجتماع أنه سيفتح لها باب النقاش حول موضوعها مع زملاء لها في المجلة، فتنفتح لها مجالات أكبر لكتابة تحقيق متكامل. وبرغم أن الأستاذ توفيق أكد لها أنها لم تُعيّن أو تُقبل بعد ولكنها استبشرت خيرًا بكلمة زملائك.

وبالفعل كما قال لها رئيس التحرير، فتح لها اجتماع أسرة التحرير مجالات كثيرة كانت غائبة عنها في هذا الموضوع، فالبعض اقترح أن تبحث وراء الشركات التي تستورد من نفس المصدر، والبعض الآخر اقترح أن تتحدث مع الموظفين في الشركة المستوردة لصعوبة العثور على صاحب الشركة، حيث إنه لم يستدل على مكانه منذ استدعته النيابة للتحقيق معه بخصوص هذه الشحنات، وآخرون نصحوها أن تذهب لوزارة الصحة لتستفسر عما نتج من التحريات حول الشحنة. أفكار كثيرة تبادلوها بخصوص موضوعها هذا، وأفكار أخرى خاصة بمواضيع أخرى يعمل عليها صحفيو المجلة، بالنسبة إلى ندى كان هذا من أسعد أيام حياتها، فأخيرًا حلمها يتحقق، لقد بدأت أول طريقها في سكة الصحافة، طريق قطعه عليها إسماعيل، ولكنها ها هي بفضل من الله عادت إليه مرة أخرى.

وما بدأت ندى كت تحقيق صحفي حول لعب أطفال مُضرة وجدت من ينسى ضميره ويستوردها، تحول لتحقيق صحفي حول معايير الأمان فيما يُستورد

ويدخل البلاد، ومنه تحول لحملة صحفية حول مخلفات المستشفيات وطرق التخلص الآمن منها.

تحقيقان بدأت بهما ندى مشوارها الصحفي، وأدخلاها قسم التحقيقات في المجلة من أوسع أبوابه، فعندما يؤثر تحقيق صحفي في الرأي العام ويترك أثره على القراء، يكون من حظ صاحب التحقيق، حيث ينتقل لدرجة أعلى في عمله، وذلك ما جرى مع ندى بالضبط.

وجدت ندى نفسها من موضوع لموضوع ومن نجاح لنجاح، ولم يمر العام على ندى إلا وقد عُيِّنت نائب رئيس قسم التحقيقات في المجلة.

خلال هذا العام بذلت ندى كل ما في وسعها لتعوّض السنوات التي ضاعت منها، فهي لديها أحلام كثيرة كانت مؤجلة، وبدخلها طاقة كبيرة تحتاج أن تفرغها، ومع كل نجاح كان سقف طموح ندى يعلو ويعلو، وأخيرًا ولأول مرة منذ زمن، تشعر أنها تمسك بزمام حياتها بعد سنوات كثيرة من التخبط.

من أصعب الأمور اللي تقابلنا في حياتنا التأقلم..

التأقلم على حياة جديدة.. زواج، عمل، دراسة، جيرة، ولادة طفل، طلاق، مراهقة الأبناء...

ولكن يبقى الأصعب هو التأقلم مع الذات بعدما تتغير من أجل الحياة الجديدة، والتساؤلات التي نطرحها على أنفسنا مع كل تغير جديد:

كيف نقبل أشياء لم نتخيّل أن نقبلها يومًا؟ كيف نفعل أشياء أخرى كنا نرفض حتى التفكير في احتمالية القيام بها؟

كيف تغيرنا؟ ومتى تغيرنا؟!

كانت الفترة التي تلت ترقيتها في المجلة فترة مشحونة ومرهقة في حياة ندى، حيث كان لا بد لها أن تنظم أوراق حياتها وترتب أولوياتها، وكان على رأسها سميحة التي نضجت في الفترة السابقة بسرعة، فهي لم تعد تلك الطفلة الصغيرة التي كانت ترى أن أمها هي الدنيا وما فيها، الطفلة التي كانت ترى في عينيها حب الدنيا، تتبع خطواتها في كل مكان كظلها، في المساء لم يكن يغمض لها جفن سوى بين أحضان ندى، أما الآن فكل شيء تغير، لقد أصبحت سميحة على بُعد خطوات قليلة من سن الشباب، أصبح لها احتياجات ومتطلبات، لم يعد أي شيء يرضيها مثل ذي قبل، حتى موضوع عمل ندى في المجلة وتقدمها السريع في مجال عملها لم يترك أثرًا طيبًا عليها، وبدأت ندى تلاحظ تغييرًا في سلوك سميحة، حيث أصبحت انطوائية تقضي أغلب وقتها في حجرتها، وأصبحت تعاملاتها مع من حولها تتسم بالعدوانية، فتفقد أعصابها لأقل سبب ويعلو صوتها، حتى ملامحها التي كانت تتسم بالطيبة والبراءة بدأت تتحول لملامح جامدة لا حياة فيه، ومع الوقت بدأت ندى تشعر أن هناك حاجزًا نفسيًا بينها وبين ابنتها، التي لم تعد تتكلم معها ولا تهتم بوجودها مثلما مضى، لم تعد تعترض سميحة إذا جاءت ولم تجدها في المنزل، لم تعد تبحث عنها بمجرد عودتها من المدرسة لتحكي لها عما فعلته هي وأصدقائها، فصلت أمها عن حياتها تمامًا، كأنها تعاقبها لأنها بدأت خطوة جديدة في حياتها بدونها.

ولكن ما زاد الطين بلة هو وفاة سميحة الكبيرة، وما تركته من أثر سيئ على نفسية الصغيرة، وخصوصًا أن العلاقة بينها وبين جدتها كانت قد توطدت كثيرًا منذ طلاق والديها، وأخذ موضوع الوفاة وقتًا كبيرًا ومجهودًا أكبر من ندى لتساعد ابنتها على تخطي صدمة وفاة جدتها:

- حبيبتي.. من نحبهم لا يموتون، هم فقط يختفون بأجسادهم ولكنهم يبقون أحياء، تلازمنا ذكرياتنا معهم فتبقيهم في ذاكرتنا ما حيينا. أعلم أن أسوء اللحظات في حياتنا هي أولى لحظات معرفتنا بوفاة شخص عزيز علينا، ساعتها يدور أمام أعيننا شريط من الذكريات المشتركة بيننا، فينتابنا حزن على تلك الأيام، ونشعر بخواء داخلي غريب، كأن الدنيا أصبحت خالية من حولنا. وأنا أعلم يا حبيبتي أن هذا ما تشعرين به، ونصيحة لك يا سميحة، تذكري لحظاتك الجميلة مع جدتك بابتسامة في قلبك وتذكريها دومًا بدعاء جميل وقراءة الفاتحة، أنا أفعل ذلك كلما شعرت بالشوق لأبي رحمه الله.

وبعد مرور الأسابيع الأولى على الوفاة بدأت سميحة تمارس ضغوطًا واضحة وصريحة لتعود المياه إلى مجاريها بين أمها وأبيها، محاولات كانت ندى تعلم جيدًا أن إسماعيل وراءها، فهو لم يفقد الأمل في رجوعها إليه، رغم أنها شرحت له مئات المرات أن ما بينهما انتهى ولم يتبق منه سوى سميحة الصغيرة فقط.

ومع التطورات المتلاحقة في سلوك ابنتها لم تجد ندى بُدًا سوى أن تلجأ إلى طبيبة نفسية متخصصة في سلوكيات الأطفال والمراهقين، نصحتها بها طبيب الأطفال الخاص بسميحة.

وبعد زيارات كثيرة حكت فيها ندى للطبيبة كل شيء يخص سميحة من الألف للياء، وتطورات علاقتها بها، وكانت النتيجة التي بلغت بها الطبيبة في آخر جلسة لهما:

«هذا طبيعي يا أستاذة ندى، فابنتك تمر الآن بتغيرات فسيولوجية وجسدية مصاحبة لدخولها في سن المراهقة، وصَحَبه في نفس الوقت بداية انشغالك بعملك ووفاة جدتها، مما سبَّب هزة في دنياها الصغيرة، وطبعًا رفضك لمحاولاتها المستمرة لرجوعك لأبيها أوقعها في أزمة نفسية، حيث من الواضح كما شرحت لي أن والدها يمارس عليها ضغطًا نفسيًا شديدًا لتقنعك بقبول رجوعكما، بالتالي تركيب شخصيتها الرقيق لم يستطع استيعاب الضغط العصبي الذي سببه هذا الكم من التغيرات في حياتها في السنتين الماضيتين، وفي الأغلب عقلها الباطن عزَّز فكرة أن حياتها سترجع كما كانت برجوعك لأبيها، ولكن صدقيني ستتأقلم مع الوقت، وستفهم أن ما يحدث هو تطور طبيعي للأمور، ولكن من الضروري أن تحتوي مشاعرها المضطربة تلك وتتحدثين معها بصراحة، أولاً حول مفهوم الوفاة وما يصيب الإنسان من حزن على من فقده، وتشرحي لها أنها سُنَّة الحياة، ثم أكدي لها مثلما قلت لي إنك تأثرت بوفاة جدتها مثلها تمامًا، ولكن ليس معنى أن والدها فقد أمه أنكما يجب أن تعودا لبعضكما، فهو ليس طفلاً صغيرًا يحتاج من يهتم به بعد وفاة أمه، ثم أفهميها أن علاقتها بأبيها لم ولن تتأثر بطلاقكما، وأن الطلاق هذا شيء عادي إذا لم ينسجم شخصان مع بعضهما، ثم أعطيتها فرصة بضعة أيام لتستوعب هذه الكلمات، ثم ابدئي حديثها عن أهمية العمل بالنسبة إليك وشرحي لها كيف أن حياة بلا هدف هي حياة فارغة جوفاء، أفهميها كيف أن تخليك عن حلمك سابقًا بالعمل في الصحافة من أجل حياتكم الأسرية أثر

فيك سلِّبًا، طبعًا دون أن تأتي بذكر أي مواقف سيئة لأبيها في حديثكما، اشرح لها أن عملك لن يجعلك تهملينها أو تقصرين في العناية بها، والدليل أنك لم تفعلي هذا حتى الآن، وأكد لي لها أن عملك يساعدك على تحسين نفسك، ما سيعود عليها هي أيضًا بالنفع، ومهم جدًا أن تركزي معها الفترة القادمة وتسألني مدرسيها وتبחי عن مجال هي متفوقة فيه وتوجهيها نحوه، فممارسة هواية يحبها الأطفال مفيدة جدًا في هذه السن، حيث يُخرجون فيها طاقتهم السلبية، وتساعد على إدخال السعادة والرضا على أنفسهم، عندما يرون بأعينهم نتائج عملهم. ونصحتني الأخيرة والأهم لحضرتك أن تحتضنيها، فهي ما زالت طفلة صغيرة تحتاج أمها بجانبها حتى إن أظهرت عكس ذلك. يا عزيزتي المرأة مهما كبرت في السن تبقى في داخلها طفلة صغيرة تحتاج أن تشعر بالأمان، تحتاج للشعور بالاحتواء والحنان والحب، فما بالك بطفلة صغيرة على أعتاب الشباب!

خرجت ندى في هذا اليوم من عند الطبيبة النفسية و بداخلها مشاعر كثيرة متخبطة، فهي ذهبت لها من أجل أن تستشيرها بخصوص ابنتها، ولكن ما لم تتوقعه نهائيًا أن كلام الدكتورة سيضغط على جرح بداخلها، فكيف لمجروح أن يطبب جروح آخرين، كيف لمن ينزف أن يساعد في وقف نزيف من حوله، فهي أيضًا مجروحة، وهي أيضًا تحتاج لمن يحتضنها ويطمئنها. فكلام الدكتورة قد أيقظ الأنثى التي اعتقدت ندى أنها حبستها بداخلها منذ اليوم الذي ودّعت فيه مالك، كلمات بسيطة أخرجت من أعماقها تلك المرأة التي تحتاج إلى رجل يحتويها ويحبها، يهتم بها ويخاف عليها، كلمات بسيطة أخرجت مالك وذكراه، أخرجت الشوق إليه، أو بالأصح الشوق للمشاعر التي

شعرت بها لأول مرة في حياتها معه، مشاعر الحب البريء، مشاعر الاشتياق واللهفة، مشاعر الأمان في القرب من حبيب.

أبت قدما ندى أن تأخذها للمنزل، فالشوق والحنين لمالك الذي أيقظه كلام الدكتورة أخذها لأقرب شيء له، مطعمه الذي قد وعدت أمها منذ شهور مضت ألا تضع قدميها فيه مرة أخرى أو حتى تمر من شارع، حتى يكتمل قرار طيِّ هذه الصفحة، وصلت ندى أمام المطعم لتُفاجأ أنه تحول لمحل أثاث منذ أشهر مضت، حاولت أن تعرف من بواب العمارة المجاورة أي تفاصيل ولكن لم تصل لشيء سوى أن مشتريين جُددًا اشتروا المطعم من محامي أصحاب المطعم وحولوه لمحل أثاث، وقفت ندى والحزن يأكلها، فها هو الخيط الوحيد الذي يربطها بمالك قد انقطع، حتى اسم المحامي لم تستطع معرفته من البواب، واعتبرت ندى ما جرى علامة من الله سبحانه لتغلق صفحة مالك نهائيًا.

البدايات دائمًا جميلة ورائعة..

البدايات دائمًا فيها أمل وتفاؤل..

البدايات دائمًا تحمل بين طياتها أحلامًا وأمانًا نتمنى تحقيقها.

فلنحتفظ دومًا داخلنا بطعم البدايات، لا نسمح له أن يضيع منا في زحمة الحياة، هذا الطعم سيذكرنا طيلة الطريق كم كنا سعداء في تلك البدايات، ما سيعطينا هذه الدفعة التي نحتاجها أحيانًا لنكمل مشوارًا، كنا قاب قوسين أو أدنى من فقد الأمل فيه.

بعد زيارتها الأخيرة للدكتورة قررت ندى أن تأخذ إجازة قصيرة من المجلة
لثقيّم الأمور وتعيد حساباتها وتفكر فيما تنوي فعله، وكادت ندى أن تتخذ
قرارًا قد اتخذت مثله منذ سنوات كثيرة مضت، قرار بترك العمل الذي يسبب
هذه الأزمة بينها وبين ابنتها، ويزيد الفجوة التي تكبر بينهما، لولا أن أمها
وقفت لها بالمرصاد:

- لا يا ابنتي، أفيقي، لا تقعي في نفس الخطأ الذي وقعت فيه من قبل عندما
تزوجت إسماعيل واستسلمت له وقتلت طموحك من أجله، هذه المرة أنا
التي سأقول لك لا، لا تتنازلي عن أحلامك ولا مستقبلك من أجل أي شخص
أيًا كان، حتى لو كان من أجل سميحة أغلى ما في حياتنا جميعًا، فأنت أبدًا لم
تُقصري في أي من حقوقها، منذ مولدها وأنت تضعينها على رأس أولوياتك،
ولكن إذا تركت عملك من أجلها الآن فأنت تساعدين على تضخم الأنا لديها،
وتعطيها رسالة غير مباشرة بأنها محور الكون، وهذا غير صحيح، ففي الحياة
التي تنتظرها هي فتاة وسط مئات الفتيات، يجب أن تجتهد وتتعب لتختلط
وتندمج بالآخرين، فهي لن تنال كل شيء تريده بالضغط النفسي على من
حولها ليحققه لها، كما تفعل معك الآن.

- ولكنني أخاف أن يزداد شعورها بالضيق إذا استمررت في عملي، فتشعر
كأني أفضله عنها وتبتعد عني أكثر وأكثر، فيكفي أنني أرفض الرجوع لوالدها
كما تطلب مني.

- أولاً يا حبيبتي هي ستتغلب على شعورها بالسخط والغضب لعدم موافقتك على الرجوع لأبيها، وخصوصاً أن إسماعيل وعد أن يتوقف عن وضعها في دور الوسيط بينكما، بعدما كلّمته الدكتوراة ومنعته من الضغط عليها، وأنت أيضاً كنت واضحة جداً وحاسمة في آخر مكالمة بينكما، وأعتقد أنه فهم جيداً أنك لن ترجعي إليه مهما فعل.

- أتمنى أن يكون قد اقتنع يا أمي، ولكن يبقى موضوع عملي وتأثيره على سميحة، لقد قالتها لي صراحة عدة مرات، إنها تكره هذا العمل الذي أخذني منها.

- طبعي يا ابنتي أن ينتابها هذا الشعور، فهي كانت محور حياتك في سنواتها الأولى، وقد ازدتما ارتباطاً بعد طلاقك أنت وإسماعيل، أصبحتما لا تفترقان، فهي تنام بجانبك، تأكل بجانبك، عندما كنت تجلسين للعمل على مدونتك كانت تجلس بجانبك، حتى عندما كنت تقومين بأي مشوار مهما كان بسيطاً وقصيراً كنتِ تصرين على أخذها معك، وكثيراً ما حذرتك أن هذه الطريقة ستشعرها أنك ملك خاص لها، وسيكون من الصعب عليك أن تخرجي من هذا الإطار الذي رسمته لشكل علاقتكما، عمومًا فإنا الأوان لمثل هذا الكلام، دعينا نفكر بهدوء، سميحة مجرد طفلة تخطو أولى خطواتها نحو المراهقة، وأنتِ تعلمين جيداً ما هو سن المراهقة، فمهما عملتِ لن ترضيها، ونصيحتي لك ألا تتنازلي مرة أخرى عن أحلامك يا ندى، فالسنين تمر سريعاً وستكبر سميحة وتخرج للحياة ويصبح لها حياتها الخاصة، وقتها ستشعرين بالملل والوحدة، وستندمين حيث لن يفيد الندم.

وكان لكلمات أمها تأثير السحر عليها، وكأنها أعطها دفعة قوية كانت تحتاجها لتنتقل من جديد، وكان أول آثارها كلمات كتبتها ندى لقراء مدونتها، ولكنها في الواقع كانت كمن يكتبها لنفسه لتتذكرها طوال الوقت:

«أنا امرأة.. أنا ابنة.. أنا أخت.. أنا صديقة.. أنا زوجة.. أنا أم.. أنا رفيقة درب.. أنا كل ذلك، ولكنني قبل كل هذا أنا أنثى لديّ مشاعر واحتياجات.. أنا أنثى تطوق نفسي لكلمة حلوة وطبطقة حنونة.. أنا أنثى تحتاج أن تجد من يخاف عليها ويهتم بها.. أنا أنثى أتمنى في آخر يوم طويل وشاق أن أسمع كلمة أعرف أن يومك كان صعبًا ولكنني هنا من أجلك.. أنا أنثى أتمنى أن أجد من يشعر بتعبني النفسي واحتياجاتي النفسية.. أنا أنثى قوية، ولكنني من الداخل هشة كقطعة البسكويت.. فرفقًا بي أيها الرجل، ولا تخف من قوتي، فالمرأة القوية لا تمثل تهديدًا لكبريائك وصورتك كرجل لا يقهره شيء.. بالعكس، هي مكسب لك، فهي سند وظهر في الأوقات الصعبة.. فرفقًا بنا أيها الرجل، كن لنا أبًا بحنانه ودلاله لنا، كن لنا أحمًا بحمايته وسنده لنا، كن لنا صديقًا يحتوي أحزاننا، كن لنا حبيبًا بحب في قلبه لو وزعه على العالم أكمل يكفيه ويفيض.. كن لنا كل هذا نكون لك جنة الله على الأرض».

كلمات كتبتها ندى على مدونتها، ولكنها كانت كمن يكتبها لنفسه، فهي بالفعل تحتاج أن تترفق بنفسها وبأعصابها، تحتاج أن تكف عن لعب دور الجلابد لنفسها، فيكفيها ضغوط الحياة من حولها لتزيد عليها ضغطًا نفسيًا آخر.

قررت ندى أنها يجب أن تفعل شيئًا أخيرًا قبل أن ترجع لعملها الذي اشتاقت إليه، تحتاج أن تعيد الرباط النفسي بينها وبين ابنتها، أن توطد علاقتها بها مرة أخرى، تحتويها وتهتم بها لفترة حتى تمران معًا من هذه الفترة، وبدأت

ندى بأخذ سميحة في جولة تجريبية بين عدد من الرياضات في النادي، ولكنها لم تجد أي صدى عندها، فهي من صغرها لم تكن شغوفة بالرياضة، احتارت ندى، فهي تحتاج أن تجد هواية لابنتها كما قالت لها الطيبية، وجاءت لها الإجابة التي كانت تبحث عنها في اجتماع أولياء الأمور الأخير، حيث قال لها مدرس الموسيقى في المدرسة إن سميحة متفوقة جدًا في مجال الموسيقى، ولديها أذن موسيقية نادرة، ونصح ندى أن تأخذ سميحة لدار الأوبرا المصرية، وهناك سيوجهونها إلى الطريق السليم.

وبالفعل أخذت ندى سميحة وزهبتا، بحثت وتقصت وجربت حضور عدد من التمرينات لآلات موسيقية مختلفة، حتى وجدت بين سميحة والعود انسجامًا شديدًا، فقررت الصغيرة أن تتخصص في آلة العود كما نصحتها المدرب في دار الأوبرا، وكانت سعادة ندى لا توصف وهي ترى ابنتها سعيدة كما لم تكن من فترة كبيرة، سعادة لا توصف وهي تحضر دروس الموسيقى في الأوبرا، وسعادة أكبر عندما بدأت تعزف مقطوعات كاملة من الموسيقى على عودها الذي اشتترته لها ندى، ولكن ما كان يعكر سعادة ندى وسميحة هو ردة فعل إسماعيل تجاه حب ابنته للموسيقى، ورفضه فكرة أن يشغلها أي شيء عن دروسها، ولكن ندى بذكائها ومثابرتها استطاعت أن تقنع إسماعيل بتقبل فكرة الموسيقى بعدما لمس بنفسه تأثيرها الجيد على ابنته.

وأخيرًا رجعت ندى المجلة، لتفاجأ برئيس التحرير يخبرها أن مجلس الإدارة قد قرأ تقرير متابعة لعملها في المجلة، ولما تكتبه في مدونتها، وقد قرر أن يكون لها عمود أسبوعي تكتب فيه ما تريد بجانب عملها في قسم التحقيقات.

وبالرغم من سعادتها بهذه النقلة الجديدة في عملها، ولكنها كانت متوجسة خيفة من ردة فعل ابنتها، فهذا العمود ستنشغل أكثر، وسيأخذ منها وقتًا أكبر من ذي قبل، ولكنها قررت أن تعمل بنصيحة أمها وتترك الأمور بينها وبين سميحة للأيام، فهي كفيلة بحل أصعب المشكلات.

ولكن ما كان يقلقها أكثر هو الالتزام الجديد تجاه عمود أسبوعي وما يأتي معه من توتر وشد أعصاب لتسليم العمود في الموعد المطلوب، والحيرة لاختيار المواضيع التي ستتناولها، وردات فعل القراء فيما تكتبه، ولكن رئيس التحرير الذي تحوّل مع الوقت إلى معلم وأب روعي لندی، ينصحها ويتابع عملها ويقيّمه بحيادية، حل لها هذه المعضلة بمنتهى السهولة:

- يا ندى موضوع الكتابة الأسبوعية في عمود ثابت من أبسط ما يكون، فأولاً بالنسبة إلى اختيار الموضوع فلن يكون بالصعوبة التي تتخيلينها، فكما تفعلين في اختيارك لمواضيع مدونتك ستفعلين لعمودك مع بعض التحفظات طبعًا، أما بالنسبة لرأي القراء في كتاباتك فعدد المتابعين لمدونتك والمتفاعلين مع كتاباتك فيها أكبر دليل على نجاح قلمك في الوصول لقلوب الناس، ولكن التحدي الوحيد الذي سيقابلك هو الالتزام بالمواعيد النهائية لتسليم عملك، وهذا جانب لم تعتادي عليه منذ انضمامك للعمل معنا، حيث إن الكتابة في قسم التحقيقات تختلف نوعًا ما عن الكتابة في عمود ثابت، فإذا لم يكن تحقيقًا عاجلاً فيمكن أن ينتظر، أما العمود لن ينتظر، ولكني متأكد أنك ستنجحين كعادتك في الاندماج في طريقة العمل الجديدة بمنتهى السهولة.

كان أول مقال لها حول الاجتياح، والذي اختارته أيضًا ليكون الاسم الثابت لعمودها الجديد «اجتياح» وبدأت ندى الكتابة في عمودها وكلها أمل أن يكون كنسمة صيف خفيفة تُحلِّي حياة الناس وتذكرهم بالرومانسية المفقودة والمشاعر الجميلة، يكون لكل امرأة كمرآة ترى فيه احتياجاتها وآمالها ومشكلاتها، وأيضًا دليل للرجل ليتعلم كيف يسعد الأنثى من الناحية العاطفية والنفسية، فالمرأة عندما تكون سعيدة تنعكس سعادتها على من حولها، وعندما ينتابها الإحباط والحزن يكون من حولها أول من يتذوقه:

«كثيرون يربطون بين كلمة اجتياح والاستعمار والحروب والمآسي، ولكن اجتياحي أنا مختلف، الاجتياح الذي أقصده هنا والذي سأتناوله في هذا العمود أسبوعيًا هو الاجتياح العاطفي. تلك العلاقة التي تخترق كل خطوط دفاعنا الفطري وتجتاح قلوبنا، هذه المشاعر التي تهزنا من الداخل فتزلزل دنيانا وتجعل لبوصلتنا اتجاهًا واحدًا، ألا وهو الشخص الذي اجتاح قلوبنا وأرواحنا، هذا الشخص الذي بوجوده بجانبنا لا نحتاج إلى أي شيء آخر في الحياة.. فأى علاقة بين اثنين تتضمن معاني ومشاعر جميلة: حب، اشتياق، حميمية، اكتفاء بالآخر عن الدنيا وما فيها، الشعور بالأمان، الشعور أنه من دمك، الشعور أن الآخر يكمل الجزء الناقص فيك حتى لو كنتم مختلفين تمامًا، احتواء غريب لا نشعر به إلا بالقرب من الآخر، ولكن أحلى المشاعر وأنقاها وأكثرها حميمية هي أن يكون الآخر بالنسبة إليك هو المستعمر الذي استعمر عقلك وروحك وقلبك، هو الذي اجتاح كيائك كله ولم يترك مكانًا لأحد غيره.. لذا عندما نجد من يجتاح أرواحنا وقلوبنا يجب علينا أن نتمسك به وبعلاقتنا معه، يجب علينا أن نحافظ على تلك المشاعر وننمّيها، نفعل كل ما في وسعنا لنسعد الطرف الآخر ونسعد أنفسنا، نضع كل ما نملك من مشاعر

وأحاسيس في هذه العلاقة، لا نأخذها كأمر مُسلّم به، فكم من علاقات جميلة دُمّرت وضاعت بسبب أن أصحابها أخذوا الطرف الآخر كأمرٍ مُسلّم به! فالحب مثله كمثل أي كائن حي، يحتاج للعناية والاهتمام لينمو ويزدهر، فنادرون هم المحظوظون الذين يعثرون على مثل هذا الشعور، فإذا كنتم منهم فلا تتركوه يتسرب من بين أيديكم».

ترك مقالها الأول صدى بين زملائها وقُرّائها وعائلتها وأصدقائها، صدى جميلاً ذكّرنا بالأيام الأولى لمدونتها والنجاح الذي حققته فيها.

وفي الاحتفال الصغير الذي أقامه لها زملاؤها في المجلة احتفالاً بعيد ميلادها وبولادة أول مقال لها، سألوها عن سر الطبخة في مقالها هذا، عن ملهم هذه الكلمات والمواقف التي أخرجت مثل هذه المشاعر، ابتسمت برقتها المعهودة وشرحت لهم أنها مجرد كلمات شعرت بها ووضعتها على الورق، ولكنها وحدها كانت تعلم الحقيقة وتعرف جيداً فيمن كانت تفكر وهي تكتب تلك الكلمات، لقد كان مالك هو ملهم تلك الكلمات وصاحب تلك المواقف التي يسألونها عنها، لقد كان هو الذي اجتاح كيانها واستعمر قلبها ولم يخرج منه حتى الآن، فبالرغم من مرور شهور كثيرة على رحلة السفينة وعدم وجود أي نوع من التواصل بينهما منذ ودعته تلك الليلة، وبالرغم من انقطاع آخر خيط كان يمكن أن يوصلها له وهو مطعمه، وبالرغم من انشغالها في عملها ونجاحها فيه ومحاولات كثير من الزملاء والمتعاملين معها لكسب ودها، ولكنها أبداً لم تستطع أن تنسى الشعور الذي أحياه مالك بداخلها، وها هو قد طفا إلى سطح الذاكرة مرة أخرى مع أولى كلماتها عن الاجتياح العاطفي، ومع كلمات الدكتورة عن احتياجات المرأة.

وبعد هذا الاحتفال فطنت ندى أن خروج مالك مرة أخرى من خانة الذكريات سيكون له تأثير غير معلوم العواقب عليها وعلى نفسيته، ومثل كل مرة يطفو فيها مالك لسطح الذاكرة قررت ندى أنه يجب أن يرجع إلى خانة الذكريات كما وضعت منذ شهور كثيرة مضت، وكما تفعل كل مرة حاولت أن تقنع نفسها أنه ذكرى ومضت لحالها، ولكن كالعادة أيضًا ما زال عقلها الباطن يعيد عليها في أحلامها ذكريات تلك الليالي على ظهر السفينة، ما زال قلبها يدق لمالك كلما رأت مشهدًا رومانسيًا في أحد الأفلام، ما زالت يداها تصبوان ليديه كلما مرت بحبيبين متعانقي الأيدي. كانت تجد لسانها يدعو له في صلواتها، فكيف لها أن تنساه وذكره تتحرك بداخلها كلما تحركت سلسلته حول رقبتها، هذه السلسلة التي حاولت أمها كثيرًا أن تقنعها بخلعها حتى تغلق باب مالك للأبد ولكنها لم تستطع.

وبمرور الأيام وانشغال ندى بعمودها الجديد كانت ذكرى مالك تتقلص بداخلها تارة وتطفو لسطح الذاكرة تارة أخرى.

أصبح هذا العمود فاتحة خير بالنسبة لندی، حيث أصبح ما تكتبه له صدى قوي بين القراء وأصبحت ندى وعمودها أيقونة الرومانسية الجديدة في الوسط الصحفي، وبدأ إيميل ندى يتسلم يوميًا عشرات الرسائل، ما بين مدح فيما كتبه أو نقاش في رأي عرضته أو اعتراض على ما تكتبه، ولكن ما أفرح قلب ندى فعلاً هو التغيير في سلوك ابنتها وردة فعلها حول عملها، حيث أصبح ما تكتبه ندى في هذا العمود مصدر نقاش دائم بينها وبين ابنتها، خصوصًا بعدما وجدت سميحة صدى كبيرًا في مجتمعها من مدرسين وأصدقاء حول

ما تكتبه أمها في عمودها، وكلما زاد قراء عمودها والمعجبون به وتواصلهم معها شعرت ندى بسعادة ابنتها وفخرها بها.

وما بين عمودها وصفحة التحقيقات كان اسم ندى يلمع، وكان فخر سميحة بأمرها يزداد بالرغم من انشغال ندى عنها.

وبعد فترة، وبعد أن لمس مجلس إدارة المجلة موهبة ندى في التعامل مع القراء، قرروا أن تتولى ندى مسؤولية جديدة، وهي باب بريد القراء، وضموا لعمودها الأسبوعي نصف صفحة تكون مساحة للقراء ومشكلاتهم.

قلقت ندى من المسؤولية الجديدة التي ألقاها الأستاذ توفيق ومجلس الإدارة على كاهلها، فمسؤولية جديدة معناها انشغال أكبر عن ابنتها، لأن الباب الجديد سيكون بمواصفاته تلك يحتاج إلى مجهود كبير والتزام تجاه أصحاب المشكلات، وذلك معناه أيضًا انشغالها عن مدونتها وعن صفحة التحقيقات، حبها الأول.

وعندما جلست مع أمها وابنتها لتحكي لهما عن هذا الباب الجديد وتخوفاتها منه، فوجئت بردة فعل سميحة التي اتسمت بنضج ورجاحة عقل لم تتوقعهما ندى منها:

- يا أمي هذه فرصة يتمناها الكثيرون؛ لا تضيعيها أرجوك، فبخصوص المدونة فأنا عندي فكرة، يمكننا وضع رابط لكتاباتك في الجريدة على مدونتك، وينزل ما تكتبينه على المدونة، وهكذا لن تفقدي متابعيك في المدونة، وفي نفس الوقت لا تضيعي منك هذه الفرصة التي يتمناها الكثيرون. أما بالنسبة إليّ فأرجوك لا تحملي همًا ولا تخافي، فوالله لن أغضب

مثلما فعلت من قبل بخصوص انشغالك بعملك، بالعكس إني أزداد فخرًا كلما
حققت نجاحًا جديدًا، ثم أنا كبرت وأصبح لدي مشغوليات أنا أيضًا، أم نسيت
الموسيقى والعود؟

وعندما جلست ندى مع نفسها هذا المساء شعرت بفخر كبير بابتنتها، وشعرت
أنها أخيرًا ستبدأ في حصاد ما زرعت، فها هي سميحة كبرت وشارفت على
الثالثة عشر، ولكن رجاحة عقلها وذكاءها يسبقان عمرها بسنوات، وقررت أنها
ستقبل هذه الصفحة الجديدة.

أسوء ما تفعله فينا العادات أنها تحوّلنا عبيدًا لها.. فأيُّ عادةٍ مهما كانت
بسيطة أو هبلة (كما يرى أغلبنا بعض عاداته) تتحول مع الوقت إلى نوع من
الإدمان فلا نستطيع الاستغناء عنها.

-١٢-

كثيرًا ما كانت ندى تجد نفسها متلبسة بعلامة تعجب كبيرة بينها وبين نفسها، فالنجاح الذي حققته في حياتها العملية كان يذهلها، فهي لم تحلم حتى بتحقيق نصفه، خصوصًا أنها بدأت أولى خطواتها العملية مُتأخِّرة، ولكن كل مرة ينتابها مثل هذا الشعور كانت تتذكر كلمات والدها وتشكر الله على عطاياه.

- يا ابنتي كل شيء في هذه الحياة يحدث لسبب، وفي أوانه بالضبط، لن يقدم ثانية ولن يؤخر ثانية، لذا اصبري وادعي ربك ليرزقك من فضله، واحمديه كثيرًا كلما أعطاك.

وسرعان ما تحولت صفحة ندى الجديدة لحديث المجلة، لما حققته من نجاح في وقت قصير، واستطاعت بسلاسة كتابتها أن تصل لفئة كبيرة من المجتمع.

وما بين كتابتها في عمودها وكتابتها في بريد القراء وجدت ندى نفسها يومًا بعد يوم تتحول «لحلل المشاكل»، تستقبل عشرات الرسائل اليومية على الإيميل الخاص بها، تقرأها وتفرضها وتفكر في حلول لها، وإذا استعصت عليها مشكلة تستشير متخصصين، ثم تنشر المشكلات وحلها في الصفحة، وبالرغم من العدد المتزايد للإيميلات التي كانت تصل لندی، لكن إيميل معينًا لفت نظرها، إيميل يأتي لها مرة أسبوعيًا من نفس الراسل، الذي كان من الواضح من كلامه أنه رجل، إيميل مختلف، لم يكن يحمل مشكلة أو يبحث عن

استشارة في أمور الحياة، إنما كان يحمل كلمات إعجاب رقيقة بكتابتها وآرائها، ثم تطور مع الوقت لإعطائها آراء فيما تكتبه، ثم تطور لأحاديث عامة متبادلة بينهما على الشات، وهنا وجدت ندى أنها بحاجة لأن تُحصّن نفسها ضد أي مشاعر يمكن أن تولد من رحم هذه المحادثات، فهي في فترة هشاشة تفتقد فيها كثيرًا من المشاعر والأحاسيس، ولن تُعرّض نفسها لأذى نفسي آخر بسبب هذه المحادثات، ولكنها بعد فترة وجدت أنه لا غضاضة في تبادل أحاديث عامة معه، واطمأنت لكونها مجرد أحاديث مخبأة وراء شاشة ولوحة مفاتيح.

وبدأ نمط الأحاديث بينهما يتغير، فبعدها كان حديثًا كل فترة، تطور لحديث يومي كل مساء، يتبادلان فيه أخبار يومهما، ثم بدأ يتطور للتسلسل الذي كانت تخافه ندى، بدأت الأحاديث بينهما تأخذ طابعًا شخصيًا. حاولت ندى أن تقاوم الانجراف مع هذه الأحاديث، لكن مع مرور الوقت وتكرار حديثهما خلال اليوم فوجئت به ذات مساء يحكي لها عن نفسه وعن أحلامه، وبالتالي حدث ما توقعته، ووجدت نفسها دون أن تشعر تسقط في دائرة الأحاديث الشخصية، وهذا ما كانت تخافه، وبدأ صاحب الإيميل وكلماته يشغل حيزًا من تفكيرها، وأصبحت ندى تنتظر بفارغ الصبر هذه العلامة على الكومبيوتر التي تبلغها بوجود رسالة لها على الشات، ولكنها مع كل إيميل جديد أو محادثة بينهما على الشات كانت تجد مشاعرها تغوص أكثر وأكثر تجاه هذا المجهول الذي أسرها بكلماته وشغل تفكيرها برقة مشاعره، أسرها باهتمامه الغريب وقلقه عليها، فإذا حدث وقالت له إنها متعبة أو حتى تعاني صداغًا، كانت تستشعر قلقه في كلماته، ووجدت ندى نفسها كمن يقف على رمال متحركة تغوص بها أكثر مع كل رسالة جديدة منه أو محادثة بينهما. حتى

خطَّ كاتب الرسائل المجهول خط النهاية عندما تعدَّى حدود الخصوصية التي
خطَّتها ندى بينها وبين نفسها، عندما سمحت لنفسها تبادل أحاديث معه من
خلال الإيميلات:

- هل عمرك قابلت من يُطلق عليه توأم الروح؟ هل عرفتِ عمرك الحب
الحقيقي؟

يا الله! ما هذا السؤال؟ من أنت أيها الغريب الغامض لتأتي بسؤالك هذا
فتذكرني بمالك الذي لم أنسه، ولكني كنت قد وضعت في خانة الذكريات
لأوقر على قلبي كثيرًا من الحنين والاشتياق؟ من أنت لتقلب عليّ المواجه
وتذكرني بشعور جميل شعرته مع مالك لم أشعر بمثله أبدًا؟

وهنا وجدت ندى نفسها كطفلة صغيرة تقف حائرة في عرض الطريق، لا تعلم
ماذا تفعل، أتقبّل اليد التي امتدت لها لتساعدها على عبور طريق الذكريات أم
ترفضها؟ وكان القرار، هي لن تترك نفسها تنقاد وراء علاقة مع شخص
مجهول، حتى لو كانت علاقة صداقة بريئة كما يزعم كاتب الرسائل، وبدأت
ندى في تجاهل الرد على رسائله، حتى انقطع بعد فترة عن مراسلتها.

حينها تضاربت المشاعر بداخل ندى، فجزء منها تعود على وجود كاتب
الرسائل، وكانت سعيدة بتلك الإيميلات وبكلمات الإعجاب الرقيقة، وبتلك
العلاقة الغريبة التي تتأرجح بين الصداقة والإعجاب والاحتياج لعلاقة تروي
بها جفاف مشاعرها، وجزء آخر كان ينبهها أن علاقة بهذا الشكل محكوم
عليها بالفشل، فهي علاقة في عالم افتراضي بين اثنين لا يعرفان بعضهما
بعضًا، شخصان يختبان من مواجهة الواقع والحياة بين حروف لوحة

المفاتيح، أما الجزء الأكبر منها فكان يُشعرها بأنها تخون مالك لمجرد تفكيرها في كاتب الرسائل، فمهما كان لم يأت من يستطيع أن يحل مكان مالك في قلبها، لم يأت من يستطيع أن يُشعرها أنه نصفها الثاني وتوأم روحها، كما شعرت تجاه مالك منذ رأته أول مرة. وكعادتها عندما تتضارب المشاعر في قلبها لجأت إلى كراسة مذكراتها لتحلل فيها مشاعرها وأفكارها، عساها تصل إلى حل، حتى تفك الاشتباك بين عقلها وقلبها:

«خيانة لا، فأنا لا أخون مالك، مرت شهور كثيرة منذ لقائنا على السفينة ولم يحاول الاتصال بي بأي طريقة، من الواضح أنه نسيني، أكيد نسيني، ولكن مع الأسف- لم أستطع حتى الآن أن أنساه، فهو ما زال يحتل هذا الجزء من قلبي ولا أستطيع إخلاءه منه، ولكن في نهاية الأمر يجب أن أتخذ القرار الذي طال انتظاره، يجب أن أطوي صفحة مالك نهائيًا، فأنا ما زلت صغيرة، وكأي أنثى أحتاج إلى رجل بجانبني، فلماذا لا أعطي نفسي فرصة مع كاتب الإيميلات هذا مثلاً؟ لا لا يا ندى، فرصة مع مجهول! كيف؟ أبدًا، فأنا لا أريد أن أدخل في متاهة أخرى، لا أريد أن أشتت مشاعري وراء علاقات غريبة، فيكفيني مالك وقصتي معه.. ما الحل إذًا؟ هل سأستطيع عيش حياة جافة بلا حب؟ لا لن أستطيع، ففي النهاية أنا أنثى أحتاج لرجل في حياتي، يحبني ويهتم بي، رجل يحتويني بعيوبي قبل مميزاتي، رجل يكون لي الأمان وأكون له السكن، رجل يحب ابنتي ويخاف عليها، رجل أضع رأسي على صدره آخر اليوم فيشعر بما يختلج بين جنبات قلبي دون الحاجة لكلمات، رجل يكون لي أبًا وأخًا وزوجًا وصديقًا، رجل لن يهدمني ولن يقف بيني وبين عملي، بل يدفعني للتقدم والنجاح، إذًا يجب أن أوارب باب قلبي قليلًا، يجب أن أعطي

لنفسى فرصة لأبدأ من جديد، فكل امرأة مهما كانت قوية ومستقلة وناجحة
تحتاج لحضن رجل يحتويها.

وعد يا كراستي الحبيبة.. سأفتح باب قلبي وليفعل الله ما يريد، ولكن
سأفتحه في الحياة الحقيقية وليس في عالم الكمبيوتر الافتراضي».

عندما تكون على حق وتبحث عن الحقيقة ييسر الله لك أمورًا ويفتح لك
أبوابًا كنت تعتقد أنها لن تُفتح أبدًا.. اجعل مهمتك في الحياة إظهار الحق،
واترك البقية على الله، ولا تخف في الحق لومة لائم، فالحق دائمًا غالب ولو
بعد حين.

بالرغم من انشغال ندى بعمودها وببريد القراء، لكن لم تدعهما يأخذاها من صفحتها المفضلة، صفحة التحقيقات التي منذ أول تحقيق لها وقعت في غرامها، وغرام البحث والتقصّي والجري وراء الحقيقة، ومنذ أول تحقيق لها وندى عندها عادة يومية لا تنقطع، كل ليلة نفس محطة الوقوف عند بائع الجرائد ونفس الكم الهائل من الجرائد التي تطلع على كل سطر فيها بتمعن، كما فعلت أول مرة منذ سنوات مضت، بناءً على طلب رئيس التحرير حينئذ، والآن زاد عليها كثير من المواقع الإخبارية التي تتابعها على الإنترنت، حتى كان اليوم الذي وقع نظر ندى على خبر في أحد المواقع الإخبارية يحتوي على اسم تعرفه جيداً «شركة الأمانة للاستيراد والتصدير»، اسم دق عندها ناقوس خطر، فهذه هي الشركة المستوردة التي كتبت عنها وعن بضائعها أول تحقيق صحفي، الشركة التي بدأت معها أولى خطواتها في عالم الصحافة بسبب طمع صاحبها وضميره الميت، وها هي تجد اسم شركة «الأمانة» يظهر مرة أخرى أمامها، في خبر صغير مثله مثل مئات الأخبار التي تبثها وكالات الأنباء والمواقع الإخبارية على الإنترنت، خبر صغير كان يمكن أن يمر مرور الكرام، لولا أن ندى قرأت اسم الشركة بين سطور الخبر:

«دخول حاويات تحتوي على نفايات كيماوية سامة إلى ميناء الإسكندرية، وتفرق دمها بين القبائل، حيث إن الشركة المستوردة (شركة الأمانة للأستيراد والتصدير) تنفي علمها بأنها نفايات سامة، وميناء الإسكندرية لا يريد هذه

الحاويات على أرضه، والنيابة تريد إعادة تصديرها، والشركة المُصدّرة لهذه الشحنة ترفض استلامها في حال رجوعها».

وكان هذا الخبر وذاك الاسم كفيّلين بأن يثيرا الحاسة الصحفية لدى ندى.

في هذه الليلة لم تنم ندى، وسهرت للفجر تفكر وتجهز خطة العمل التي ستتبعها لعمل هذا التحقيق. ومنذ الساعات الأولى للنهار كانت ندى تقف أمام رئيس التحرير في انتظار تأشيرة موافقة على الموضوع، بعدما عرضت عليه خطة العمل الخاصة به، عندما فوجئت بردة فعله:

- دعي هذا الموضوع يا ندى لخالد زميلك، الموضوع عادي وبسيط ولا يستحق سفرك من القاهرة للإسكندرية. اهتمي أنتِ بموضوع النصاب الذي استغل اسم السفير الإفريقي.

ولكن ندى استشعرت أن وراء محاولة الأستاذ توفيق إبعادها عن هذا التحقيق سببًا آخر غير عدم أهمية الموضوع، وغير أهمية موضوع النصاب، وصممت ألا تترك المجلة في هذا اليوم إلا عندما تعرف السبب الحقيقي وراء رفض رئيس التحرير لقيامها بالتحقيق، ولم يرتح لها بال إلا عندما قال لها الأستاذ توفيق الحقيقة وراء الأمر:

- عندما بدأنا سلسلة التحقيقات بخصوص مخلفات المستشفيات ونشاط شركة «الأمانة» في مجال استيراد لعب الأطفال المُصنعة من مخلفات المستشفيات، جاءت للمجلة تهديدات بالانتقام من كل المسؤولين عن نشر هذا الكلام، وطبعًا التهديدات كانت تشملني وتشملك وتشمل مقر الجريدة، واعتقدنا هنا في الجريدة أنها تهديدات جوفاء، فهم لم يفعلوا شيئًا، ولكني

عرفت بعدها بالصدفة أن الأمن أحبط مخططًا لحرق مقر الجريدة، ولولا ستر ربنا وتوقيف مسجل خطر بالصدفة في لجنة مرور، وبعد القبض عليه اعترف أنه كان في طريقه مع اثنين من شركائه لحرق مقر الجريدة، كان الله أعلم بمصير الجريدة ومن بداخلها، من أجل ذلك لا أريدك أن تقومي أنتِ بهذا التحقيق الجديد.. يا ابنتي هؤلاء الناس بلا رحمة وقادرون على الإيذاء كما يتنفسون، وأخاف عليكِ وعلى ابنتك، أما زميلك خالد فكما تعلمين قلبه ميت، وكل عمله أصلاً في الصفحة عبارة عن مجازفات ومغامرات، غير أنه مقطوع من شجرة، يعني هؤلاء المجرمون لن يجدوا ما يهددونه به.

- أستاذي.. أنا أوّمن بقضاء الله ولن أخاف من ناس معدومة الضمير، تؤذي بجشعها وطمعها آلاف الأشخاص بما يُدخلوه البلاد، بعد إذْكَ هذا موضوعي وسأكملهُ. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجعلني أتراجع عن مثل هذا الموضوع هو خوفي على سميحة وأمي، والحمد لله سميحة ستسافر خلال يومين في رحلة طويلة مع أبيها لزيارة عمها في كندا، وستقضي هناك فترة الإجازة الصيفية كاملة، وبالنسبة لأمي فهي في البلد وسط عائلتها، وهناك هي تنعم بالأمن والأمان.

وبرغم أن هذه المرة كانت أطول مدة تفترق فيها ندى عن ابنتها منذ مولدها، ولكنها كانت تشعر بارتياح كبير لسفرها وبعدها عن مصر في هذه الفترة، فهي كانت تعلم جيداً أنها تضع يديها في عش الدبابير، وتعي تماماً مخاطر التحقيق الصحفي الذي كانت على وشك البدء فيه.

وبدأت ندى في ترتيب أفكارها وأوراقها، وكان يُحَيِّرُها من أين تبدأ، أتبدأ من الميناء في الإسكندرية، حيث الحاويات المحملة بمواد الله أعلم بمدى

خطورتها، أم تبدأ من هيئة الطاقة الذرية التي استدعتها إدارة الميناء، وطلبت حضور خبراء للكشف على الشحنات، أم تحاول الوصول لأحد الموظفين الصغار في شركة «الأمانة» لتعرف منه دهاليز الموضوع، أم تكتفي بالنيابة والمعلومات التي ستحصل عليها من هناك؟

مئات التساؤلات عصفت برأس ندى، حتى قررت أنها يجب أن تبدأ من حيث يقبع جسم المشكلة: الحاويات.

وثاني يوم فجرًا بعد أن ودّعت ابنتها في المطار واطمأنت على إقلاع طائرتها ذهبت لمحطة مصر، وأخذت أول قطار للإسكندرية، حيث استخدمت كل الطرق لتستطيع دخول الميناء وتصل لتلك الحاويات، وكالعادة استخدمت أقصر الطرق، طريق جيب بعض العاملين في الميناء الذين أوصلوها للمكان الذي عُزلت فيه الحاويات، وهناك فوجئت بمأساة فظيعة، فقد حدث تآكل في جسم الحاويات من طول فترة التخزين، وغالبًا بسبب المواد التي كانت بداخلها، وبدأت تلك المواد تتسرب على رصيف الميناء ومنه للبحر، حيث إن الرصيف الذي تُعزل فيه أي حاويات ذات مشكلات يقع على بُعد أمتار قليلة من البحر، وكلما اقتربت ندى من الحاويات شعرت بمدى خطورة تلك المواد ذات اللون الغريب والرائحة البشعة التي لا تُحتمل. صوّرت ندى كل ما رآته وسجّلت كلام عمال الميناء المسؤولين عن منطقة عزل الحاويات، حيث حكوا لها أن هذه الحاويات وصلت للميناء قبل شهر رمضان بعدة أيام وبالتالي لم يتم تخليص أوراقها بالسرعة المطلوبة نظرًا لعمل الموظفين نصف يوم في رمضان، ثم جاء العيد، وعند رجوعهم من الإجازة وعندما كشف الموظف المختص على إحدى الحاويات لاحظ تآكلًا جزء من جدار

الحاوية وخروج سائل منه ذي رائحة نقّاذة، وعلى الفور تحركت إدارة الشؤون القانونية بالميناء، وتم عمل محضر بذلك، والتقدم ببلاغ لرئيس نيابة الميناء وعُزلت الحاويات.

وكادت ندى أن تأخذ عينة من تلك المواد المسربة في علبة بحوزتها، لولا أن العامل الذي صاحبها حذّرها أن هذه المادة تسببت في جرح يشبه الحرق في يد زميله منذ يومين، عندما حاول أن يلمسها ليعرف ما هي.

خرجت ندى من الميناء وقد ازدادت إصرارًا ألا تترك هذا الموضوع إلا بعدما تأتي بحقيقته كاملة، فمثل هذه المواد التي رأتها تتسرب أمام عينيها الآن من الحاوية، أكيد مواد كيماوية خطيرة، فقد تسببت في تآكل جسم الحاوية وتسربت خارجها، ومثل هذه المواد يمكن أن تتسبب في كارثة فظيعة إذا تسربت بكميات كبيرة في مياه البحر.

واتجهت ندى للنيابة وكلها أمل أن تكون قد اتخذت إجراءات صارمة لتحويل دون استمرار هذه المهزلة، ولكنها قوبلت من وكيل النيابة باستقبال فاتر وكلمات مقتضبة، فلم تخرج منه بأي معلومات تُذكر، سوى أن النيابة انتقلت لموقع تخزين الحاويات، وبعد مناظرة المكان والحاويات محل الاشتباه طلبت الشركة المسؤولة عن تخزين الحاويات في الميناء من النيابة استدعاء خبراء من هيئة الطاقة الذرية، حيث إنه يشتبه أن بداخل الحاويات نفايات ذرية، وأثبت الكشف المبدئي للحاويات بمعرفة هيئة الطاقة الذرية إن الخلفية الإشعاعية لها تفوق معدل الخلفية القاعدية المسموح بها، وبعد فتح الحاويات والكشف عليها مرة أخرى بمعرفة هيئة الطاقة الذرية تم تغيير التقرير، ليؤكد أن المسح الإشعاعي ذو خلفية إشعاعية طبيعية وبنسب

مسموح بها، ولكن تقرير هيئة الطاقة الذرية احتوى على ملحوظة هامة، فبرغم أن ما تحتويه هذه الحاويات قد خرج من نطاق مسؤوليتهم، ولكن تحليلهم للعينة المسحوبة أثبت أن ما تحتويه هذه الحاويات أسمدة زراعية غير مطابقة للمواصفات، وتمثل خطورة على الصحة العامة. ثم حكى لها وكيل النيابة أن رئيس الشؤون القانونية لشركة «الأمانة» قد تقدم بالأمس بأوراق رسمية تفيد إخلاء مسؤوليتهم من هذه الشحنة، حيث إن موظفًا في الشركة قد استوردها لحسابه مزورًا في الأوراق ومستخدمًا اسم الشركة، وفي ضوء المعلومات الجديدة طلبت النيابة تحريات جديدة من مباحث الميناء، وأصدرت أمر ضبط وإحضار في حق هذا الموظف، ثم طلبت النيابة من مديرية أمن الجيزة إجراء تحريات جديدة، حيث إن مقر الشركة في القاهرة.

وخرجت ندى من النيابة بإحباط شديد على ضوء المعلومات التي حصلت عليها، فها هي شركة «الأمانة» تخرج مثل الشعرة من العجين من هذه القضية، وها هي الحاويات قد تفرق دمها بين القبائل، وكادت ندى أن تفقد الأمل، عندما وجدت من يجري وراءها وينادي عليها.

عامل البوفيه في النيابة، قال لها إنه سمع حديثها مع وكيل النيابة وهو يقدم له القهوة، وشرح لها أن قريبًا له يعمل بالميناء، وقريبه هذا حكى له أن هذه الشحنة ليست الشحنة الأولى من نفس المصدر ولنفس الشركة، وأعطاه رقم قريبه، الذي اتصلت به على الفور وذهبت مرة أخرى للميناء لتقابله.

ولم تخرج ندى من الميناء في هذا اليوم إلا ومعها كل التفاصيل والمستندات الخاصة بالشحنات السابقة، المثبت فيها مرة أنها مبيدات حشائش ومرة

مطهرات بيطرية ومرة أخرى أسمدة، أوراق تثبت أن شركة «الأمانة» كانت هي المستورد، والموظفون لديها هم من يتسلمون الشحنات بأوراق تفويض من الشركة، وأثبتت المستندات أيضًا أن الشحنات كانت تأتي بصفة دورية من نفس المصدر في بلجيكا، ومن نفس ميناء التصدير أنتورب، شحنات كانت تأتي وتخرج من الميناء بمنتهى السهولة، شحنات الله أعلم بماهيتها الحقيقية وبوجهتها بعد خروجها من الميناء، ولكن ما كانت تعلمه بناءً على ما قاله لها قريب عامل البوفيه، أن ما كانت تحمله الشحنات السابقة كانت مواد غريبة والعمال في الميناء يشكون أنها تسببت في وفاة اثنين من العاملين بالميناء بعد إصابتها بأمراض جلدية غريبة بعدما فتحوا إحدى الحاويات ليعرفوا ما بداخلها ويأخذوا منها ما يستطيعون.

خرجت ندى من الميناء وهي تستشيط غضبًا من هذه الشركة وأصحابها الذين يستحلون أرواح الأبرياء من أجل حفنة جنيهات، فيسمحون لأنفسهم أن يدخلوا البلاد موادًا كيماوية الله أعلم بماهيتها والغرض من استيرادها.

كثيرًا ما نشعر أننا نحارب طواحين الهواء، مثل بطل المسرحية الفرنسية الشهيرة، ولكن في الحقيقة نحن أذكي وأفطن من ذلك؛ كل شخص فينا لديه ردار داخلي يعمل على مدار الساعة، حتى ونحن نائمون، ردار يوجّهنا وينير طريقنا، لكن للأسف أغلبنا لا يستخدم المعطيات التي يمدّه بها الردار عندما تكون المعطيات على عكس رغباتنا.

الجؤوا دائمًا لقلوبكم واستفتوها، فهي ستدلكم على الصالح. تعلموا قراءة العلامات الربانية التي تقابلونها في طريقكم، فالله سبحانه وتعالى دائمًا له طريقة ليخبرنا بما فيه صالحنا.

في هذا اليوم ما أن رجعت ندى بيتها في القاهرة ووجدت نفسها قد جافاها النوم كعادتها عندما يشغلها أمر ما، فمن يستطيع أن ينام بعدما عرف كل هذه المصائب، وضعت أمامها كل المستندات التي حصلت عليها: المستندات الخاصة بالشحنات السابقة، والأوراق الخاصة بالقضية التي استطاعت أن تصورها على موبايلها، بمساعدة عامل البوفيه الذي أحضر لها تلك المستندات في الخفاء من صديق له، أوراق طبعتها فور وصولها القاهرة قبل حتى أن تذهب لبيتها، وأخرجت كومة أوراق وأقلام، وجلست لتكتب خطة عمل جديدة على ضوء المعلومات التي حصلت عليها.

ولكن ما كان حدسها يميل إليه ويشاركه حسها الصحفي، أن الشحنات السابقة كانت تحمل نفس ما تحمله الشحنة الحالية، ولكن ستر ربنا ورغبته في كشف المستور أحرَّ إجراءات الإفراج الجمركي عن تلك الشاحنات بسبب إجازة العيد، ومن الواضح أن أيًّا كانت المادة التي بداخل الحاويات فقد وجدت طريقها لأرض الميناء بعد أن تآكل جسم الكونتينرات بسببها.

وجدت ندى نفسها أمام عدة محاور، أهمها وأخطرها ماهية هذه المواد التي في الحاويات، وهل كل الشحنات السابقة كانت تحمل نفس المواد الخطرة؟ والأهم.. أين تذهب هذه الشحنات بعدما تترك الميناء؟ وما كان يقلقها أيضًا هو التناقض بين تقريرى الطاقة النووية لنفس الشحن.

تساؤلات مرعبة قلقت منامها وشغلت بالها، تساؤلات كانت تحتاج إلى إجابات فورية لتستطيع أن تضرب على الحديد وهو ساخن، وتثير الرأي العام حتى يتحرك المسؤولون ولا يمر موضوع هذه المواد مرور الكرام، كمئات المواضيع المخالفة التي تختفي بقدرة قادر.

وكانت تعلم أن أول خطوة في الطريق لحل هذه المعضلة ستكون في هيئة الطاقة النووية، حيث تتمنى أن تنجلي هناك أمامها كثير من الحقائق.

وفي صباح اليوم التالي كانت تقف أمام الدكتور ياسين نائب رئيس هيئة الطاقة النووية، تستفسر منه عن آخر ما وصلت إليه الهيئة بخصوص الشحنة التي طلبت منه النيابة فحصها، وقد أبلغها أنه بعد تحليل العينة المسحوبة من الحاويات كانت المصيبة، عندما ظهرت النتيجة، ليكتشفوا أنها أسمدة زراعية شديدة السُمِّيَّة تحتوي على نسبٍ من مواد أخرى سامة وغير مسموح تداولها واستخدامها دولياً، وبعدها أخذت منه كل التفاصيل والمعلومات وحاولت أخذ نسخة من نتيجة التحليل رفض، لأن الأوراق لم تُعرض على النيابة بعد، ولكنه وعدها أن يعطيها نسخة من نتائج التحليل فور إرسالها للنيابة.

شكرته ندى وودّعتة واتجهت لباب المكتب وهي تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فما زال السؤال الذي يقف في حلقها تريد أن تسأله، ولكن في نفس الوقت تخاف أن تسأله فتثير حفيظة الدكتور ياسين، وقد شعر الأخير بتردها، فسألها:

- خير يا أستاذة ندى؟

تلعثمت ندى واحمرّ وجهها خجلاً، فكيف تسأله مثل هذا السؤال الذي يحمل اتهامًا غير مباشر للهيئة بالتلاعب في النتائج:

- أريد أن أسأل...

قطع عليها الكلام بابتسامة على وجهه:

- تريدين أن تسألني بخصوص التقريرين المتناقضين لفحص الشحنة، أليس كذلك يا أستاذة ندى؟

شعرت ندى براحة شديدة وانفجرت أساريرها:

- بالنسبة لاختلاف تقارير فحص الحاويات، فنحن هنا في الهيئة أمامنا احتمالان، الأول أن وجود الحاويات مغلقة لفترة زمنية طويلة ساعد على تركيز غاز الرادون المشعّ الناتج عن تحلل مادة اليورانيوم التي توجد بنسبة ضئيلة في مواد السماد، وهذا يوضح المستوى الإشعاعي العالي في المسح الأول، ولكن مع المسح الثاني وبعد فتح الحاويات قلّ تركيز غاز الرادون المشع، مما تسبب في اختلاف القراءة بين المرتين.

- وبالنسبة للاحتمال الثاني؟

- الثاني أن يكون تم تغيير الحاويات بعد الفحص الأول بحاويات أخرى، وهذا شيء يصعب إثباته، وخصوصًا أن الرقم الذي على الحاويتين متطابق في الفحص الأول والثاني.

وتيقنت ندى أنها يجب أن تبحث أكثر وأكثر، فضميرها لم يكن ليسمح لها أن تكتفي بالمعلومات التي اكتشفتها، وأنها يجب أن تبحث أعمق وأبعد مما وصلت إليه، فقد كان أكثر ما يشغل بالها هو مصير تلك الشحنات التي دخلت سابقًا، والتي تأكدت أنها تزيد عن خمس شحنات، كما عرفت من أوراق الميناء.

وكانت تنوي أن تستمر في البحث والتقصّي وراء هذه الشحنات، وأن تجمع كل المعلومات الممكنة عن هذا الموضوع ثم تنشرها في تحقيق كبير، ولكن الأستاذ توفيق رأى أن نُشر هذا التحقيق على عدة أجزاء له عدة منافع، أولها أن الموضوع عندما يُنشر في عدة أعداد من المجلة سيظل في ذاكرة الناس وأمام أعينهم، فبالتالي تأثيره على الرأي العام سيكون أكبر، وبمجرد ما يبدأ الرأي العام في الاهتمام بهذا الموضوع، ستبدأ المواقع ووسائل التواصل الاجتماعي في الضغط غير المباشر على السلطات المعنية للبحث وراء النشاط المشبوه لشركة «الأمانة»، مما سيحث من لديه معلومات بخصوص تلك الشحنات أن يتقدم بمعلوماته.

وعلى عكس توقع الأستاذ توفيق، مر هذا التحقيق مرور الكرام، لم يحرك ساكنًا، ولم يترك صدى في الرأي العام كما توقع، بل بالعكس، خيم سكون مريب حول هذا الموضوع، وما زاد الموضوع ريبة هو ما جرى للموقع الإلكتروني التابع للمجلة، والذي يُعتبر كمقياس لمدى نجاح أي موضوع، فقد استطاع بعض «الهاكرز» أن يستولوا عليه، ويخربوا كل المعلومات الموجودة فيه.

وكعادة ندى لم تقتنع أن مثل هذا الموضوع ينتهي بهذه السهولة، فمثل هذه الحاويات وما تحتويه تدرج تحت بند الخطر الشديد، وبدأت ندى في التحرك في عدة اتجاهات، لتحاول الوصول لمكان زهاب الشحنات السابقة، حاولت مع كثير من العاملين في الميناء، وحاولت بطرق غير مباشرة مع موظفين صغار في شركة «الأمانة» وحاولت في نقطة شرطة الميناء، حيث قدمت بلاغاً عن شحنات سابقة مشبوهة، ولكن لم يكتمل البلاغ، فهي لم تحمل صفة قانونية للتقدم بمثل هذا البلاغ.

ولكن بعد أيام من انتظار أي ردات فعل، خطَّ الأستاذ توفيق كلمة النهاية في هذا الموضوع، وأبلغ ندى أن هذا الموضوع انتهى بنشر الجزء الأول منه، حيث لم يترك صدى، ولم يأتِ بالنتيجة المرجوة ولا يوجد أي جديد في القضية، حتى تحقيقات النيابة بخصوص موظف شركة «الأمانة» المتهم باستيراد هذه الشحنة حُفِظت.

حاولت ندى أن تقنع الأستاذ توفيق لتتقدم ببلاغها للنائب العام، وفي نفس الوقت تستكمل البحث حول هذا الموضوع:

- أستاذي.. أنت تعلم جيداً أن حالة السكون التي أحاطت بعدد المجلة الذي فيه التحقيق والذي تزامن مع ما تم لموقعنا الإلكتروني، لو دل على شيء إنما يدل على أن ما جرى هو شيء متعمّد، وهذا أكبر حافز لنا أن نكمل حملتنا للنهاية؛ دعني أتقدم ببلاغ للنائب العام، عساهم يكتشفوا جديداً في القضية.

- ستتقدمين ببلاغ للنائب العام بأي صفة؟ ثم أين الأوراق الرسمية أو الدلائل الموثقة التي تُثبت صحة كلامك، والتي ستتقدمين بها؟ مكتب النائب العام

ليس قسم شرطة تتقدمين فيه ببلاغ عادي، يجب أن يكون في يديك أكثر من كلام مرسل من أشخاص لا يملكون ما يثبتون به كلامهم. مع الأسف يا ابنتي القرار ليس بيدي وحدي، ولكن في يد مجلس إدارة المجلة، التابع لمجموعة شركات كبرى كما تعلمين، وقد قرر مجلس الإدارة أن نوقف النشر عند ما نشرناه حتى الآن، ولكني أعدك لو ظهر أي جديد في هذا الموضوع سأشره على الفور، حتى لو كلفني ذلك وظيفتي.. ندى.. كفانا بحث في هذا الموضوع، واتركي لنفسك طريقًا للرجوع إذا ظهرت دلائل جديدة.

حاولت ندى الاعتراض والتقدم بحلول أخرى للأستاذ توفيق، ليستطيعوا الالتفاف حول قرار مجلس الإدارة، فهي لم تكن لتستسلم بسهولة، وخصوصًا لو كان أمرًا يمثل تحديًا كبيرًا كهذا، ولكن الأستاذ توفيق أصرَّ إصرارًا شديدًا:

- ندى.. لو سمحت، اتركي هذا الموضوع مؤقتًا حتى تظهر دلائل جديدة، أنت تتعاملين مع هذا الموضوع كأن بينك وبين هذه الشركة ثأرًا شخصيًا. هذا موضوع انتهى مؤقتًا، لا تكوني مثل سيرانو دي برجيراك في القصة الشهيرة الذي كان يحارب طواحين الهواء متخيلهم أعداءه، فكفاك الأسابيع التي أمضيتها تحققين وتبحثين وراء هذا الموضوع بلا طائل، والآن قد حان الوقت للالتفات لعملك، وخصوصًا أن هناك مسؤولية جديدة سُلِّقى على كاهلك، لأن رانيا رئيسة قسم المرأة بدأت إجازة الوضع.

ولم تجد ندى بُدًا سوى أن تستجيب للأستاذ توفيق، وخصوصًا أنها فعلاً قضت وقتًا طويلًا تبحث في هذا الموضوع، حتى أنها أهملت عمودها وبريد القراء، ولأول مرة منذ توليها العمود و صفحة القراء يحدث أن تصدر المجلة بدونهما.

وفي تلك الليلة وضعت ندى كل ما كان يشغل تفكيرها في كلمات، كتبتها في كراسة مذكراتها:

«هل فعلاً كنت أحارب طواحين الهواء مثل سيرانو دي برجيراك كما قال لي الأستاذ توفيق؟ هل كبرت هذا الموضوع وصعدته لمجرد أنني أشعر بالغضب تجاه تلك الشركة بالذات، بعدما عرفت بتهديداتهم السابقة للمجلة ولي، أم ردة فعلي تلك كانت ستصبح تجاه أي شركة أخرى تتاجر في أرواح وصحة الناس؟ ما الذي جرى لك يا ندى؟ هل فقدت موضوعيتك؟ هل أفقدت الرغبة في كشف الحقيقة حياديتك؟ أعتقد أنه قد آن الأوان أن تضعي هذا الموضوع جانباً وتكملي من حيث توقفت، فأنت قد أهملت عملك كله لأسابيع، ثم على ضميرك أن يرتاح، فأنت فعلت كل ما في وسعك وأكثر لتكشفي تجار الموت هؤلاء؛ اتركي الأمور للزمن فهو كفيل بها».

في أوقات كثيرة يبعث الله إلينا رسائل وقت الضيق ووقت الهم، أو وقت الاكتئاب، تجد نفسك تقرأ جملة في كتاب أو مجلة تضبط مزاجك، أو أثناء قراءة تك القرآن تصل لآية معينة تترك فيك أثراً جميلاً وتشرح صدرك.. تتمنى شيئاً فيبعث الله من يقضيه لك دون مجهود منك.

افتحوا قلوبكم وعقولكم وأرواحكم للرسائل والعلامات التي يبعثها الله إلينا، لأنه لا أحد سيشعر بنا ولا يفرج همومنا مثله سبحانه وتعالى.

مرت الأسابيع وندى بين شوقها لابنتها التي تغيب عنها لأول مرة كل هذه المدة، وعمودها وباب القراء، وتحقيقات متنوعة تقوم بها، عندما فوجئت في أحد الأيام بمكالمة غامضة من شخص اتصل بها على تليفون المجلة ويريد أن يقابلها خارج المجلة، بخصوص أحد المواضيع التي كتبتها مؤخرًا، وكادت ندى أن ترفض طلبه، فالأستاذ توفيق نصحها منذ الأيام الأولى لتوليها هذا العمود ألا توافق على أي مقابلات شخصية خاصة بمشكلات القراء، وأي مشكلة تكون من خلال الإيميل فقط، تجنُّبًا لإضاعة وقتها، وطبعًا لعدم التسبب في تكدر في مقر المجلة، الذي بالكاد يتحمل موظفيه. لكن المتحدث قال لها كلمة جعلتها تُسرِع لتقابلها على الفور: «موضوع الميناء».

ساعة وكانت ندى تقف أمام شاب صغير هزيل الجسم رث الملابس:

- حضرتك الأستاذة التي كتبت عن البلاوي الموجودة في ميناء الإسكندرية؟

- نعم أنا، من حضرتك؟ وما الذي تعرفه عن هذه الشحنات؟

- حضرتك كتبت أنك تريدين معرفة أين ذهبت الشحنات السابقة، أنا عندي

كل المعلومات التي تبحثين عنها، لكن...

سكون مريب عمّ المكان؛ خافت ندى أن يكون هذا الشخص الذي يقف أمامها

ليس سوى بلطجي بعثت به شركة «الأمانة» ليجرها بالكلام ويعرف منها ما

الذي في جعبتها.

كشّرت ندى عن أنيابها:

- لكن ماذا؟! لو لديك شيء فهيا قله.

أخرج الفتى مصحفًا من جيبه ووضع بين يديها:

- أولاً احلفي على المصحف أن الكلام الذي سيخرج مني لو نُشر في الجريدة لن تأتي بسيرتي أو سيرة أي شخص ممن سأحكي لك عنهم، في عرضك يا أستاذة.

- أحلف، لكن أخبرني بالموضوع كله لو سمحت.

أشعل الفتى سيجارة، وبدأ يحكي لها وهو يلتفت حوله متوترًا من حين لآخر:

- أبي سائق تريللات وكان يعمل على خط ليبيا، وكنا مرتاحين وقتها، لكنه كبر ولم يعد قادرًا على العمل، فأخرج كل ما ادّخره وباع ذهب أمي واشترى سيارة نصف نقل بالتقسيط ليعمل عليها هو وأخي، وكنت أحيانًا أعمل معهما أيام الإجازة المدرسية.. وفي يوم منذ ثمانية أشهر تقريبًا، جاء عمي خميس صديق أبي منذ عمله على خط ليبيا، وعرض عليه توصيل تريللا مُحَمَّلة مقابل مبلغ معقول، ووافق أبي، فالمبلغ كنا في حاجة إليه لتزويج أختي. وفي اليوم المتفق عليه مع عم خميس قابلناه أمام الميناء في الإسكندرية في الثامنة مساءً، واستلمنا التريللا بحمولتها من الحاويات، كانت تحمل اثنتين، رائحتهما كالقبر، ولما سألت أبي عم خميس عن العنوان الذي سنوصل إليه الحمولة قال إنه لا يعلم وإنما سنمشي وراء التريللا الأولى، وفعلاً مشينا

بالسيارات الساحل كله ثم العلمين ثم دخلنا طريق مطروح، وفجأة دخلت
التريلا الأولى في وسط الصحراء...

توقف الشاب قليلاً ليلتقط أنفاسه ويشعل سيجارة أخرى، عندما حثته ندى
أن يكمل ما يحكيه، حيث يأكلها الفضول، فأخيراً اقتربت من معرفة مصير
الشحنات المجهولة التي تستوردها شركة «الأمانة».

- استمرينا في المشي وسط الصحراء حتى رأينا أنواراً من بعيد، ولما وصلنا
وجدنا أوناشاً وكرافات وعمالاً، كما لو كانوا يحفرون القنال، ولما وصلنا وركننا
التريلات أخذنا أحدهم مع باقي السائقين والتابعين إلى خيمة بعيدة لنتراح
فيها، جلسنا لنأكل وطلب أبي من أخي أن يأتيه بالشيشة من التريلا،
ففوجئنا بأخي عائداً بوجه مصفر وأخذنا جانباً وحكى أنه رأى منظرًا غريبًا
جدًا، فالعمال بالخارج ارتدوا ملابس غريبة كما في الأفلام الأجنبية وهم
يفتحون الحاويات، وقلبوا ما فيها بالونش في الحفرة الكبيرة، وقتها هبت
رياح ولقي أخي أشياء غريبة تطير في وجهه رائحتها كالتي كانت في
الحمولة، وقتها أخي قاء وجرى عائداً إلى الخيمة، وبعد ساعتين ركبنا
العربات وعدنا إلى الإسكندرية.

- من قال لك إن تلك الأشياء تخص الموضوع الذي نشرته؟

- لأنني سمعت أحدهم هناك يقول إن العمل مع شركة «الأمانة» جيد، وإن
صاحب الشركة كريم مع العمال، وكل عملية يحصل الفرد فيها ما يصل إلى
خمسة آلاف بشرط أن من يحكي شيئاً يُدفن مكانه.

- ممكن أعرف ما الذي جعلك تتشجع وتحكي لي كل هذا، رغم الخطر الذي تعرّض نفسك له، على حد قولك؟

- لآخذ حق أخي ممن قتله.

- قتله؟! اشرح لي بالتفصيل لو سمحت.

- بعد هذا اليوم الأسود لم تقم له قومة أخرى، لم نفهم ما جرى له، دائماً متعب ونحيل ولا يأكل، كما أن جلده أصيب بحروق وقروح غريبة، ولما ذهبنا به للوحدة الصحية لم يتعرف الأطباء على مرضه، فظنوه جرباً، وصمموا على تحويله لمستشفى حميات العباسية، لكنه مات في الوحدة قبل نقله إلى القاهرة. وفي البيت أثناء تغسيه رآه جار لنا طالب في كلية الطب، وقال إن ما في جسده لا علاقة له بالجرب ولا هو مرض جلدي أصلاً، ولكنه شيء سمع عنه في الكلية لا يذكره بالضبط، لكن يذكر أن له علاقة بالكيميا أو النووي، يشبه تسمم يصيب من يلمس أو يشم شيئاً كيمياوياً.

أسقط في يد ندى، فها هي المعلومات التي تنتظرها جاءت حتى عندها، ولكنها جاءت مشروطة وغير مدعومة بدليل، فحتى مصدرها الوحيد جعلها تُقسِم ألا تأتي بسيرته في أي شيء يخص هذا الموضوع.

وقفت ندى تنظر للشاب الذي رفض حتى أن يقول لها اسمه:

- لقد وضعتني يا بُني في موقف صعب، فالمعلومات التي قلتها خطيرة، ويمكن أن تصيب الكثيرين كما أصابت أخاك، فماذا عليّ فعله الآن؟ حتى

المكان الذي ذهبتُم إليه لم تستطع أن تصفه لي ولم تعطني حتى أي علامة له.

وقف الشاب أمامها ينظر إليها ولسان حاله يقول «ماذا تريدني أن أفعل؟ هذا أقصى إمكانياتي»، ثم لمعت فكرة في رأس ندى، هذا الشاب ذكي، فلو أحضرت له خريطة لطريق الساحل الشمالي ومطروح والصحراء المحيطة سنتمكن مع حساب الوقت والمسافات من الوصول لمكان هذه السموم بالتقريب.

وفي لمح البصر عادت ندى للمجلة، حيث طبعت من على الكمبيوتر خريطة مُفصّلة بالكيلومترات للطريق الساحلي والصحراء المحيطة به، وعادت للمقهى الذي تركت فيه الشاب الغامض، ووضعت أمامه الخريطة، وبدأت تسمع منه وتأخذ ملاحظات وتدوّن علامات على الخريطة، وهو يساعدها قدر إمكانه بالتوقيات بين مكان ومكان وبعلامات في الطريق، ساعات قضتها ندى مع الشاب تستمع وتدوّن حتى اكتملت أمامها الخريطة بكل تفاصيلها.

وقبل أن يهم بالذهاب قال لها الفتى المجهول كلمات علقت في أذنيها:

- دم أخي في رقبة هؤلاء الناس، وأنا معتمد على الله ثم عليك يا أستاذة، افضحيهم وائتني بحق أخي.

حاولت ندى معه مرة أخرى أن تعرف أي تفاصيل تدل على شخصيته، اسمه أو رقم تليفونه أو اسم أخيه، ولكنه أصرَّ إصرارًا شديدًا على أن يبقى مجهولاً، مرددًا نفس ما قاله من قبل:

- نحن أصغر من مواجهة هؤلاء يا أستاذة.

واستأذن ليدخل الحمام واختفى بعدها، حاولت ندى أن تبحث عنه ولكنها اكتشفت أن للمطعم بابًا خلفيًا للعاملين، وغالبًا استخدمه للهروب من أي أسئلة خاصة بشخصيته، ولكن تصرفه هذا لم يثير غضب ندى، فقد كانت متوقعة مثل هذا التصرف منه.

على الفور اتجهت للبيت وفرشت الخريطة وأخرجت ملاحظاتها وأقوال الشاب، وجلست للفجر تحاول أن تصل لشيء، ولكنها لم تنجح، وقبل أن تغمض عينيها قررت أن أمامها مشوارين مهمين صباح الغد قبل الذهاب للمجلة، هيئة الطاقة النووية ومركز بحوث الصحراء.

مشاعر الغضب والغيرة والحقد والحسد والرغبة في الانتقام والندم.. مشاعر حادة وبشعة، فهي تولد كمًا هائلًا من الطاقة السلبية التي تحوّلنا لشعلة من النار، نار ذاتية تحرقنا من الداخل، فتدمر أعصابنا وتفقدنا القدرة على التفكير القويم، وتسرق منا راحة البال وكثيرًا من الوقت الضائع في التفكير فيما لن يفيد.

اغفروا وتصالخوا مع أنفسكم وانسوا الإساءة من أجل سلامكم الداخلي.

-١٦-

ساعات قليلة هي التي سمح بها عقل ندى لعينيها أن تناما، فما عرفته من الشاب الغامض جعل عقلها في حالة هياج وغضب، ألم يكفيهم ما يفعلوه باستيرادهم لألعاب مضرّة ومواد كيميائية خطيرة، ولكن أيضًا يغزون الصحراء ويلوثونها بتلك المواد.

وكان لقاؤها مع الدكتور ياسين في هيئة الطاقة النووية سريعًا ولكنه فعّال:

- يا أستاذة ندى، المواد التي تحدثت عن دفنها في الصحراء لو كانت نفس الماهية والمكونات التي سحبنا عينة منها وحللناها، فهي شيء في منتهى الخطورة، وبمجرد دفنها فإنها تتسرب للتربة ومنها للمياه الجوفية، ثم طبعًا إلى الآبار التي تتغذى من تلك المياه، وبالطبع منها لكل من يستعمل مياه هذه الآبار، سواء في الشرب أو ري النباتات أو سقي الغنم، وطبعًا الموضوع له أبعاد أخطر بكثير على المدى الطويل من مجرد تلوث آبار الماء، وبحسبة بسيطة فأعتقد أنها تقريبًا نفس المواد التي سحبنا منها عينة، والتي تسببت في وفاة الشاب الذي حكيت لي عنه، خصوصًا بعد ظهور هذه الأعراض عليه.

- ما الحل في رأي حضرتك؟ وما الذي تستطيع الهيئة أن تفعله؟ وما

الإجراءات المتبعة بخصوص مثل هذه المواد الخطرة؟

- للأسف نحن كهيئة ليس لنا سلطة تنفيذية، فمثل هذه الأمور تكون بيد وزارة البيئة ووزارة الري وهيئة تنمية الصحارى، وكلها كما تعلمين مؤسسات

حكومية تخضع للوائح وقوانين وأنظمة، وتحتاج أدلة وبراهين موثقة، ولن تتحرك بناءً على كلام مرسل، كنت أود لو أساعدك، ولكن يديّ مغلولتان.

لم تكذ ندى تخرج من مكتب الدكتور ياسين عندما لحق بها:

- أستاذة ندى.. انتظري أرجوك، هذا رقم تليفون قريب لي يعمل في مديرية أمن مطروح، اسمه الرائد طارق عبد الباري، اتصلي به؛ أعتقد أنه يستطيع مساعدتك، وأنا سأتصل به وأعطيه فكرة عن الموضوع.

شكرته ندى ووضعت الورقة التي فيها رقم تليفون الرائد طارق في جيبها، وأسرعت للمجلة، فهي يجب أن تخبر الأستاذ توفيق بكل هذا الكلام، فمن ناحية هذا سبق صحفي، ومن ناحية أخرى فنشره يمكن أن يساعد في تضيق الخناق أمام شركة «الأمانة» ويحث السلطات المعنية على التحقيق.

ساعات مرت وهي تحاول إقناع الأستاذ توفيق أن يوافق استثنائيًا على عمل دعاية عن الجزء الثاني لموضوع الميناء، عشرات المرات تدخل تتحدث معه ثم تخرج لتترك له الفرصة ليفكر ويستشير مجلس الإدارة، وتدخل وتخرج، حتى جاءت الموافقة، ونزل خبر بقرب نشر الجزء الثاني من تحقيق النفايات السامة على موقع المجلة، ومنه لمواقع أخرى كثيرة:

«قريبًا الجزء الثاني من تحقيق النفايات السامة، وهذه المرة بالصور والدلائل وأماكن دفن هذه النفايات في الأراضي المصرية.. تابعونا».

وكان لا بد لندى أن تكمل بحثها وراء موضوعها هذا، وتحاول الوصول للمكان التقريبي لدفن هذه السموم، وتحاول الوصول إليه وتصويره، ليكتمل

موضوعها، وكان مركز بحوث الصحراء هو المكان الذي تحتاج فعلاً الذهاب إليه، فمن أدري منهم بالصحارى والطرق والمدقات في هذه المنطقة وغيرها.

وفي اليوم التالي اتجهت ندى لمركز بحوث الصحراء، حيث التقت بمدير المركز وحكت له الحكاية من أولها لآخرها. استأذنها مدير المركز لدقائق، خرج من المكتب وعاد ومعه موظفان عرّفهما بندى وقال لها إن هذين الاثنين هما أكثر باحثين في المركز زهبا لهذه المنطقة، وهما اللذان يستطيعان مساعدتها، ولكن ما خرجت به ندى من جلستها معهما لم يفدها قط، بالعكس لقد أصابها بالإحباط، فبعد أن اطلّعا على الخريطة والأوراق والملاحظات التي قالها ابن سائق التريللا وقارناها بأوراق المركز وخرائطه استطاعا أن يصلا تقريبا للمكان المقصود، ولكنهما حدّرا ندى أن هذه المنطقة وعرة جداً وغير مؤمّنة ومليئة بالمطاريد والمجرمين، وإن أكثر من بعثة من المركز كادت تهلك في هذه المنطقة بعدما تاهوا في وسط الصحراء، لولا بعض البدو أنقذوهم وأخرجوهم حتى الطريق الرئيسي.

- بعدما عرفتما الحكاية وفهمتما خطورة هذه المواد التي تدفن في بطن الصحراء، بماذا تنصحاني أن أفعل؟

- للأسف ما باليد حيلة، فكما قلنا لحضرتك هذه المنطقة وعرة جداً، حتى قوات الشرطة تقابلها مخاطر كثيرة حتى تستطيع الوصول للمجرمين المختبئين فيها، ولكن أمل حضرتك الوحيد هو القبائل التي تعيش في هذه المنطقة، لو عرفوا بما يجرى وخطورته عليهم هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يحموا أرضهم من مثل هذه الاعتداءات.

- ولكن في هذه الحالة لن أستطيع أن أحصل على ما يدين مثل هذه الشركة المجرمة، حتى أستطيع التقدم ببلاغ رسمي في حقها، يعني مجهودي سيذهب هباءً.

- بالعكس يا أستاذة، الأهم من إدانة هذه الشركة هو حماية هذه المنطقة والمناطق المحيطة من مثل هذه المواد الخطرة، ودق ناقوس خطر للعاملين في الميناء والناس العادية في الشارع ليبلغوا عن أي نشاط إجرامي مماثل لهذا.

وخرجت ندى من مركز بحوث الصحراء، وكلمات هذين الباحثين تدق في أذنيها، بالفعل من الناحية القانونية ليس في يدها شيء تفعله، لأن وصول قوات من الشرطة لمثل هذه المنطقة لإثبات ما يجري صعب جداً، وحتى في حالة وصول القوات لأماكن دفن هذه النفايات لن يستطيعوا إثبات أنها تتبع شركة «الأمانة» أو أنها الشحنات التي سبق استيرادها، وحاليًا الأهم هو حماية الأرض من الانتهاكات التي تحدث فيها، ولكن كيف لها أن تصل لبدو هذه المنطقة؟ كيف لها أن تحذرهم مما يجري؟ تساؤلات كثيرة عصفت برأس ندى، ولكنها قررت أن تذهب لمقهاها المعتاد بجانب المجلة، تحتسي كوبًا من القهوة وتهدأ قليلاً وتعيد التفكير في الموضوع من أوله مرة أخرى.

نزلت ندى من سيارتها أمام المجلة، وهمت أن تعبر الطريق لتصل للمقهى، فجاءت سيارة مسرعة وكادت أن تصدم ندى، لولا أنها تفادتها في آخر لحظة.

دخلت ندى المقهى وهي تحت تأثير الصدمة، فهي لتوّها رأت الموت بعينيها، وما أن جلست حتى رن هاتفها:

- أستاذة ندى.. ما جرى الآن هو بروفة مما نستطيع أن نفعله معك، ولكننا أكبر من ذلك، وأنت أصغر من أن نصنع منك شهيدة الصحافة، ولكن انتظري منا مفاجأة، وتعلمي كيف يلعب الكبار.

ثم ضحكات أنهت المكالمة وتركت ندى والذهول يملؤها.

ما هذه المكالمة؟ هذه ليست دعاية من أحد زملائها، هذه حقيقة، لقد كادت السيارة أن تصدمها، إذا التهديدات التي كلمها عنها الأستاذ توفيق حقيقية وليست تهديدات جوفاء، وما هي المفاجآت التي تكلموا عنها؟

وبعد أن أفاقت ندى من الصدمة وهدأت، بدأت تفكر:

- إذا أنا صح، أنا أمشي في الطريق الصحيح، لقد وضعت يدي في عش الدبابير، ولكني لن أتراجع الآن، فالموضوع تعدّي خبطة صحفية، الموضوع الآن ثار شخصي ممن حاولوا إرهابي وتهديدي، الحمد لله أن سميحة ليست في مصر، فهي نقطة ضعفي الوحيدة التي كان من الممكن أن أتراجع لأحميها، عمومًا البادي أظلم.

دقائق ووجدت الأستاذ توفيق يجلس أمامها بعدما عرف بما جرى من رجل الأمن في المجلة:

- لن ألومك أو أعاتبك أو أقول لك إنني قد حذرتك أو أيًا هذا الكلام الذي لا طائل منه، دعينا نفكر في خطوتنا القادمة يا ندى، ماذا تنوين فعله؟

- أتصدقني إذا قلت لك إن محاولتهم الآن لتخويفي وتهديدي زادتنني إصرارًا على أن أكمل الطريق لآخره وراء هؤلاء المجرمين؟

- أصدقك طبعمًا، لأنني أعرف الإصرار الذي تتمتعين به، وحدث ولا حرج عن العند والرأس الصلب.

ابتسمت ندى، فالأستاذ توفيق كان يعرفها جيدًا:

- أعتقد أنه قد حان عمل محضر بما جرى، وغالبًا بخبرتي هذا المحضر سيُحفظ، حيث لا دليل على أن ما جرى معك متعمد، حتى المكالمة التي جاءت لك كانت من رقم غير ظاهر ولكننا سنفعل ما علينا.

واصطحب الأستاذ توفيق ندى ومناذي السيارات الذي شهد الواقعة ورجل الأمن من الجريدة، واتجهوا لقسم الشرطة التابع لهم، حرروا محضرًا بواقعة السيارة المسرعة وتهديد التليفون، واتهموا شركة «الأمانة» أنها وراءه، وخرجوا من قسم الشرطة كل لمنزله بعدما قال لهم الضابط المسؤول بصفة ودية ما كانوا يعلموه مسبقًا، من أن هذا المحضر سيحفظ في نهاية الأمر بعد أن يستدعوا المسؤولين في شركة «الأمانة» والذين سينكرون بالتأكيد.

صباح اليوم التالي كان يحمل مفاجأة غير سارة لندی، تليفون من الأستاذ توفيق يبلغها أن شركة «الأمانة» رفعت ضد المجلة وضدها هي شخصيًا قضية تشهير وتلفيق معلومات، ومرفق في أوراق القضية محضر حرروه ضد ندى يتهمونها فيه بالابتزاز وتهديد الشركة بالقيام بحملة صحفية ضدها، إذا لم يوافقوا على أن تقوم ندى بحملة دعائية لشركتهم، من أجل أن تحصل لنفسها على عمولة من المجلة.

- إذا هذه هي المفاجأة التي تحدثوا عنها.. إذا هي الحرب.

كل شخص فينا يحتاج من آن لآخر لاستراحة محارب يقف ليقوم ما فعله في الماضي، وبناءً على هذا التقييم سيبنى قراره فيما سيفعله في الغد، وبدون هذه الهدنة سنكون كأننا مربوطون في ساقية الحياة، تدور بنا في نفس الفلك بسرعة شديدة، ولا تترك لنا فرصة لنتاح ونفكر.

بعد القضية التي رُفعت على المجلة والاتهامات التي وُجِّهت لندى، عقد مجلس إدارة المجلة اجتماعًا ضم الأستاذ توفيق رئيس التحرير وندى ورؤساء الأقسام ورئيس الشؤون القانونية للمجلة، وبعد اجتماع طويل تناولوا فيه كل الجوانب الممكنة ودرسوا كل الاحتمالات وصلوا لنتيجة كانت صادمة لندى، حيث قرروا أن يعلقوا نشر الجزء الثاني من التحقيق، حتى يصبح بين أيديهم وقائع مثبتة.

ولكن ندى صممت على نشر الجزء الثاني من تحقيقها «بلاغ لمن يهمله الأمر»:

- مع الاعتذار لكل القامات الحاضرة في هذا الاجتماع، ولكني أرى ضرورة نشر باقي التحقيق في موعده، وعدم الرضوخ لمثل هذه التهديدات التي تمثل مساسًا بأول قواعد العمل الصحفي، وهي ألا نخاف في الحق لومة لائم. إذا رضخنا لهم هذه المرة فكأننا نسن قانونًا غير موثَّق مفاده أن بالقوة والتهديد تحصل على ما تريد.. ننشر وأنا مستعدة لتحمل المسؤولية كاملة.

اعترض الأستاذ توفيق منفعلًا:

- هذا ليس موضوع شجاعة أو غيره يا ندى، هذه سلامتك وسلامة ابنتك أولاً قبل أي شيء، ثانيًا نحن لا نستطيع أن ننشر تحقيقًا صحفيًا بناءً على كلام مرسل بدون أدلة دامغة، ثالثًا نحن أمام قضية تشهير وابتزاز المجلة في غنى عنها. يا ندى بصفتي الشخصية وبصفتي مواطن من حقي أن أطلع على

الحقيقة أنا مع رأيك هذا، ولكن بصفتي الوظيفية هناك اعتبارات يجب أن تُؤخذ في الحسبان، خصوصًا أن الشركة لجأت للقضاء، وتوقعي أن يصدر قريبًا قرار من النائب العام بحظر النشر في هذا الموضوع، شركة «الأمانة» لم تعد الشركة صاحبة قضية الألعاب المسرطنة، هي الآن شركة كبيرة ولها اسمها ولها أسهم في البورصة ومستثمرون كبار سيفعلون أي شيء ليضمنوا بقاء سجل الشركة ناصع البياض، هذا غير جيش من المحامين والمستشارين القانونيين الذين مهمتهم أن يزيحوا أي عوائق في طريق الشركة، طبعًا كل هذا غير الإعلانات التي سيكلفونها ملايين في أغلب المجالات والجرائد والمواقع الإلكترونية، التي بالتأكيد لن تنشر شيئًا يضر بمصالح معلنين كبار مثل شركة «الأمانة».

خرجت ندى من الاجتماع وهي تشعر بخيبة أمل وهزيمة، فهذا هو الباطل يكسب، ها هي شركة «الأمانة» تنتصر وستستمر في نشاطها المشبوه، ستستمر في الإضرار بصحة الناس وتلويث البيئة، ستستمر في تحويل مصر لمقلب نفايات سامة لمن يدفع لها.

وكانت هذه المرة من المرات النادرة التي تتنازل فيها ندى عن رأي هي مقتنعة به، رغم أنها أبدًا لم يكن من طبعها الاستسلام، خصوصًا أن هذا التحقيق بالذات يُشكّل تحديًا كبيرًا بالنسبة إليها، فالموضوع تعدى شركة «الأمانة» وإثبات فسادها، فهذا التحقيق يمس صحة وسلامة الناس، خصوصًا بعدما سمعت بأذنيها رأي الدكتور ياسين مندوب هيئة الطاقة النووية، الذي نصح بضرورة سرعة الكشف عن أماكن دفن تلك النفايات، حتى يحذر سكان المنطقة من استخدام مياه الآبار لفترة كبيرة.

رجعت ندى في هذه الليلة والإحباط يملؤها، فتحت كراسة مذكرتها وجلست كعادتها تكتب وتحلل وتهديء من نفسها بين سطور كلماتها:

«لم يعد في يدك ما تفعليه يا ندى، انتهى، لقد سُدت كل الطرق في وجهك، اعترفي بهزيمتك أمام شركة الأمانة، استسلمي، فأنتِ فعلتِ أقصى ما تستطيعينه، أنت تتعاملين مع هذا الموضوع كأن بينك وبينهم ثأراً قديماً، ولكن في نهاية الأمر هذا موضوع مثل غيره من المواضيع التي تعملين عليها، ولكن الحكاية ليست تحدياً ولا عناداً كما يعتقد الأستاذ توفيق، بالعكس، الموضوع تعدى كل ذلك، لقد دخل في منطقة الخطر والمراهنة على صحة الناس، وعدم اكتشاف إصابات لا يعني عدم وجودها، فأکید يوجد بدو يعيشون في هذه المنطقة، وأکید يتأثرون صحياً دون أن يشعروا، ولكن ماذا في يدي أن أفعله؟ لقد غُلت يدي، حتى النشر قد مُنع في هذا الموضوع كما تنبأ الأستاذ توفيق، أعتقد أنه قد حان الوقت أن أدع كرامتي جانباً وأن أتنازل عن نشر مثل هذا الموضوع. ولكن كيف لي أن أترك هذا الموضوع بهذه السهولة؟ كيف أتصل من مسؤوليتي عن المعلومات التي عرفتتها؟ الساكت عن الحق شيطان أخرس، وأنا أبداً لن أسكت، سأكمل حربي معهم، ولكنها ستكون حرباً غير معلنة جنودي فيها ليس الكلمة المنشورة كالعادة، ولكن جنودي هم أهل الصحراء، عمومًا سأنام الآن وسأدع التفكير للغد، فالغد له رب كريم يدبره».

لكن كعادتها لم تستطع ندى أن تنتظر للغد، فما يدور في عقلها لم يكن ليدعها تنام في سلام، ومع أول رشفة من فنجان الشاي الأخضر الذي وضعته بجانب

سريرتها ونسيتها حتى برد، تذكرت قريب الدكتور ياسين الذي يعمل في مديرية أمن مطروح:

- سأتصل به وأعرض عليه الموضوع، عساه يستطيع أن يصل للقبائل التي تعيش في تلك المنطقة، فأضعف الإيمان يجب عليّ إبلاغ من يعيشون في تلك المناطق حتى يحموا أرضهم من أي محاولات مستقبلية، لدفن مخلفات كهذه مرة أخرى، والأهم تحذيرهم للابتعاد عن الآبار التي تقع في نطاق دفن هذه السموم. سأتصل به وأكد سأجد عنده الحل.

ومع ثاني اتصال بدون إجابة ذهبت ندى في سبات عميق.

هناك بعض البشر عندهم المقدرة على إظهار أسوأ ما فيك، ثم يتعجبون من سلوكك تجاههم، هذه الفصيلة من البشر لو ركزوا قليلاً في تصرفاتهم سيكتشفون أن سلوكك ما هو إلا ردة فعل لتصرفاتهم.

وهناك من البشر من هم بمجرد وجودهم في حياتك يعم الصفاء والهدوء وراحة البال، هؤلاء عملة نادرة لا يجب التفريط فيهم.

جاء الغد حاملاً لندى صفحة جديدة في حياتها، صفحة كان أول سطر فيها
مكالمة حادة وغاضبة من رقم مجهول:

- من معي؟ هذا الرقم اتصل بي بالأمس أكثر من مرة.

وكانت ردة فعل ندى أكثر حدة:

- أولاً أنت المُتَّصِل، ثانيًا لا يصح لمن في مثل سنك المعاكسة بتلك الطريقة،
ثم أن هذا رقم غير مسجل عندي، فكيف سأُتصل به إذا كان الرقم غير ظاهر؟

ثم أغلقت الخط في وجه المتصل، الذي عاود الاتصال بها مرة أخرى:

- أظن أنه لا يصح أن تغلقي الخط بهذه الطريقة؛ أنتِ لا تعرفي مع من
تتحدثين.

وللمرة الثانية تغلق الخط في وجه المتصل دون أن تنطق بكلمة، فقد كانت
تُستشاط غضبًا.

بعدها بقليل جاءت المكالمة التي تنتظرها، ظهر أمامها اسم الرائد طارق على
شاشة المحمول؛ جاوبت على الفور:

- صباح الخير سيادة الرائد.

لصدمتها وجدت نفس صوت الرقم المجهول يحدثها:

- سبحان الله! ها أنتِ تعرفين الذوق!

ألجمتها المفاجأة «ما هذا المجنون يا ربي؟!».

ضحكة صفراء خرجت من بين شفثيها، بينما أكمل:

- لقد اتصلتِ بي عدة مرات، من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

هَمَّت أن تحكي له موضوع النفايات والصحراء، عندما أسقط في يدها، فمن الواضح أن مثل هذه الشخصية لن تخدم أو تساعد، «أصلاً يبدو عليه لا يطيق نفسه، فهل سيطيق مشكلات غيره؟».

- لا شيء، لا مشكلة، أشكرك، مع السلامة.

- دقيقة واحدة قبل أن تقفلي، من أنتِ؟

تلجلجت ندى قليلاً واحتارت، أتجازف وتحكي له وتتحمل منه ردة فعل غير لطيفة، أم تُقَصِّر وتنتهي المكالمة؟ ولكنها قررت أن تدوس على كرامتها وتتحمل غطرسته قليلاً من أجل هؤلاء الذين يعيشون في الصحراء ويستخدمون تلك المياه الملوثة وهم لا يعلمون خطورتها.

وبدأت تحكي له الموضوع من أوله عندما قاطعها:

- عرفت من أنتِ، أنتِ البنت الصحفية التي كلمني عنها ياسين منذ فترة وأخبرني سريعاً بموضوعك.

«البنت الصحفية! اللهم طوِّلك يا روح! تحملي يا ندى».

- بالضبط، أنا هي.

- تمام، أنا في مأمورية في القاهرة، يمكنني مقابلتك غدًا في مقهى سيموندس في الزمالك، في الثالثة ونصف عصرًا، لا تتأخري.

ثم أغلق الخط دون سلام ولا كلام، تاركًا ندى في حالة من الغيظ والغضب والذهول، «هذا الراجل حقيقي؟! سمعت كثيرًا عن ضباط شرطة قاسية قلوبهم وتعاملاتهم خشنة وعنيفة، ولكن هذا الشخص فاق كل التصورات، المهم سأذهب لمقابلته وأبحث عن حل للموضوع، فقط لأريح ضميري».

وثاني يوم ظهرًا اعتذرت ندى وانصرفت مبكرًا من المجلة دون أن تحكي أي شيء للأستاذ توفيق، فهو بالتأكيد سينصحها ألا تتدخل في الموضوع، ولكنها كانت مُصرّة على أن تنهي الموضوع بطريقتها بدون أن تزج باسم المجلة فيه.

وصلت ندى قبل الموعد بساعة، فانتهزت الفرصة لتشرب فنجان قهوة في هدوء، وتكتب مقال العدد الجديد من المجلة، قبلما يصل طارق هذا ويكمل حرق دمها، فتفقد القدرة على كتابة حرف، مثلما حدث معها بالأمس بسبب مكالمته، وجلست في حالة من الاسترخاء الذهني تستدعي الكلمات لتكتب مقالها:

«هناك دائمًا رابط بين الحب والشعور بالأمان. هل فكرنا ما معنى الشعور بالأمان مع من نحب؟ كثيرون سيقولون بأنه شعور بالحماية وأنه لا يمكن أن يجري لنا أي شيء وهو بجانبنا، ولكن أنا لي رأي مختلف في هذا الموضوع:

الشعور بالأمان يعني أن أجد من يحتويه عندما أشعر بالوجع النفسي،
الشعور بالأمان يعني أنني يمكن أن أؤمن الشخص الآخر وأنا مطمئنة على
أدق مشاعري دون خجل منه، أن أقول له أي شيء وكل شيء كأني أحدث
نفسي.

الشعور بالأمان يعني أنني يمكن أن أستغنى بوجودي جانبه عن العالم كله.
الشعور بالأمان يعني كوني متأكدة أن هذا الشخص لن يخذلني ولن يحط من
قدري ولن يجرحني.

الشعور بالأمان يعني أن الشخص الآخر يبقى أماناً معنوياً لي، يشجعني
ويدفعني دفعاً أن أكون أفضل دائماً دون أن يشعرني بنقص.

الشعور بالأمان هو الشعور بالسعادة بالقرب من هذا الشخص، مع شعور أنكما
تكملان بعضكما.

أي علاقة يشعر طرفاها بهذا الأمان تجاه بعضهما بعض هي علاقة ناجحة
تسير في الطريق السليم».

فجأة سمعت ضحكات ساخرة جاءت من ورائها قطعت عليها سيل الأفكار:

- هل تصدقين فعلاً ما تكتبينه هذا، أم هذا ما يسمى «كلام جرايد»؟ هههههه.

التفتت ندى ورائها لتلقي نظرة على الشخص ثقيل الظل الذي يسخر منها
ومن كتاباتها، برغم أنها كانت متأكدة مقدماً من صوته أنه الرائد طارق.

نظرت إليه مبتسمة ابتسامة صفراء، ولسان حالها يقول «هل تصدق أنني لم أرَ مثل سخافتك هذه من قبل؟»، ولكنها فضّلت السكوت، فلم يكن من طبعها أن ترد السخافة بسخافة، فكما يقال «ياما دقت على الراس طبول».

جلس أمامها ونادى على الجرسون، وطلب فنجاناً من القهوة ثم التفت نحوها:

- من صوتك تصوّرتك صحفية صغيرة مبتدئة، لكن ها أنتِ لست بالصغيرة كما تخيلت.

التزمت ندى الصمت واكتفت بتلك الابتسامة الصفراء التي لم تفارق وجهها منذ رأته، فكل كلمة تخرج من فمه تستفزها وتثير أعصابها أكثر وأكثر.

وبعد سماعها لربع ساعة مكالمات أجراها الرائد طارق وهي تجلس أمامه تنتظر أن ينتهي من تلك المكالمات لتحكي له الموضوع وتهرب من أمامه، نظر إليها وابتسامة كبيرة تزين وجهه:

- خير؟ مُريني.

المفاجأة ألجمت ندى، فهذا الشخص الجالس أمامها الآن ليس نفس الشخص الذي سخر من كتاباتها منذ دقائق مضت، ولا هو نفس الشخص السخيف الذي تحدث معها في التليفون بالأمس.

- عفواً يا أستاذة، ما اسمك؟

- ندى حضرتك، ندى. أراك مشغولاً وأعتقد أن الأفضل أن أتركك الآن وأتصل بك لاحقاً لأحكي الموضوع.

- أبدأ، بالعكس، فأنت وموضوعك أتيتما لي ببشرى سارة، فقد علمت منذ دقائق أن مساعد الوزير يمضي قرار ترقيتي الآن.

- مبروك، إذاً هل أحكي الموضوع وأنا مطمئنة؟

الابتسامة التي شقت طريقها بين قسما ت وجهه كانت مفتاحاً للكلام بالنسبة إليها، فحكيت له الموضوع من أوله لآخره مُدعماً بالأوراق والخريطة، وكانت من آن لآخر تختلس النظر تجاهه لتتأكد هل يستمع إليها أم لا، وكانت تجده على عكس توقعها- منتبهاً جداً ويكتب ملاحظات في الورقة التي أخذها منها.

وبعدما انتهت ندى وقف طارق وسلّم عليها واعتذر لها لاضطراره للانصراف على الفور، وانسحب كما جاء فجأة تاركها في دهشة واستياء.

«لقد انصرف دون أن يعلق على الموضوع بكلمة، حتى الابتسامة اختفت وسلم عليّ سلاماً بارداً وسخيفاً مثله. حتى أقل قواعد اللياقة لم يقم بها فلم يعرض عليّ أن يدفع الحساب، رغم أنني لم أكن لأسمح له بذلك طبعاً».

ولما طلبت الحساب فوجئت بالجرسون يبلغها بأن الحساب دفعه طارق بيه، وعندما صممت أن تدفع حتى حساب مشروباتها فقط رفض الجرسون رفضاً باتاً قائلاً:

- هل تريد أن تتسبب لي في مشكلة؟ طارق بيه كثيرًا ما يأتي هنا، وولا مرة سمح لسيدة أن تدفع الحساب.

ذُهِلَّت ندى من رد الجرسون الذي يوضح أن هذا الطارق يأتي هنا مع كثير من السيدات، «كيف يتحملنه؟ هذا رجل لا يحتمل فعلاً، أينعم وسيم ورياضي و ذو جسد مشدود كشاب يافع، لكن طبعه أمر آخر».

وخرجت ندى من المقهى وهي تجر جر أذيال الخيبة، فها هي آخر قشة كانت تُعَلِّق عليها آمالها تنكسر، فمن الواضح أن الرائد طارق لن يفعل أي شيء يخص هذا الأمر.

قضت ندى ليلة ليلاء جافاها فيها النوم، قضتها وهي تشعر بالإحباط والعجز، لأنها لم يعد في جعبتها شيء آخر تفعله لتتصدى لفساد شركة «الأمانة»، وزاد من شعورها بالإحباط مشاعر الضيق والغيب كلما تذكرت الرائد طارق وسلوكه الفظ معها. قضت الليلة وهي تؤنّب نفسها لأنها استسلمت سريعًا ولم تقاوم أكثر لتنشر باقي موضوع مخالفات شركة «الأمانة»:

«لقد أخطأت عندما سمعت كلام الأستاذ توفيق ومجلس الإدارة، كان يجب عليّ أن أصر على موقفي، حتى لو كنت نشرت هذا الكلام بصفتي الشخصية في عدد من المواقع الإلكترونية، أكيد كان سيترك الصدى الذي كنت أتمناه، ولكن في مثل هذه الحالة كان من الممكن أن أُعرِّض مركزي في المجلة لهزة ثقة، وكان من الممكن أيضًا أن أفقد وظيفتي هناك، وبالطبع كنت سأعرض لمشكلات قانونية جمّة أنا في غنى عنها، فشركة الأمانة قد أمّنت موقفي القانوني جيدًا. لا يا ندى كان يجب أن تستمري فيما انتويتِ، فها أنت الآن قد

وصلت لطريق مسدود ولم يعد بيدك شيء تفعلينه، سينتصر الشر مرة أخرى،
لا لن ينتصر، فالله سبحانه يمهل ولا يهمل، كفاك تأنيب في نفسك يا ندى،
نامي واتركيها على الله، تبات نار تصبح رمادًا».

يوم جديد يعني تحديًا جديدًا، يعني أحلامًا جديدة قابلة للتحقق، يعني
إعادة أحياء أمانٍ كنا على وشك فقدان الأمل في حدوثها.

يوم جديد يعني هدية جديدة لنا يجب أن نستغلها جيدًا ونشكر الله سبحانه
وتعالى على إعطائنا فرصة جديدة مع إشراقة كل صباح لنحقق ما لم نستطع
تحقيقه بالأمس.

قضت ندى يومين في بيتها تعاني من صداع رهيب، هذا الصداع الذي يهاجمها كلما كانت نفسيتها سيئة وهي تعتبره إشارة من عقلها لها أن تكف عن التفكير، ولكن لم يكن بيدها شيء تفعله، فقد سُدت في وجهها كل الأبواب، وكانت تشعر بغضب ومرارة لم تشعر بمثلها منذ زمن طويل.

يومان قضتهما ندى تختبئ في دنيها الخاصة، موسيقاها الفرنسية المفضلة في الخلفية وألبوم صورها وكراسة مذكراتها بين يديها، تتصفح ذكرياتها بين صفحاتهما. يومان قضتهما وهي تتبادل الجلوس ما بين الكنبه وأمام الثلاجة، تأكل ما تقع عليه يداها، عادة انقطعت عنها منذ زمن، حينما كانت كل انفعالاتها تُترجم في صيغة أكل، عادة انتهت منذ سنوات مضت بعدما اتخذت قرارًا بأن تترك وراءها كل ما له علاقة بإسماعيل، بما فيه هذه العادة التي اكتسبتها منذ زواجها منه.

يومان قضتهما ندى تعيد على نفسها كل تفاصيل موضوع النفايات السامة والميناء، عساها لم تنتبه لتفصيلا يمكن أن تساعد في مواجهة هذه العصابة التي تتاجر بصحة البشر من أجل سلامة حساباتهم في البنوك. وفي وسط تلك الدوامة التي علقت بداخلها جاءت لها مكالمة من الرائد طارق، مكالمة كانت بالنسبة إليها طوق نجاة مما هي فيه:

- أستاذة ندى، بعد إذنك، أريدك في مديرية أمن القاهرة خلال ساعتين.

- خير يا سيادة الرائد؟

- خير ياذن الله، لا تتأخري، وعندما تصلين اتصلي بي لأبعث لك أحدًا يحضرك لي.. ويُفضّل أن تُحضري معك كل الأوراق الخاصة بموضوع الميناء.

وبعد أقل من ساعتين كانت تتصل بالرائد طارق من أمام مبنى المديرية، وفي أقل من دقيقة كان الرائد طارق يقف أمامها شخصيًا مبتسمًا ابتسامة ساحرة لم ترها منه من قبل، وقاد أمامها الطريق حتى وصلا لمكتب في الدور الثالث، حيث وجدت شيخًا مُسنًا يجلس في الغرفة، ومن ملابسه استنتجت أنه من بدو الصحارى، وبصحبتة شاب في أواخر الثلاثينيات من عمره، ثم عرّفها طارق بالشيخ الجالس أمامها:

- أستاذة ندى.. هذا هو الشيخ عقار أبو برغوث كبير قبائل الباويطي في الصحراء الغربية، وهذا برغوث ابنه، وقد تفضّلا ووافقا على الحضور بعدما سمعا مني بموضوع النفايات التي تُدفن عندهما في المنطقة.

دقائق من الصمت استغرقتها ندى لتتغلب على الشعور بالسعادة الذي انتابها بسبب هذه المفاجأة، ثم تحدثت جديدًا مع الشيخ عقار:

- مع الأسف أنا لا أعلم جغرافية المناطق هناك، ولا يوجد لديّ إحداثيات دقيقة لأماكن دفن هذه الأشياء، فمن الوارد ألا تكون في منطقتكم أصلاً.

تدخّل الشيخ عقار:

- لا تخافي يا بنيتي، احكي لي فقط الحكاية كلها وأنا بعون الله وبكلامك سأتوصّل للمنطقة ولو في بطن الحوت.

حكّت لهما ندى الموضوع من أول الشحنة الأخيرة، التي كانت السبب في اكتشاف باقي الشحنات، وكلما استفاضت في التفاصيل كانت تلمح نظرات غضب عارم على وجه الشيخ عقار، وعندما حكّت له ما قاله لها الشاب الغامض ابن سائق التريللا انتابته نوبة من الغضب الشديد:

- الله يلعنهم! لقد تركنا لهم المدن بما فيها وبقينا في الصحراء نكفُّ خيرنا شرنا، فلماذا يأتون إلينا ويؤذونا؟! هؤلاء الناس لو أتوا ثانية لمنطقتنا فلن يكفيننا عمرهم ثمناً.

وهنا تدخل ابنه برغوث الذي لم ينطق بكلمة طيلة المقابلة:

- كلا يا أبي، العمال لا ذنب لهم، هم مجرد مأمورين، لكن لو دُفِن شيء مماثل مرة أخرى في أرضنا سنأتي بالكبار المسؤولين عن المصيبة من عقر دارهم، ولن يكفيننا شركاتهم وبيوتهم، نحن لحمنا مر يا طارق بيه.

ثم طلب برغوث ابن الشيخ عقار نسخة من الأوراق والخريطة التي قد رسمتها ندى مع الشاب الغامض، ونقّدت له طلبه، بعدما صوّر لها الرائد طارق نسخة من الأوراق، وعندما طلب منها أي وسيلة تواصل مع الشاب الغامض الذي أبلغها بكل ذلك، اعتذرت وحكّت لهم أن هذا الشاب اختفى دون أن يترك خلفه أي دليل على اسمه أو تليفونه، ولكن الشيخ عقار طمأنها:

- لا يهم الشاب ولا يهم حتى مكان الدفن بالتحديد، فأنا وبرغوث سنعود ونقيم اجتماعاً كبيراً بين كل القبائل من الإسكندرية للسلم، وبعدها لن يستطيعوا الاقتراب مرة أخرى من صحرائنا.

وانصرف الشيخ عقار وابنه بصحبة أمين شرطة ليوصلهما لمحطة مصر،
وبقيت ندى بصحبة الرائد طارق.

- لا أجد كلمات كافية لأشكرك بها لما فعلته، فهذا الموضوع كان يؤرقني جدًا،
وكنت أشعر كأنني أرى شخصًا يغرق أمامي وليس باستطاعتي إنقاذه.

- لا شكر على واجب يا ندى، كما أن الشكر واجب عليّ، ألم أقل لك إنك وهذا
الموضوع كنتمما بشيرين لي؟ لقد ترقيت «مقدم» بالأمس.

- ألف مبروك.

- بهذه المناسبة اسمحي لي أن أدعوكِ على فنجان قهوة بدل فنجان أول
أمس الذي لم أكمله معك.

وجدت ندى نفسها في مأزق، فهي لا تريد أن تخوض تجربة الجلوس معه
على طاولة واحدة مرة أخرى، فيفعل ما فعله معها آخر مرة، برغم أن تعامله
معها اليوم كان يتسم باللطف والذوق، ولكنها اعتذرت وانسحبت على الفور،
وما أن وصلت إلى الشارع المقابل للمديرية اكتشفت أنها ارتكبت خطأ فادحًا
عندما تركت سيارتها في البيت وجاءت بتاكسي، فها هي الآن تقف ولا تجد
تاكسي واحدًا غير مشغول يقبل أن يوصلها.

مرت عليها نصف ساعة وهي تقف في الشارع تنتظر تاكسي، عندما توقفت
سيارة بجانبها وفتح الباب، لتفاجأ أنه الرائد طارق:

- اركبي يا ندى.

- أشكرك يا سيادة الرائد، أنا في انتظار تاكسي.

- أولاً سبق وقلت لك إني ترقيت لرتبة مقدم، ثانيًا هذا ليس طلبًا، هذا أمر، اركبي فورًا.

ووجدت نفسها تطيعه وركبت بجانبه السيارة بلا أي مقاومة، نصف ساعة وتوقفت بهما السيارة أمام أحد المراكب الثابتة على النيل:

- أنا جائع، وبالتأكيد أنت أيضًا جائعة، هيا انزلي.

«جائعة وهيا انزلي؟! ما هذا الرجل؟! بأي مناسبة يأمر كأني عسكري مراسلة عنده».

تلجلجت ندى، فكيف تتملص من مثل هذه العزومة:

- أصل... أصل...

- لا أصل ولا فصل، ستدخلين الآن وتأكلين معي، ولا تتحججي بأحدًا لأن عندي تاريخك كله، بأمانة ابنتك التي سافرت كندا مع أبيها، وأمك التي سافرت الريف عند عائلتها.

كانت الدهشة والذهول المرسومان على وجه ندى مثارًا لسخرية طارق:

- لا تتعجبي، أنا ضابط مباحث محترف، فلا يصح أن أتعامل مع شخص أو أساعد أحدًا دون التأكد من أغراضه الحقيقية. المهم ندخل ونأكل وسأحكي لك مواقف حدثت لي علمتني كيف أعرف أصل كل من أتعامل معه.

عزومة الغداء التي من الطبيعي أن تنتهي خلال ساعتين على الأكثر، امتدت بهما منذ السادسة مساء حتى منتصف الليل تقريبًا، يجلسان في المطعم المطل على النيل يتحدثان كأنهما يعرفان بعضهما بعضًا منذ سنوات، أحاديث طويلة بدأت بسؤال من ندى:

- آسفة على هذا السؤال، لكنني منذ تعرفت بك وأنا رأيت منك شخصيتين، الشخصية التي رأيتها في المكالمة التليفونية الأولى بيننا وفي المقهى بعدها، ثم الشخصية الأخرى التي أجلس معها الآن نتبادل أطراف الحديث، أنت من فيهما؟

ابتسم لها ابتسامة ساحرة:

- أنا كوكتيل من هذا وذاك، أنا في العمل أكون الشخصية الأولى ولكن في حياتي العادية أكون هذا الشخص المائل أمامك الآن.

- لكن لماذا...

- لا تكلمي، فأنا حَمَمْتُ عن ماذا ستسألين: لماذا كنت فظًا معك في بداياتنا، سواء في التليفون أو سيموندس، صح؟ لأنني ببساطة خبرتي عودتني أن آخذ حذري مع الإعلاميين والصحفيين بالخصوص، فكثيرًا ما وقعت في مشكلات ووُضِعَ كلام عن لساني في الصحف عن طريق صحفيين تعاملت معهم بحسن نية، هذا غير محاولة فاشلة بالتحرش من صحفية مبتدئة تعمل في إحدى الصحف الصفراء لاتهامي بتهمة تمس الشرف، من أجل ابتزازي للإفراج عن متهم اتضح أنه قريبها، بعد أن قابلتها لإعطائها تصريحًا بزيارته في المديرية، ولكن مع المحترمين أمثالك أكون أنا الذي أجلس معك الآن.

وكان سؤالها هذا هو البداية لحديث طويل بينهما، حديث فتح فيه كل منهما للآخر جعبة الذكريات الخاصة به، بدأها منذ البداية، وحكايات تعود لأيام طفولة كل منهما، وعائلتهما وعلاقة كل منهما بوالديه ودراستهما وأصدقاء الطفولة، حديث تلقائي بينهما عرف فيه كل منهما كثيرًا مما يخص الآخر، حديث تناولا فيه كل شيء ما عدا حياتهما الخاصة وعلاقاتهما بالجنس الآخر، حديث انتهى بعلامة تعجب كبيرة جدًا من طارق:

- حقيقي أنا أشعر بالتعجب من نفسي، أنا شخص متحفظ جدًا، خصوصًا فيما يخص حياتي الشخصية، ولكن ها أنا أجد نفسي أحكي لك تفاصيل خاصة بي لم أحكيها لأي كائن قبل ذلك، أشعر كأنني أعرفك منذ سنوات، ما هذا؟ كأنك سحرت لي لأفتح لك أبواب مملكتي الخاصة.

- نفس الشيء جرى لي، لقد تحدثت معك فيما لم أحدث به مخلوقًا سوى لأشخاص محدودين في حياتي، فأنا لا أفتح خزانة ذكرياتي إلا لمن أشعر بالأمان معه، وأنا بالكاد أعرفك. من الواضح أنك ضابط مباحث يخر أمامه أعتى المجرمين باعترافاتهم.

- إذا فلتكلمي اعترافاتك، هيا احكي، أكلمي.

- هههههه، نكتفي بهذا القدر من الاعترافات، فربح ساعة أخرى من حديثنا معًا وستعرف مني بلا أي مجهود كل ما احتفظ به مخبأ في أعماق الذاكرة.

وانتهت جلستهما معًا وأوصلها حتى باب بيتها، وافترقا وكل منهما يحمل بداخله خلطة غريبة من المشاعر تجاه الآخر.

الحضن ليس ذراعين تضمانك، الحضن يمكن أن يكون كلمة حلوة تؤثر فيك،
الحضن يمكن أن يكون نظرة تحتويك وتمس روحك، أو لمسة حنونة لقلبك
من شخص قريب منك.

استيقظت ندى على رنة رسالة جاءت لها على الموبايل، استيقظت لتكتشف أنها نامت بكامل ملابسها، حاولت أن تتذكر كيف حدث ذلك، ولكن كل ما تتذكره هو مجيئها من باب الشقة رأسًا على السرير لترتاح قليلاً قبل أن تغير ملابسها وتستعد للنوم، وآخر ما تتذكره هو مكالمة من طارق يطمن على دخولها شقتها، ويؤكد لها ضرورة قفل باب الشقة من الداخل بالترباس.

فتحت ندى الرسالة بسرعة بعدما قرأت اسم طارق عليها:

«صباح الخير يا ساحرتي».

«ساحرتي؟! ما هذا الرجل؟! لم نتقابل سوى مرتين، وها هو يتعامل معي بحميمية كأنني حبيبته منذ زمن. لا لا يا ندى هذه تخيلات صوّرها لك خيالك، لا يمكن أن يكون ما أشعر به مجرد أوهام أو تخيلات، لا أنا متأكدة أنها لم تكن، فأنا لم أكن أتوهم عندما شعرت بأصابعه تلمس ظهري ونحن ندخل المطعم، لم أتوهم بيده تحتضن يدي بتلقائية ونحن نعبّر الشارع في طريقنا لسيارته، لم أتخيل شفاه ساخنة تُقبّل يدي وهي تودعني قبل أن أصدع إلى بيتي. من هذا الغريب الذي اقتحم فجأة مسافتي الخاصة التي أحتفظ بها بيني وبين الآخرين؟ من هذا الجريء الذي سمح لنفسه أن يقترب مني بهذه الحميمية؟».

وكان قرارها «يجب أن أضع حدودًا بيني وبين المقدم طارق في أي تعامل قادم بيننا، رغم أنني أشك أصلاً أن يكون هناك تعامل مستقبلي بيننا، فموضوع النفايات أصبح في يد الشيخ عقار، وأعتقد أنه كفيل به، أما هو فغالبًا في طريقه الآن لمقر عمله في مرسى مطروح كما قال لي أمس».

ولكن الوردة الموضوعية على زجاج سيارتها الأمامي والكلمات المصاحبة لها أثبتت خطأ حساباتها، فها هو يظهر مرة أخرى في يومها ليقبله -كعادته- رأسًا على عقب، ها هو يقوم بحركة غير متوقعة، فيضع لها زهرة واحدة من زهور التيوليب الجميلة على زجاج سيارتها، مصحوبة بكلمات أقل ما توصف به أنها كلمات غزل صريح:

«الحضن ليس ذراعين تضمانك، الحضن يمكن أن يكون كلمة حلوة تؤثر فيك، الحضن يمكن أن يكون نظرة تحتويك وتمس روحك، أو لمسة حنونة لقلبك من شخص قريب منك. نظرة عينيكِ حضن دافئ يا ساحرتي».

كلمات أذهلت ندى، «نظرة عينيكِ حضن دافئ؟! ما هذا الرجل؟! يجب وضع حدود في التعامل معه، هذا إن حدث تعامل آخر أصلاً».

ولم تكد تصل أمام المجلة حتى فوجئت به يقف لها أمام سيارتها، مبتسمًا وعاقدًا ذراعيه على صدره بثقته المعتادة، ثم بلا أي مقدمات اتجه للمقعد الأمامي وجلس بجانبها:

- هيا بنا، رغم أنني لا أحب سواقة السيدات، بصراحة سواقتكن صعبة جدًا.

لم تصدق ندى نفسها وهي تستجيب له كالمنومة مغناطيسيًا وانطلقت بالسيارة وهي لا تعلم إلى أين، دقائق وتنبهت لنفسها، فأوقفت السيارة والتفتت نحوه متعجبة:

- ما هذا؟ إلى أين سنذهب؟ ثم كيف تفعل معي هذا أصلاً؟!

رد عليها بكلمات جعلتها تكاد تنفجر من الغيظ:

- ماذا فعلت؟ لم أرفع مسدسي في وجهك مثلاً لتتحركي بالسيارة! أنا فقط جلست بجانبك، أنتِ التي تحركت فوراً.

كلمات قالها ضاحكًا، ولكنها لم تثر عند ندى رغبة في الضحك أو حتى الابتسام بل حوّلتها لجمرة نار.

- اهدهي، أنا فقط أداعبك. لقد استيقظت صباحًا لأجدني مفتقدك، فطلبت إجازة من العمل يومين، وكذا اتصلت بالمجلة وأبلغتهم بمرضك وطلبت لكِ يومين أيضًا إجازة، ليتك تتصلي بالمجلة وتؤكد لي هذا الكلام. واعلمي أن هذين اليومين لي وحدي؛ أريد التقرب منك أكثر.

كلامه أذهل ندى، فلقد أعطى لنفسه مساحة وصلاحيات أكبر من التي يمكن أن يسمح به عمر معرفتهما الذي لم يتعدَّ أيامًا معدودات، وبالرغم من ذهولها من جراءة طلبه لكن كعادتها منذ تعرفت عليه أطاعته دون أي مناقشة.

في هذين اليومين رأت ندى من نفسها ندى أخرى غير التي تعرفها، رأت ندى جامحة لا تعمل حسابًا لشيء ولا تخطط ليومها، مستسلمة استسلامًا كاملاً

لطارق، رأت ندى أخرى تفعل ما لا يمكن أن تقبل به لو كانت في حالتها الطبيعية.

وامتد اليومان لأيام أخرى كثيرة، خصوصًا أن ترقية طارق تلاها قرار بنقله للقاهرة، قرار جاء له على الطبطاب، ولكنه جاء لندی كالكارثة، فوجوده بشكل دائم في القاهرة كان معناه وجوده في حياتها أكثر وأكثر، وهي تعلم جيدًا أنها تجد نفسها أمامه مستسلمة له بلا أدنى مقاومة، وكما توقعت ندى وجدت نفسها تقضي أغلب وقتها بعد العمل مع طارق، أسابيع قضتها بين لحظات ساحرة معه ولحظات حيرة تقضيها تفضفض على صفحات كراسة مذكراتها كل مرة ترجع فيها من لقاء لهما معًا.

«لقد ذهب طارق بعقلي بالتأكيد، ما هذا الذي أفعله معه؟ أنا ندى التي كان يُضرب بها المثل في الرزانة والحكمة وتعقل الأمور، أترك نفسي أرقص بين أحضان غريب طوال الليل في الحفل الذي اصطحبني إليه عند سفح الأهرامات! ثم بعدها بأيام أوافق على قضاء الليل معه في مركب في النيل لنحضر معًا شروق الشمس بين الماء والهواء والوجه الحسن كما قال لي! أنا ندى التي لم يلمسني في حياتي سوى زوجي السابق ومن بعده مالك الذي لمس روعي بحنانه وحبه، أترك نفسي هكذا في أحضان طارق، يلعب على أوتار مشاعري! كيف لي أن أكون مستسلمة له هكذا استسلام تام؟ كيف لي أن أستعذب تلك الكلمات التي يلقيها على مسامعي حول أنوثتي التي تثيره؟ وكيف أنه يتمالك نفسه كل مرة يراني فيها لئلا يأخذني بين ذراعيه ويجعلني ملكه؟ لماذا أقبل أن أسمع منه كلمات الحب الساخنة التي يلقيها على مسامعي كلما تحدثنا؟ ما هذا الذي يجري لي؟ كيف باليومين اللذين اتفقنا أن

نقضيهما معًا أن يمتدا لأسابيع من لقاءات محمومة ورغبات ساخنة ومقاومة مني ألا أنزلق في بئر الرغبة، الذي يكاد يتمكن مني، لولا خوفاي أن أفعل ما يغضب الله؟».

وكل ليلة قبل أن تنام تقرر أن تقاوم طارق وألا تنساق وراءه، ولكنها كانت تضعف أمامه بمجرد ما يأخذ يديها بين يديه ويبدأ في تقبيلهما، كان يستطيع بكلمات بسيطة ولمسات خفيفة أن يجعلها تذوب بين ذراعيه، كانت قبالاته الخاطفة تشعل بها نارًا لا تنطفئ ولكنها أبدًا لم تنزلق معه لما يغضب الله، برغم أنها كثيرًا ما تمت أن تترك له نفسها ليفعل بها ما يشاء، ليخرج أنوثتها المدفونة ويجعلها تشعر بما لم تشعر به من قبل، كما قال لها في إحدى المرات، فبينها وبين نفسها كانت تعرف أنها منجذبة إليه انجذابًا شديدًا، أينعم لم يكن انبهارًا كالذي شعرت به في بداية علاقتها بزوجها السابق، أو تلاقي أرواح وحب من أول نظرة كالذي شعرت به مع مالك، ولكنه كان انجذابًا جسديًا مجردًا يزلزل كيائها كل مرة تقابله فيها.

أسابيع قضتها ندى بين لقاءات يومية بعدما تنهي عملها في المجلة، ومكالمات تليفونية طوال الليل بعدما يوصلها لمنزلها بعد لقاءهما، مكالمات يبثها فيها غرامه ورغباته وشوقه لأن تكون له، أسابيع أهملت فيها حياتها وعملها وأسرتها، فلم يكن في بالها وتفكيرها سوى طارق وكلماته الساخنة التي ترن في أذنيها كلما كان بعيدًا عنها، أسابيع قضتها ندى تؤنب نفسها وتستغفر ربها وتعد نفسها أن تبتعد عن طارق، ولكنها كانت تجد نفسها مشدودة له كالمجذوبة كل يوم أكثر من اليوم السابق له.

ولكنها أبدًا لم تستطع أن تنكر أن ما جذبها إليه هو هذا الإقدام وتلك الجرأة التي يتعامل بهما معها، إلى جانب تلقائية تصرفاته ولحظات جنونه الطفولية، التي بالرغم من غرابتها كانت تُدخِل البهجة على قلبها، حتى عندما كان يأخذ زمام الأمور بيده فيقرر وينفذ، كانت تستسلم له بالكامل، كما لم تعتقد يومًا أنها يمكن أن تقبل مثل هذا السلوك من رجل مرة أخرى، ولكنها معه كانت تستعذب هذا الشعور، الشعور أن تكون في كنف رجل له سيطرة عليها، وكل مرة تقرر أن تنهي تلك العلاقة قبل أن تتطور تجد نفسها تستسلم له وتترك له نفسها أكثر وأكثر، ففي النهاية هي فعلاً في أمس الحاجة إليه، تحتاج لجنونه في حياتها ليُخرجها من الروتين اليومي والرتابة المملة، تحتاج لهذا الشعور الذي تشعر به كلما كانت معه، الشعور بأنها مجرد أنثى.. لا أم، لا حبيبة، لا صحفية، لا صديقة، لا ابنة، فقط أنثى ذات احتياجات لم تتخيل في يوم أنها ستشتاق للشعور بها مرة أخرى، فمع انتهاء رحلة السفينة وانقطاع أخبار مالك نهائياً وهي كمن نذرت نفسها لابنتها وأسررتها وعملها، فلم تعد تفكر ككل امرأة في ظروفها وسنها أن تجد رجلاً تكمل معه حياتها فيعوضها عن سنوات عمرها التي ضاعت في زواج بارد بلا حياة، فالارتباط والزواج مرة أخرى لم يكونا من ضمن أولوياتها، فبينها وبين نفسها قررت أن تكتفي بتجربتي حياتها، كما كانت تقول لأمها، التي كثيراً ما حاولت أن تقنعها أن قصتها مع زوجها السابق لن تكون المعيار الذي تستخدمه في قياس علاقتها بالطرف الآخر، أما بخصوص مالك فكانت أمها تصر دوماً أن تُذكِّرها أنها لا تعتبر تجربة أصلاً:

- لكن ما تتحدثين عنه يا ندى مر عليه سنوات كثيرة، ولن تعيشي على ذكرى زواج فاشل وقصة حب لم تكتمل، أنت امرأة ككل النساء تحتاج لرجل يكون

ظهرًا وسندًا لها، رجل تلجأ إليه في لحظات ضعفها، فتلقي بهومها بين ذراعيه، أنتِ في أمس الحاجة لرجل يعوّضك كل السنوات الماضية.

مناقشة تكررت عشرات المرات بينها وبين أمها كلما تقدم عريس لندی عن طريق المعارف، أو كلما حكت لأمها عن محاولات أيّ من زملائها في العمل للتقرب منها، مناقشة تنتهي بنفس النهاية تقريبًا، رفض ندى التام، ولكن مع طارق كان الأمر مختلفًا، لقد اقتحم حياتها فجأة، لم يترك لها مساحة للتفكير أو خيارًا للرفض، لقد اقتحم حياتها في أيام قليلة، فأيقظ مارد أنوثتها الخامل واستطاع أن يفك شفرته، هو الوحيد بلمساته وكلماته استطاع أن يشعل نيران الرغبة بداخلها، عزّفها على مشاعر وأحاسيس لم تكن تعلم أصلًا بوجودها داخلها، وأيقظ الأنثى التي بداخلها والتي نسيت ندى وجودها أصلًا، أو بمعنى أصح تناست وجودها، أنثى كالمارد الذي خرج من المصباح السحري ولن يستطيع بشر أن يُدخله مرة ثانية بسهولة، فلقد خرج وطفا على سطح حياتها وذاقت حلاوته.

لقد جعلها طارق تنتظر لحظة عبور الطريق ليأخذ يديها في يديه، تنتظر وصولها تحت منزلها لتشعر بحرارة شفتيه على يديها، تنتظر لقاءاتهما المتكررة في المركب في النيل ليأخذها بين ذراعيه ويمطرها قبلات.

وجدت ندى نفسها لأسابيع تدور في نفس الدائرة المُفرّغة.. لقاءات مع طارق يعقبها تأنيب شديد للضمير ثم قرار بإنهاء العلاقة، ثم تليفون من طارق يأمرها بحنان أن تنزل لتقابله، فيعقبها لقاء بينهما.. وهكذا نفس الدائرة التي أُسِرَت بداخلها.

كثيرًا ما كانت تتعجب من نفسها وتستغرب كيف استطاع طارق بوجوده في حياتها وشغله معظم ساعات يومها المتبقي بعد انتهاء عملها في المجلة، وبعد انتهائه من مهامه وتحقيقاته، أن ينسيها شعورها بالشوق لابنتها، التي منذ مولدها لم تبتعد عنها كل هذه المدة.

في كثير من الأحيان نجد أنفسنا في طريق طويل لا نرى نهايته، وكلما قررنا أن نتوقف ونعود من حيث جئنا، نجد صوتًا داخليًا يحثنا على إكمال الطريق.. عسانا نجد في نهايته غايتنا.

كانت الفرحة العارمة هي أول ردة فعل لندى، عندما جاءها هذا الاتصال الذي طال انتظاره من سميحة، لتبلغها بموعد وصولها، ولكنها فرحة لم تكتمل، فكيف ستفسر لها وجود طارق؟ ماذا ستقول لها عنه؟ كيف سثُصِّفه؟ صديق؟ زميل؟ حبيب؟ وقعت في حيرة شديدة، فماذا ستفعل مع سميحة التي طمأننتها من قبل أنها لا تنوي الارتباط مرة أخرى، ولكن مع هذه الحيرة بخصوص سميحة جاءت حيرة من نوع آخر: ما آخر حكايتها مع طارق؟ إلى أين تأخذها؟

تساؤلات كثيرة كانت تدور في رأسها وهي تفكر في سميحة، تساؤلات كانت تحتاج لإجابات من طارق قبل وصول ابنتها، فهي لا تعرف لها إجابة، بالإضافة إلى أنها أصلاً تشعر بالحرج بمجرد التفكير في أنها مضطرة أن تطرحها عليه، ولكنها في نهاية الأمر تحتاج أن تعرف إلى أين تأخذها هذه العلاقة، فهي لا تستطيع الاستمرار هكذا في علاقة لا مسمى لها، علاقة تأخذها إلى طريق تخاف أن تنزلق فيه، فهي تعلم جيداً أنها أمام طارق تكون مسلوبة الإرادة ومستسلمة له استسلاماً تاماً، أينعم هي تستعذب هذا الشعور الذي تشعر به معه، الشعور بأنها ما زالت أنثى ومرغوبة، ولكنها في نفس الوقت كانت تخاف ألا تصمد مقاومتها أمامه أكثر من ذلك، مقاومة تضعف أكثر وأكثر كلما تقابلا، وفي نهاية الأمر هي لا تريد أن تفعل ما يُغضب الله، وفي نفس الوقت طارق كان صريحاً معها عندما قال لها إن تجربتي زواجه السابقتين جعلتاه يكره الزواج، فهو ليس من نوعية الرجال الذين يتحمّلون

«خنقة» الزواج كما كان يسميها، «إلى أين أنت ذاهب؟ متى ستأتي؟ لم تأخرت؟ من تلك المرأة التي سلمت عليك بترحاب؟ تعالَ معي نزور أهلي.. مصروف البيت انتهى.. أود الخروج والترويح عن نفس...».

في بداية علاقتها شعرت ندى بالراحة بتصريحه هذا، فهي لم يكن عندها نية الزواج مرة أخرى، كما وعدت سميحة، وفي نفس الوقت كانت صريحة مع نفسها، فعلاقتها بطارق كانت علاقة مختلفة، فهي لم تشعر نحوه بمشاعر حب قوية، ولكنها ارتبطت به نفسيًا، وبدأ يأخذ حيزًا كبيرًا من تفكيرها، لم يستطع طارق بوجوده في حياتها أن ينسيها مالك والشعور الذي شعرت به عندما تلاقت أعينهما لأول مرة، وذكراه التي كانت تخرج من آن لآخر من خانة الذكريات، فتداعب خيالها بذكرى أيامها الجميلة على السفينة، لم يستطع طارق بكل حصاره لندی وارتباطها غير المفهوم به أن يجعلها تتخذ قرارًا طالما أجمَلته، بأن تخلع سلسلة مالك من رقبتها.

ولكن بمرور الأسابيع وجدت علاقتها به تتطور سريعًا، ومع كل لقاء بينهما كانت تشعر أن مقاومتها له تضعف أكثر من المرة التي قبلها، فقد كانت معه كالطفلة الصغيرة أمام محل حلوى، مبهورة، مسلوبة الإرادة، ولكنها في نفس الوقت مستمتعة بهذا الكم من المشاعر المختلفة التي تتعرف عليها لأول مرة، لكن اقتراب موعد وصول سميحة أخرجها من الحالة التي تعيشها مع طارق وأعادها لأرض الواقع، فأيام وتصل ابنتها، وهي تحتاج قبل وصولها أن تعرف -كما يقال- رأسها من رجلها، تحتاج أن تعرف ما هي نهاية طريقها مع طارق، طريق هي نفسها لم تكن تعرف إلى أين تريد أن يأخذها، لطريق زواج؟ لا لم يكن ما بينهما يمثل دافعًا كافيًا لها لتفكر في تنويع مثل هذه العلاقة بزواج

بكل التزاماته، فعلاقة جسدية لم تكن لتصبح أساس زواج سليم. أتكمل هكذا معه في علاقة لا مسمى لها، تتأرجح بها نحو حافة شديدة الانحدار، أم تتركه؟ وكان هذا أيضًا خيارًا صعبًا نظرًا لارتباطها غير المفهوم به، الذي كثيرًا ما أثار سخطها من نفسها، فهي لم تكن بامرأة شهوانية تُحرّكها غرائزها، ولكن طارق عزّفها على جانب آخر من العلاقة بين الرجل والمرأة، جانب يجمع فيه الجسد والقلب والشهوة والرغبة، جانب غرائزي بحت.

كانت ندى تحتاج حلاً لهذه المعضلة قبل وصول سميحة من السفر، فهي كانت تعلم أن ابنتها لن تقبل بسهولة وجود رجل آخر غير والدها في حياة أمها، خصوصًا أن ندى أكدت لها في هذا اليوم البعيد عندما تحدثنا معًا بخصوص علاقتها بإسماعيل ورفضها الرجوع إليه أنها لا تنوي الارتبط بأي رجل آخر، وأنها نذرت نفسها لسميحة وأسرتها وعملها.

حاولت ندى في الأيام التي تسبق وصول سميحة للقاهرة أن تفتح طارق في موضوعهما، ليفكرا معًا، ولكنها لم تعلم كيف، فهي نفسها لم تكن تعلم ماذا تريد، حاولت أن تفكر معه بصوت عالٍ، حاولت أن تعرف منه بطريقة أو بأخرى ماذا ينوي، ولكنه في كل مرة كان ينسحب من المناقشة بمنتهى الذكاء، وكل مرة كان ينسحب فيها من المناقشة كانت ندى تشعر بارتياح شديد، فهي نفسها لم يكن عندها حل لهذه المعضلة.

حتى كان اليوم السابق لوصول سميحة، كان يومًا فاصلاً في علاقتهما، لقد طلب منها أن تأخذ إجازة من عملها كما فعل هو أيضًا، وقال لها إنه سيمر ليصطحبها في الثانية عشر ظهرًا، حاولت أن تعرف منه أي تفاصيل عن يوم غد، ولكنه أصرّ أنها مفاجأة.

نزلت ندى اشترت فستانًا خاصًا بهذا اليوم المفاجأة، مختلفًا عن نوقها وأسلوبها في الملابس، ولكن شعرت أن هذا اليوم مختلف، ولذلك تحتاج هي أيضًا أن تكون مختلفة. وفي الموعد المحدد كانت تركب بجانبه السيارة دون أن تعرف وجهتهما، كل ما شعرت به أن الدماء تضح في وجهها خجلًا من نظراته لها عندما رآها في هذا الفستان الأزرق عاري الأكتاف، والحرارة تدب في جسدها وهي تشعر بشفتيه الساخنتين تكادا تلتهما يديها وهو يقبلهما، دقائق ووجدت نفسها في الطريق للإسكندرية، حاولت الاعتراض:

- الإسكندرية اليوم؟ كيف وسميحة ستصل غدًا ويجب أن أكون ف...

ولكنه كعادته لم يترك لها فرصة لإبداء الرأي:

- أنا قلت لك إنك اليوم ملكي، اتركي لي نفسك ولن تندمي، وأعدك أن تكوني غدًا في القاهرة قبل موعد وصول سميحة بساعات.

وأكمل طريقه، وبعد فترة فوجئت به يوقف السيارة على جانب الطريق، لم تفهم لماذا إلا عندما جذبها في أحضانه فجأة، ووجدت شفتيها تذوبان بين شفتيه في قبلة سريعة خاطفة، ثم أكمل طريقه كأن شيئًا لم يكن.

ساعات ووجدت نفسها تخطو باستسلام واستكانة غريبين بجانب طارق، يداها في يديه نحو المصعد، في هذا الفندق المطل على بحر الإسكندرية، دقائق أخرى ووجدت نفسها تقف في منتصف جناح فاخر مليء بالزهور والشموع، دقائق أخرى وجدت نفسها في أحضانه، يمطرها بقبلاته ولمساته التي لم تترك مكانًا في جسدها لم تمر عليه، دقائق خارج نطاق الزمن، شعرت فيها أنها تطير بين السحاب، مع كل قبلة من طارق ومع كل لمسة كانت

مقاومتها تضعف أكثر، حتى وجدته يتجه بها نحو سرير غرفة النوم، حينها فقط أفاقت مما هي فيه.

- ما هذا يا طارق؟ ما الذي تفعله؟ ألم نتفق أن لعلاقتنا حدودًا؟!

- أتذكر اتفاننا، ولكني لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسي، فكل مرة أراك فيها أتأكد أن مكانك هو أحضاني، وأنا أعلم أنك تريدني كما أريدك وربما أكثر، فأنا أشعر بك تنتفضين بين ذراعيّ كلما اقتربت منك، أشعر بك كما تشعرين بي تمامًا، حرام أن نترك أنفسنا نتعذب من لوعة الشوق والرغبة ونحن في أيدينا أن نطفئها.

كلمات أشعلت فيها نارًا كانت تعلم أنها لن تُطفأ سوى بأحضان طارق، الذي بدأ في التقدم نحوها خالغًا عنها الشال الذي أصر أن تخبئ به كتفها قبل أن تنزل من السيارة. في هذه اللحظة اشتبكت أطراف الشال في سلسلة مالك التي في رقبتها، اعتبرت ذلك إشارة لتمالك نفسها وتوقف ما يحدث، وبالفعل سحبت ندى نفسها من بين ذراعيّ طارق وجرت إلى الحمام، حبست نفسها فيه محاولة أن تستجمع أعصابها لتستطيع أن تخرج لتواجه طارق، الذي كان يقف لها على باب الحمام يهمس بكلمات، حاولت أن تصم أذنيها عنها، فهي لن تضعف ولن تترك نفسها ترتكب في لحظة ضعف ما قد تندم عليه العمر كله.

وبالفعل.. الفترة التي قضتها ندى في الحمام كانت كفيلة أن تعطيها القوة لتخرج تواجه طارق، الذي فقد الأمل في خروجها من الحمام، فذهب يدخن سيجارة في البلكونة.

وقفت بجانبه تتأمل دخان السجائر الذي يخرج من فمه، وهي تشعر بدخان
غضب عارم يخرج مع دخان السجائر:

- آسفة يا طارق، ولكني كنت واضحة معك منذ البداية، لن أفعل ما يُغضب
ربي، لن أضعف وأخسر نفسي من أجل لحظات متعة زائلة، أتصدقني إذا قلت
لك إنني أريدك كما تريدني وربما أكثر؟ ولكن علاقة كهذه ستأخذنا لطريق أنا
متأكدة أنني سأندم عليه بعد ذلك.

دقائق وقفت بجانبه تنتظر أي ردة فعل منه، دقائق مرت كالساعات، وأخيراً
نظر إليها وهو يضع في يديها ورقة أخرجها من جيب بنطاله:

- ما هذه الورقة يا طارق؟

- اقرأها ثم نتكلم.

فتحت ندى الورقة لتفاجأ بعقد زواج عرفي يحمل اسميهما:

- إلى هذه الدرجة أنا رخيصة في نظرك؟! من الواضح أنني أخطأت عندما
تركت نفسي على هواها معك.

- رخيصة؟ أخطأت؟ ما هذه الدراما يا ندى؟! نحن اثنان بالغان وداخلنا
مشاعر قوية تجاه بعضنا بعض، إلى متى سنبقى كمراهقين يقضيان وقتها
كلامًا في التليفون، وحين نكون معًا بالكاد تتركيني أحضنك، رغم أنك
تعرفين أننا نموت شوقًا، ونتراجع فقط خوفًا من الله، ولولا ذلك لكنت
امتلكتك منذ شهور. ما رأيك لو نتزوج سرًا بدلاً من فكرة الزواج العرفي التي
أغضبتك.

- سرّاً؟! -

- نعم.. نكتب الكتاب عند محامي، أظن هذا هو الحل الوحيد لئلا نُغضب الله و في نفس الوقت نتفادى الارتباط الرسمي و ما يأتي معه من مسؤوليات و مشاكل.

- حتى لو كان هذا هو الحل، لكنه لا يعطيك الحق أن تقرر وتنفذ دون أن ترجع لي، أنت أحضرتني من القاهرة إلى الإسكندرية وحجزت غرفة و جهزت عقد زواج عرفي، أعتقد أن موضوعاً مثل هذا كان يحتاج قبلها لكلام كثير بيننا، عموماً بقدر ما كنت أتمنى أن أكون لك، الآن صوت العقل داخلي يرفض التفكير في أي شيء، بعد إذنك أريد الرجوع إلى القاهرة الآن.

ركبت بجانبه السيارة وأدارت وجهها للناحية الأخرى، حاول أن يتجاذب معها أطراف الحديث، ولكنها لم تكن تستجيب معه في أي حديث، فيكفيها الحديث الدائر في عقلها، مرت عليها الساعات التي قضتها بجانبه في السيارة من الإسكندرية للقاهرة كالسنين، كأن الوقت تآمر عليها، يأبى أن يتحرك تاركاً إياها في غضبها و حيرتها، تؤنب نفسها طوال الطريق:

«أنتِ التي رخصتِ نفسك يا ندى، أنتِ التي تركتِ نفسك في هذا الطريق الشائك وأنتِ تعلمين جيداً أن مثل هذا الطريق هذه هي نهايته، هل كنتِ تتوقعين نهاية أخرى لمثل هذه القصة؟ أنتما الاثنان سببان فيما وصلتما إليه اليوم، أنتِ باستسلامك له وتركك لنفسك على هواها كالفرس البري بلا أي لجام، وهو بذكائه واستغلاله نقطة ضعفك التي استشعرها بعد أول مرة لمسك فيها ولم تعترضني».

وما أن وصلت ندى لمنزلها حتى أسرع بالنزول من السيارة، قاطعة عليه أي محاولة لتبادل الحديث، حتى السلام لم تستطع أن ترده عليه.

أكبر خطأ أن نعطي ونستمر في العطاء لمن حولنا، لأننا نعودهم أن يأخذوا ويأخذوا بلا مقابل، ومع الوقت لا يشعرون حتى بالعرفان لما نفعله لهم، ولكن الطامة الكبرى هي عندما نحتاج إليهم ليساعدونا، نُصَدِّم صدمة كبيرة، لأننا لا نجد عندهم العطاء الذي نتوقعه.

أعطوا وساعدوا وضحوا من أجل الآخرين، ولكن لا تنسوا أنفسكم خلال المسيرة، لا تنسوا أن تطالبوا بحقوقكم النفسية من الآخرين، لا تقبلوا أن تُؤخذوا كأمر مُسلَّم به.

جاء وصول سميحة ليزيد الطينة بلة، كأن لم يكن يكفي ندى ما عانتة نفسيًا في الفترة السابقة، لتكمل ابنتها ما بدأه طارق من حيرة ووجع قلب، فمع وصولها بدأت ندى معاناة جديدة، فلم تك ندى تشبع من سميحة بعد غياب شهرين ونصف عندما ألفت الصغيرة بمفاجأة مدوية على أسمع أمها:

- جاءت لي فرصة رائعة لأكمل تعليمي في كندا يا أمي.

جملة نزلت على ندى كالقنبلة «تكمل تعليمها في كندا؟!».»

نظرت ندى إلى الصغيرة نظرة تحمل الكثير من الأسئلة، وجاءت الإجابة كالصاعقة:

- أنتِ تعلمين يا أمي أنني متفوقة في مجال الموسيقى منذ صغري، وعندما سافرنا كندا اشترك لي عمي في كورس مكثف في واحد من أرقى معاهد الموسيقى في تورنتو، وفي حفلة المعهد التي يقيمها عند انتهاء الكورس لفتت موهبتي نظر واحد من أشهر العازفين هناك، خصوصًا أن العود الذي أجيد استخدامه هو آلة موسيقية نادرة عندهم، وعرض أن يتبني موسيقيًا حتى أكمل تعليمي الثانوي، ولن يتركني حتى يصل بي لمدرسة جوليارد في نيويورك.

- ما هذا؟! أبهذه السهولة تريدان أن تنقلي حياتك لكندا؟! ماذا عن مدرستك هنا وكلية الهندسة التي كانت أمل حياتك؟! ماذا عن حياتك هنا؟!

- لا مشكلة يا أمي، سننتقل جميعًا لنعيش في كندا، أبي أخذ لنا شقة جميلة هناك وقريبة من المدرسة التي سأدخلها.

نزلت هذه الكلمات كالصاعقة فوق دماغ ندى:

- شقة لنا! مدرسة! معهد! كندا! هذه مزحة أليس كذلك يا سميحة؟

- يا أمي أنت تعرفين أنني أحب الموسيقى طوال عمري، أنت التي أخذتني لدار الأوبرا وشجعتني لأخذ كورسات موسيقى هناك، حتى أول آلة عود أنت التي أحضرتها لي لأعزف عليها، أنت التي أقنعت أبي عندما رفض فكرة دخولي مجال الموسيقى، أنت التي كنت تقولين لي إنني سأكون ذات شأن في مجال الموسيقى، والآن عندما تأتي لي فرصة كهذه لا أشعر بحماسك أو فرحتك بها وبي!

انتظرت سميحة أي ردة فعل من والدتها التي التزمت الصمت، فماذا ستقول لها؟ الكلام ليس مع ابنتها، ولكن مع إسماعيل طليقها، الذي يبدو أنه كان مخططًا لهذا الأمر منذ فترة، وقد صار جليًا لندى أن سفره بسميحة لكندا كان وراءه غرض آخر.

«غريب جدًا إسماعيل هذا، فما زال عنده أمل أن أعود لعصمته، وما زال يفعل المستحيل لتحقيق هذا، حتى لو قلب حياة كل من يعرفهم رأسًا على عقب».

أيام قضتها ندى تتحاشى أي نقاش قد يؤدي لمواجهة بخصوص هذا الموضوع، فهذا ليس قرارًا سهلاً، فبالرغم من غرض إسماعيل المخفي وراء مثل هذا العرض، لكنها لم تستطع أن تنكر أنها فرصة لابنتها، فرصة غالبًا لن

يُعرض على سميحة مثلها هنا في مصر، ولكن في نفس الوقت هذا معناه أنها ستضحى بحياتها ومستقبلها وعملها، والأهم عائلتها، وتترك كل هذا وراء ظهرها وتهاجر لحياة جديدة في مدينة جديدة، بعيدًا عن حياتها التي عاشتها هنا.

أيام من الحيرة والتخبط والقلق مرت عليها كسنوات، لم تستطع أن تطلب مشورة أمها، فكعادتها ستُبدِّي مصلحة ندى وسميحة على نفسها، وستضحى وتعيش ما تبقى لها من عمرها بعيدًا عن ابنتها الوحيدة وحفيدتها.

وفي وسط كل هذا تلقت رسالة غريبة من طارق، رسالة وضعتها في حيرة أكبر وقلبت لها موازين تفكيرها كله:

«ندى.. أنا لم أكذب عليك، منذ بدايات لقائنا وأنا كنت صريحًا معك، قلت لك إنني مشدود نحوك بطريقة غريبة، كأننا مربوطان بخيط خفي يجذبنا تجاه بعضنا بعض كلما ابتعدنا، كيمياء غريبة بيننا لا أجد لها تفسيرًا، وكنت صريحًا معك أكثر وقلت لك إنني أكره الزواج والتزاماته، ولكن معك الأمر مختلف، وخصوصًا بعد فترة فراقنا بسبب ما حدث في الإسكندرية، اكتشفت أنك أصبحت جزءًا من دنياي وحياتي لا أستطيع الاستغناء عنه.

ندى.. حاليًا كل ما أريده في الحياة أن تكوني زوجتي، تزوجيني، ليس فقط لأن كل ما أريده أن أجذك في أحضاني، تزوجيني ليس فقط لأنني أشتهيك وأرغب أن أجعلك تشعرين بما لم شعري به من قبل، ولا لأنني أريد أن أجعلك ملكي ما تبقى لنا من عمر، فأنا أريدك وأريد القرب منك كما لم أتمنَّه مع أي امرأة من قبل، أريد أن أستيقظ صباحًا لتكوني أنت من يشاركني فراشي،

أريد أن تكوني أنتِ من يستقبلني مساءً عند عودتي من عملي لتحتويني بين أحضانك وتمسحي عني تعب اليوم، أريد أن أعطني بك، أريد أن أكون أول من تفكرين فيه عندما تقابلك مشكلة، لأنك تعلمين أنني سأحلمها لك، لا أريد علاقة جسدية فقط، ولكن أريد لروحينا وجسدينا أن يتحدا فنكون واحدًا، أمنيتي يا ندى أن تحملي أبنائي في داخلك وتهديني ما يربط بيننا برباط أبدي.. دعيني أكون لك الأب الذي فقدته والابن الذي تمنيتَه، دعيني أكون صديقك وحبيبك وعشيقك، دعيني أكون سندك في الدنيا.. أرجوك اقرئي رسالتي هذه بقلبك لا بعينيك، لأنني أنا نفسي لا أعلم كيف خرجت مني هذه الكلمات، ولكن ما أعرفه جيدًا أنني أحبك جدًّا، حب لم أشعر بمثله أبدًا، حب ناضج مسؤول وليس مجرد علاقة عاطفية».

رسالة نزلت عليها كالصاعقة وكلمات مست كل خلجة من خلجاتها.

«أتزوجه؟! لقد تم ما أردتِ يا ندى وستكون علاقتكما في النور، ولن تغضبي ربك بما بينكما، ولكنك تعلمين جيدًا أنك لا تريدي الزواج منه، تعلمين جيدًا أن ما تشعرين به نحوه هو مجرد انجذاب جسدي، فأنت لم تحبّه، كل ما شعرتِ به معه هو انبهار بما عرّفك عليه لأول مرة في حياتك، نعم أعرف، بل متأكدة أنه انجذاب جسدي فقط، ولكني لا أستطيع أن أنكر أن كثيرًا من العلاقات والزيجات بدأت بانجذاب جسدي ثم تحولت مع الوقت إلى حب شديد. يا الله! ما هذه الحيرة؟! أنتِ أيضًا لا تستطعي أن تنكري يا ندى أن طارق استطاع أن يخرق قلبك وعقلك، استطاع بلمساته أن يمس روحك، استطاع أن يشغل بالك طوال الوقت، يجعلك تكرهين المساء الذي يفرقكما لأنك مهما أنكرتِ فأنت تعلمين أنك تتمنين البقاء في حضنه، تتحدثان

وتضحكان معًا، معه تشعرين بأمان وطمأنينة لم شعري بمثلها إلا مع والدك. جسور من الحميمية بنيت بينكما، فأصبحتما تشعران بعضكما ببعض بدون كلمات، ولكن هل كل ذلك يكفي ليكون أساسًا لزواج سعيد؟».

كأن القدر لم يكتفِ بحيرتها هذه ليهدبها موضوعًا آخر لم تكن تحتاجه في هذا التوقيت، فاتصال من سكرتيرة الأستاذ توفيق تطلب منها أن تقطع إجازتها وتأتي غدًا صباحًا للمجلة لاجتماع مع مجلس الإدارة، اتصال أطار النوم من عينيها، لم يكن من المعتاد طلب حضورها لاجتماعات مجلس الإدارة.

وثاني يوم ظهرًا كانت تجلس في قاعة الاجتماعات وتستمع لمحامي المجموعة وهو يبلغها أن مشكلة المجلة مع شركة «الأمانة» على وشك الانتهاء، ولكن للشركة شرطًا، وهو أن تقوم ندى بنفسها بحملة دعائية في المجلة لصالح شركة «الأمانة» ومشروعاتها.

خرجت ندى من الاجتماع بعدما طلبت وقتًا لتفكر، واتجهت على الفور لبيت العائلة، حيث ارتمت بين أحضان أمها وبكت كما لم تبك منذ زمن، وحكت لها كل ما تواجهه في هذه الفترة من قرارات تحتاج لاتخاذها، وكلها قرارات مصيرية وصعبة.

استمعت لها أمها بمنتهى التركيز، ولكنها أبت أن تقول لها رأيها على الفور، وطلبت من ندى أن تعطي لنفسها وقتًا لتفكر جيدًا في كل موضوع على حدة:

- مثل هذه القرارات المصيرية لا يُبْتُّ فيها بهذه الطريقة يا ندى، ففكري وحللي واعرضي على نفسك كل جوانب الموضوع، واتبعي حدسك وما يمليه عليه

قلبك، ففي حالات كثيرة يكون القلب بصيرًا بكثير من الأمور الخافية عن العقل، حينها فقط ستصلين لقرار سليم. سافري يا ابنتي لمكان بعيد وحدك لتختلي بنفسك وتفكري دون أي ضغوط، حتى تصلي لقرارات سليمة، ولا تقلقي، سأتي لأمكث مع سميحة فترة سفرك.

هناك بعض القرارات التي نعلم علم اليقين أنه قد آن الأوان لاتخاذها، ولكننا نحاول تأجيلها لسبب أو لآخر.. وبعد أن نكون قاب قوسين أو أدنى من اتخاذها نجد أنفسنا تراجعنا في آخر لحظة، ثم بعد فترة ودون أي سبب أيضًا نجد أنفسنا قد فكرنا وقررنا ونفذنا دون تردد هذا القرار الذي قد تأخر اتخاذ.

هذه هي اللحظة الفاصلة في حياتنا التي يكون طعم الحياة بعدها مختلفًا، طعم مليء بالإصرار والتحدي والقوة الداخلية.

«أسوء شيء في الدنيا هو وصولنا لمرحلة الاعتياد واللامبالاة، مرحلة توصلنا لأن ننتظر الليل لننام وينتهي اليوم، ويكون القيام من السرير عملاً شاقاً، وتكون أهم رغباتك أن تبقى في السرير لليوم التالي.

عندما تصيبك اللامبالاة تجاه أمور كانت تهتمك. عندما تضحك لئلا يتساءل أحد عن سبب حزنك. عندما تتوقف عن عتاب أحد إذا أغضبك، وتقول لنفسك إنها أمور عادية. عندما تكون أبسط الأمور التي اعتدت فعلها بسهولة عملاً شاقاً. عندما يصبح كل شيء عادياً.. يبقى أمر ما ليس عادياً».

كلمات قرأتها ندى على فيسبوك، كلمات كأنها موجهة لها، كلمات كأنها ملح وضع على جراحها، فهي بالفعل تمر بهذه الفترة، فالضغوط كثيرة حولها، علاقتها بابنتها التي تسوء يوماً بعد يوم منذ رجوعها من كندا، وعدم ترحيبها بموضوع استكمال دراستها هناك، وخصوصاً لأنها تشعر أن هذا الموضوع وراءه لعبة من إسماعيل، ومن ناحية أخرى قصتها مع طارق، الذي اقتحم حياتها فجأة وقلبها رأساً على عقب، ثم ها هو يطلب منها الزواج كأنه لم يكفها ما فعله بها حتى الآن.

وكان قرارها.. هي تحتاج أن تعمل بنصيحة أمها، تحتاج أن تختلي بنفسها بضعة أيام، تحتاج أن تتعرف من جديد على ندى التي ضاعت منها في زحام الحياة، ندى الممزقة بين أمومتها وعملها وقلبها الذي أعطته لغريب منذ سنوات مضت ولم تستطع استرجاعه حتى اليوم، وطعم أنوثتها الذي ذاقت

حلاوته على يد طارق ولا تستطيع أن تسلاه. وكان قرار سفرها وحدها لأي مكان هو القرار الوحيد السليم الذي اتخذته منذ سنوات، أينعم لم يكن هذا قرارًا سهلاً، فسفرها في هذا التوقيت يمكن أن يُفسَّر تفسيرات كثيرة من المحيطين بها، فسميحة ستعتبرها أنانية منها أن تتركها وتساfer وحدها، وطارق سيعتبره هروبًا منه، والمجلة ستعتبره تهزُّبًا من القيام بالحملة الصحفية، غالبًا الوحيدة التي ستتفهم حاجتها للاختلاء بنفسها في مكان بعيد عن كل ضغط هي أمها.

واتجهت إلى شرم الشيخ وحدها دون أن تبلغ أحدًا بوجهتها سوى والدتها، حتى هاتفها أغلقته، فهذه الرحلة بالنسبة إليها بمثابة جلسة علاج نفسي مطولة تحتاج فيها للاختلاء بنفسها.

في البداية كانت كل أفكارها مشوشة، كلما جلست مع نفسها تجد كل الأفكار متكدسة في رأسها والقرارات التي تحتاج أن تتخذ فيها رأيًا تحاصرها من جميع النواحي، ساعات كثيرة قضتها ندى تجلس أمام البحر، لا تجد ما يساعدها على ترتيب أفكارها، جلسات طويلة قضتها تحاول أن تنفصل عن كل شيء وأي شيء، ولكن للأسف لا شيء يدعها وشأنها، فعقلها كان يدور بقوة ألف حصان، لا يعلم من أين يبدأ، حاولت كثيرًا أن ترتب أفكارها وألوياتها، ولكن بلا فائدة، أتبدأ بطارق وعرضه الزواج، أم بالحملة الصحفية التي يجب أن تقوم بها قسرًا، أم تبدأ بسميحة ومستقبلها الذي -للأسف- أصبح في كفة ومستقبلها هي شخصيًا في الكفة أخرى؟

وطغى موضوع سميحة على تفكيرها كله، ووجدت نفسها في النهاية تلجأ لكراسة مذكراتها تفكر وتحلل فيها:

«ما بك يا ندى؟ ما هذه الحيرة التي تضعين نفسك فيها؟ طبعًا الأولوية لابنتك، هذا هو دورك في الحياة. لا، دوري في الحياة أن أعتني بها وأضعها على رأس أولوياتي، ولكن ليس على حساب نفسي، ما معنى على حساب نفسك؟ أنت أم، يجب أن تفكري في ابنتك ومصحتها. هذا صحيح ولكني لا أستطيع أن أفعل ذلك دونما التفكير في نفسي، ففي النهاية قرارها هذا سيؤثر عليّ بشكل مباشر، لأنني أمام خيارين، إما أن أسافر معها وألغي حياتي هنا بكل ما فيها، وإما أتركها تسافر وحدها مع أبيها، وفي هذه الحالة ستبتلعها الغربية كما ابتلعت كثيرين، وسأحرم من وجودها بجانبني. كوني منطقية يا ندى، في النهاية سيكون لها حياتها، ستكبر وتعمل وتحب وتتزوج وتستقل، ستترك عشك لتصنع عشًا خاصًا بها، فأبناؤنا بالفطرة يكون لهم الأولوية، ولكن في نفس الوقت ليس على حساب حياتنا، يجب أن تسير دنيانا ودنياهم في خطين متوازيين، وفي النهاية أهم شيء ألا يطفئ خط على الخط الآخر».

ساعات كثيرة قضتها ندى تفكر في موضوع ابنتها، وعندما لم تصل لحل تجد طارق وقصتها معه تقفز إلى بؤرة تفكيرها، كأن عقلها يذكرها أن هناك مواضيع أخرى تحتاج إلى تفكير وقرارات، كانت تحتاج أن تفكر في حياتها التي تغيرت منذ اقتحمها طارق، وكانت تعلم جيدًا أنه ليس بالرجل المناسب الذي تبدأ معه حياة جديدة، علاقة بلا مسؤوليات ولا ارتباطات، حتى لو قال لها عكس ذلك وطلبها للزواج، فهي تعلم جيدًا أن أمثال طارق يعرفون كيف ومتى يضربون ضربتهم، فهم عندهم موهبة فطرية لقراءة النساء ومعرفة باب الدخول لكل واحدة، وبالرغم من معرفتها بكل عيوبه لكنها لم تستطع أن تبتعد عنه، فقد كانت مشدودة نحوه كالمسحورة، فهو دخل لها من طريق

واضح ومباشر، طريق النبتة الجافة التي تحتاج لقليل من الماء ليروي مشاعرها، وهو بالفعل في فترة قصيرة أغرق مشاعرها الجافة بسيول جارفة من الحب والحنان والاهتمام.

لكن بينها وبين نفسها لم تستطع أن تنكر أنها تحب شعورها هذا الذي يجعلها تشعر به، فلقد اقتحم تلك المنطقة بداخلها، منطقة كانت مهجورة، لم يطأها رجل من قبل، لم يطأها إسماعيل خلال مدة زواجهما، ولم يطأها مالك الذي استطاع أن يمتلك قلبها وروحها وعقلها في أيام، أما طارق فقد اقتحمها بجرأة لم تعهدها من رجل من قبل، والأغرب أنها تركت نفسها تنساب معه، كيف؟ لا تعلم، ولكن ما تعلمه جيدًا أنه اقتحم دهاليزها وكشف عن أماكن بداخلها هي نفسها لم تكن تعلم بوجودها، لقد وضعها طارق وجهًا لوجه مع المرأة التي كانت تتهرب منها طيلة الأعوام الماضية، تلك المرأة المختبئة بداخلها كالبركان الكامن تحت الصخور في انتظار الوقت الذي سينفجر فيه، تلك المرأة التي تحتاج لحضن رجل يضمها، تحتاج أن تشعر بأنفاسه الدافئة تداعب مشاعرها، تحتاج لقبلات ساخنة ولمسات تأخذها فوق السحاب، تحتاج من يُشعرها بأنوثتها ويفجر ينبوع الرغبة بداخلها.

واهمة هي المرأة التي تقول إن ليس لها احتياجات جسدية مثلما لها احتياجات نفسية وعاطفية. واهمة هي المرأة التي تقول إن حياتها بلا رجل أفضل، واهمة هي المرأة التي بعد الطلاق تقول إنها ستعيش لأبنائها فقط، فالله سبحانه وتعالى خلقنا باحتياج لمشاعر تختلف من امرأة لأخرى، ولكن في نهاية الأمر هذه الاحتياجات يجب أن تُلبى وإلا ستتحول هذه المرأة مع الوقت لأرض بور لا تصلح لأي شيء.

أيام قضتها ندى في جلسات مطولة أمام البحر بين يديها كراسة مذكراتها تكتب فيها كل ما يخطر ببالها، كلمات مبعثرة وأفكار مشتتة بين عقل وقلب ورغبات، كان أسهل القرارات بالنسبة إليها هو قرار قيامها بالحملة الصحفية:

«سأقوم بها، ليس استسلامًا مني ولا ضعفًا ولكنه انحناء للعاصفة حتى تمر، ثم أنت يا ندى أخذت حق الناس من شركة الأمانة عندما فضحتهم في المجلة وعلى الإنترنت، وأمنت الصحراء بأهلها الذين سيحمونها من أي تجاوزات أخرى مثل هذه، سواء من شركة الأمانة أو غيرها، سأقوم بهذه الحملة ولكنني كما قلت للأستاذ توفيق في الاجتماع لن أتقاضى عنها مقابلًا».

وشعرت بعد اتخاذها هذا القرار كأنها أنزلت حملاً ثقيلاً عن ظهرها، والآن تستطيع أن تتفرغ للموضوعين الآخرين اللذين يحتاجان أيضًا لقرارات سريعة وحاسمة، ولكنها كلما اقتربت من اتخاذ قرار في أحد هذين الموضوعين تجدهما يكادا يكونا مرتبطين ببعضهما ببعض.

فقرار قبولها بسفر ابنتها يقابله فراغ نفسي كبير، فراغ لن يستطيع ملأه سوى طارق، والعكس أيضًا صحيح، فقرار رفضها سفر ابنتها سيقابله ضرورة رفض طارق، حيث إن سميحة لن تقبل بسهولة بوجود طارق أو غيره في حياة أمها.

أيام كثيرة مرت على ندى في حيرة وتوتر، وأخيرًا اتخذت قرارًا:

«بقي لك يومان على انتهاء الإجازة ولم تعطِ عقلك الإجازة التي يحتاجها هو الآخر، فعلاً عقلي يحتاج لراحة، سأشترك في الرحلة البحرية التي رأيت

إعلانها في لوبي الفندق، رحلة سريعة لمشاهدة الغروب والاستمتاع بالقمر، ثم مشاهدة شروق الشمس في اليوم التالي، وأنا بصراحة في أشد احتياج لمثل هذه الرحلة».

وكما توقعت ندى، الساعات القليلة التي قضتها في هذه الرحلة على متن اليخت البحري ساعدتها على تصفية عقلها من شوائب السنين العالقة به، جعلتها تعيد اكتشاف ذاتها، اكتشفت أنها ما تزال تعيش بقلب وروح هذه الفتاة المرححة الشقية المليئة بالحياة، وجدت نفسها تعود تلك الشابة ذات الأربع والعشرين عامًا، شعرت كأن عمرها توقف عند اللحظة التي وضعت فيها اسمها بجانب اسم إسماعيل على قسيمة زواجهما، وعندما رجعت بالذاكرة للوراء وجدت أنها عاشت منذ زواجها حتى يومها هذا على خطوط رسمها غيرها، اكتشفت أنها أبدًا لم تعيش لنفسها، حتى الأيام القليلة التي شعرت فيها بالسعادة لم تدم واختفى مالك من حياتها كأنه لم يدخلها يومًا.

وثاني يوم فجرًا وهي تخطو أولى خطواتها خارج اليخت الذي كانت على متنه، شعرت بريح قوية محملة برياح باردة تصطدم بوجهها، كادت أن توقعها أرضًا، ولكنها شعرت كأنها رسالة من الله سبحانه وتعالى، يقول لها استيقظي من غفوتك الطويلة، ركزي، يجب أن تتخذي قرارًا، لن تستطيعي أن تستمري في حياتك بهذه الحيرة والتخبط.

بما أن ندى تؤمن دومًا بإن الله يرسل بإشارات ورسائل لعباده، فقد اعتبرت أن الرسالة التي جاءت لها على الموبايل من أحد معارفها بعد الرحلة بدقائق قليلة ما هي إلا إشارة ثانية لها:

«أوقات كثيرة نعرف بوجود اتخاذ قرار ما، ونظل ندور حول القرار، وأوقات
نقترب بشدة من اتخاذ القرار، ونعود ثانيةً، لكن في لحظة ما نجد أنفسنا
فكرنا وقررنا ونفذنا فورًا هذا القرار الذي تأخر دون تردد.

هذه هي اللحظة الفاصلة في حياتنا التي يكون طعم الحياة بعدها مختلفًا،
طعم مليء بالإصرار والتحدي والقوة الداخلية».

أعطتها هذه الرسالة كل العزيمة والإصرار اللذين كانت تحتاجهما لتتخذ
قرارها:

«سأقبل عرض طارق، سأتزوجه، ما الذي يمكن أن يجري؟ إن لم أجد معه
الحياة التي كنت أتوقعها، سأحاول وأحاول، وإذا لم ننجح ساعتها سننفضل،
الحمد لله الذي أحل الطلاق حتى وإن حرّمه المجتمع، المجتمع الذي جعل من
السيدة التي تطلب الطلاق من زوجها دون سبب مادي ملحوظ ككسر في
الذراع أو كدمات في أنحاء الجسد، سيدة لا يعجبها العجب، سيدة سيئة ولا
تحافظ على بيتها، ويبدأ كل شخص في تفسير طلبها للطلاق بمنظوره
الخاص».

وكان الشق الثاني لقرارها أصعب، فهي كانت متأكدة أن سميحة لن تقبل بهذا
الموضوع بسهولة وأن إسماعيل سيتخذ موضوع زواجها ذريعة ليقنع سميحة
أن تسافر معه، حتى ولو لم تبارك ندى هذه الخطوة.

«لا توجد مشكلة، فسميحة كبرت وتستطيع أن تستوعب احتياجي لرجل
أكمل معه حياتي، يحمل همي ويحبنى وأستند عليه عندما تضيق الدنيا عليّ،
وحتى إذا لم تستعب الآن ستستوعب عندما تكبر وتعي، أما بخصوص

سفرها فأنا لا أستطيع أن أكون أنانية وأضيق عليها فرصة كهذه لمجرد أنني أريدها بجانبني وتحت جناحي، كالبطة التي تضع صغارها تحت جناحيها لحمايتهم، لن تستطيعي حماية سميحة للأبد يا ندى، عاجلاً أو آجلاً ستخرج للدنيا وحدها، أطلقها ودعيها تخطط وتصنع مستقبلها حتى لو بعيداً عنك، وأنت ستسافرين لها كلما اشتقت إليها.. بسيطة.. ثم التفكير في هذا الموضوع سابق لأوانه، فما زال أمامك سنة دراسية كاملة لسميحة تستطيعي خلالها التفكير في هذا الموضوع ثم اتخاذ قرارك دون ضغط وتوتر».

شعرت ندى وهي متجهه من المارينا لغرفتها في الفندق كأنها تطير لا تمشي، ففعلاً أي قرار معلق يأخذ من طاقتنا ويضعف من معنوياتنا.

توجد مواقف في حياتنا لا تقبل الحل الوسط، لا تقبل اللون الرمادي، إما أبيض وإما أسود.

ومواقف أخرى تحتاج إلى كمّ كبير من المرونة والهدوء والحنكة، ولا يجدي معها أسلوب الأبيض والأسود.

والذي يحدد كيفية التعامل مع كل موقف في حياتنا هي تجاربنا وخبراتنا التي نكتسبها على مر السنين.

المصيبة الكبيرة أن أوقاتاً كثيرة يمنعنا كبرياؤنا وكرامتنا والعناد والكبر أن نلجأ لغيرنا طلباً للنصيحة، وحينها فعلاً نجد أنفسنا قد وقعنا في مشكلات لا حصر لها.

توقعت ندى أن يداعب النوم جفنيها فور دخولها السرير، فلقد أمضت تقريبًا ٢٤ ساعة مستيقظة في الرحلة البحرية التي شاركت فيها، حتى السويغات القليلة التي غفت فيها على متن المركب لم تنم بعمق، مجرد أغمضت عينيها راحة لهما، ولكن تأتي الرياح بما لا يشتهي السفن، جلست في سريرها في الفندق والنوم يجافي عينيها، كعادتها عندما تكون تفكر في أمر يقلقها، أو عندما تكون سعيدة بخصوص أمر ما، وهذه المرة كانت الفرحة التي تقفز من بين ضلوعها هي السبب:

«ياه! فعلاً هم وانزاح، صحيح أي قرار معلق يأخذ من صحتنا وراحة بالنا».

وأخيرًا نامت ندى كمن لم ينم منذ سنين، كأن القرارات التي كانت في انتظار اتخاذها هي حجر ثقيل معلق في رقبتها يجثم على روحها فيمنعها من التنفس، نامت براحة وعمق لم تشعر بهما منذ فترة لدرجة أنها استيقظت متأخرة، بعد العصر بقليل، فأسرعت لتشاهد آخر غروب لها في شرم الشيخ قبل عودتها إلى القاهرة، جلست في مكانها المفضل أمام البحر مباشرة تتأمل ألوان السماء بدرجاتها، والشمس وهي تغرب خلف الجبل، عندما قطع عليها مرور شخصين اللقطة التي كانت تلتقطها بعدسة موبايلها لهذا المنظر الجميل، ولكنها اليوم سعيدة، لم تكن لتدع أمرًا كهذا يعكر صفوها.

«عادي يا ندى، امسحي الصورة والتقطي غيرها».

هَمَّت ندى بمسح الصورة التي ظهر فيها الشخصان اللذان قطعاً عليها منظرها، عندما فوجئت بصورة مالك تطل عليها من موبايلها، لم تصدق عينيها، ولم تستطع أن تُهدئ قلبها الذي كان صوت دقاته تغطي على صوت الموسيقى الصادرة من المطعم القريب:

«مالك! هذا فعلاً مالك».

فترة طويلة جلستها ندى تتأمل في صورة مالك على موبايلها وتتعجب من هذا القدر الذي يعاندها، فما هو يضع مالك في طريقها بعدما أخيراً عرفت الشكل النهائي لحياتها المستقبلية:

«ما الذي أصابك يا ندى؟! تمالكي نفسك، مالك قصة وانتهت منذ انقطعت أخباره ولم يحاول الاتصال بك كل هذه السنوات، ثم ألم تر السيدة الحامل التي تسير بجانبه وتستند على ذراعه؟ من الواضح أنك كنت بالنسبة إليه مغامرة لطيفة أو مجرد نزوة في رحلة بحرية ومضت لحال سبيلها كما قالت أمك. ولكن.. لا لكن ولا غيره يا ندى، من الواضح أنك لست في خارطة أفكاره، ومن الواضح أيضاً أنك كنت ساذجة لتبقي على ذكراه كل هذا الوقت بداخلك، وكنت أسدج عندما احتفظت بسلسلته حول عنقك كل هذه السنوات، فهو أكيد خلع خاتم والدك منذ زمن ووضعته في أحد أدراجه مع أشياءه القديمة. إذًا ما هذه المشاعر التي تنتابني؟ لماذا لا يتوقف قلبي عن الخفقان؟ لم لا يتوقف عقلي عن استحضار ذكرياتنا معًا في السفينة؟ لماذا أشعر الآن بسعادة بالغة لمجرد رؤيته؟ ما هذا يا ربي؟ ما هذه الحيرة؟ هل يُعقل أن يكون مالك ما زال يسكنني بعد كل هذه السنوات؟».

تساؤلات كثيرة بلا إجابات، إعصار من الأفكار والمشاعر ضرب كيائها، ولم تكذ تفيق من التخبط الذي تشعر به إلا ووجدت مالك يتجه نحوها، حينها وجدت نفسها لا تستطيع التحرك كأنها مثبتة في كرسيها.

«ركزي يا ندى، بضع خطوات أخرى وستجدينه يقف أمامك، تصرفي سريعًا، اخلعي عن رقبتك هذه السلسلة، لا تجعليه يراها معلقة حيث تركها».

وبالفعل تصرفت سريعًا، فربطت الإيشارب الذي تحمله في شنطتها حول رقبتها أخفت به السلسلة، ولكن كيف لها أن تخفي بريق عينيها ودقات قلبها؟ كيف لها أن تثبت يديها حتى لا يشعر برعشتها عندما تلتقيا بيديه:

- ندى.. لا أصدق عيني، هذه أنت! لم أصدق نفسي عندما مررت بك منذ لحظات.

حاولت ندى أن تتظاهر بلا مبالاة لرؤيته:

- أهلاً مالك.

لم يجبها على الفور، ولكنه كان ينظر حولها كأنه يبحث عن شيء، فتوقعت أنه يبحث عن سميحة، فجاوبت دون انتظار سؤاله:

- في القاهرة.

ودون أن يستأذنها جلس على الكرسي الذي بجانبها:

- احكي لي أخبارك.

«أخباري! يأخذ قلبي ويغيب لسنوات ثم لديه الجرأة ليسألني مثل هذا السؤال البارد؟ لقد رأيتته بعيني يمشي وفي يده امرأة أخرى واضح أنها زوجته وأم طفله القادم؛ لن أستطيع أن أجابوه، فماذا سأقول له؟ أقول له إنني عشت سنوات أنتظره؟ أقول له إنه لم يفارق قلبي قط؟ أحكي له عن خانة الذكريات التي أحتفظ فيها بذكراه؟ لا لن أقول له أي شيء، يجب أن أحافظ على كرامتي أمام نفسي أولاً ثم أمامه، هذه المرة سيخرج من خانة الذكريات إلى خانة الممسوحات، يجب أن أمسحه نهائيًا هذه المرة».

انتابتها رغبة شديدة في الهروب من أمامه، حتى لا تفضحها قسماات وجهها التي كانت كل جزئية فيه تنطق بالسعادة لرؤيته:

- أستاذنك يا مالك؛ يجب أن أذهب لغرفتي الآن فأنا أشعر بالبرد.

وهمت بالانصراف، لكنه خلع الجاكيت الذي يربطه حول رقبته وحاول أن يضعه حول كتفيها، فابتعدت عنه ندى على الفور، كأنها تخاف أن تلمس شيئًا فيه رائحته فتعلق تلك الرائحة بروحها:

- شكرًا، أنا في كل الأحوال يجب أن أذهب لغرفتي لأجهز نفسي للسفر، فطائرتي تقلع للقاهرة غدًا باكراً.

وأعطته ظهرها ومشيت فنادى عليها:

- ندى.. ممكن تعطيني رقم تليفونك لأسأل عليك من آن لآخر؟

وتردد للحظات ثم أكمل:

- هذا إن لم يسبب لك مشكلة طبعًا.

كادت ندى أن ترفض عندما تذكرت أنها يجب أن تجد وسيلة اتصال به، حتى تسترد منه خاتم والدها وتعطيه سلسلته. وبعد أن تبادل أرقام التليفونات قالت له وهي تنصرف إنها ستتصل به قريبًا، لأنها تريد أن تُرجع له سلسلته وتسترد خاتمها.

دخلت ندى غرفتها ولم تخرج منها حتى صباح اليوم التالي، مباشرة للطائرة التي ستصطحبها للقاهرة. ليلة ليلاء قضتها ندى وحدها في هذه الغرفة، التي شعرت فجأة أنها ضاقت عليها، كانت تحتاج أن تخرج لتملأ رئتيها بنسيم البحر، ولكنها خافت أن تقابل مالك مرة أخرى.

وطوال هذه الليلة وندى تحدث نفسها:

«ما هذه الحيرة يا ربي؟ في اللحظة التي أقرر فيها أن أبدأ من جديد تبعث لي مالك! أكيد سبحانه لك حكمة في ذلك، يمكن هذه إشارة لي ألا أتزوج طارق، فأنا فعلاً لا أحبه، بدليل ما أصابني عند رؤية مالك. حتى إن لم أكن أحبه فمن حقي أن أخوض التجربة، من حقي أن أتزوج وأجرب حظي مرة أخرى في الحياة الزوجية. أعلم أنه ليس من الأمانة أن أتزوج شخصًا وقلبي مع شخص آخر، ولكن في نهاية الأمر مالك قصة وزهدت لحالها، حتى الشعور الذي شعرت به عند رؤيته يمكن أن يكون شعورًا خادعًا وسيذهب لحاله. لا ليس شعورًا خادعًا فمن الواضح أن مالك له هذا المكان في قلبي ولم يغادره بعد. أفيقي يا ندى؛ ما تشعرين به نحو مالك هو شعور فتاة مراهقة تجاه حبها الأول، أو من تتوهم أنه حبها. لا هذا ليس وهمًا، ولكنه قصة لم تكتمل.

هل رؤيتي له في هذا التوقيت علامة من الله لأخرجه من داخلي نهائيًا؟
فها هو يظهر أمامي بعد كل هذه السنوات وخاتمي ليس في إصبعه وأصابع امرأة
أخرى مكان الخاتم. انتهى يا ندى، مالك يجب أن يخرج نهائيًا هذه المرة،
ولكن من أجل أن أطوي هذه الصفحة سيتوجب عليّ مقابلته مرة أخرى لآخذ
الخاتم وأعطيه سلسلته، سأتصل به خلال يومين وأحدد معه موعدًا، بل
الأفضل أن أنتظر أن يتصل هو بي».

أسوء شعور في الدنيا عندما تجد نفسك مجبرًا على القيام بعمل أنت لست
مقتنعًا به، ولكن تفرضه عليك الظروف، حينها نجد أنفسنا في مواجهة غريبة
مع ذواتنا، نفكر ونتساءل كيف وصل بنا الأمر أن نقبل بالقيام بما لا نريده!
وحينها تفاجئنا الإجابة: ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

برغم أن مدة الرحلة من شرم الشيخ للقاهرة لا تتعدى الساعة، ولكن ندى شعرت بها كأنها ساعات، فعقلها لم يفصل دقيقة واحدة عن التفكير منذ جلست على كرسي الطائرة حتى نزلت منها، فها هي الرحلة التي كان من المفترض أن تكون مخرجًا لها من حيرتها عادت منها بقلق وحيرة أكبر، فرؤيتها لمالك هناك قلبت كل حساباتها رأسًا على عقب، فلقد اكتشفت أن مالك هذا كالفيروس الكامن في دمها ومجرد رؤيتها له ظهر على السطح وأصاب كيائها كله مرة أخرى بعدوى حب اعتقدت أنها شفيت منه.

وها هي عادت بنفس الهموم التي سافرت بها، بل وزاد عليها همٌّ آخر، ألا وهو مالك والمشاعر التي انتابتها عند رؤيته.

وكان أكثر ما يشغل بالها هو موضوعها مع طارق، فما عساها تقول له وهو في انتظار رد نهائي منها كما وعدته، كيف لها أن توافق على طلبه وقد تأكدت في اللحظة التي رأت فيها مالك مرة أخرى أنها لم تحبه، هي أحبت اهتمامه بها، أحبت إعجابه بها وبما يفعله لها، تعلقت به لوجوده المستمر في كل لحظات يومها ومشاركته لها في كل تفاصيل حياتها، لقد تعودت على وجوده ولكنها لم تحبه، وها هي الآن تجد نفسها وقد عادت للمربع صفر، لا تعلم ماذا تريد، كل ما تعلمه أن قصتها مع مالك انتهت قبل حتى أن تبدأ، وفي نفس الوقت هي لا تستطيع أن تفعل هذا بنفسها ولا بطارق، لن تستطيع الارتباط به وقلبيها لا يخفق له مثلما يخفق لمالك، لن تستطيع أن تسلم نفسها لطارق جسدًا بلا روح، سترفض طلبه، فهي لن تظلمه ولن تظلم نفسها معه في

علاقة مكتوب في أول سطر فيها الفشل، ولكن مشكلتها الوحيدة مع طارق أنه من الشخصيات التي لا تقبل الرفض بروح رياضية، لا يفقد الأمل ويسعى وراء ما يريد، كالطفل الصغير عندما يُلحَّ في طلب لعبة. كانت تعلم أن رفضها له سيزيد من إصراره وسعيه وراءها، كانت تعلم أيضًا كم هي ضعيفة وهشة حاليًا، وتخاف أن تضعف أكثر فتقبل طلبه ثم ينتهي بها الأمر بجرح جديد وعلامة جديدة على روحها.

قررت ندى أن تعمل إسقاطًا لكل تلك المواضيع المؤجلة حتى تستعد نفسيًا لمواجهةها، بعدما أثرت مقابلتها مع مالك على قراراتها التي كانت قد اتخذتها مسبقًا، وكان القدر رقيقًا بها لأقصى حد، ففي اللحظة التي وضعت فيها قدمها في القاهرة وفتحت موبايلها وجدت رسالة من طارق يبلغها فيها أنه ذاهب في مأمورية مهمة خارج القاهرة لمدة أسبوعين، وسيتعذر عليه الاتصال بها خلالها.

أما بخصوص موضوع سفر ابنتها فقد قررت ندى أن تتفادي قدر الإمكان المواجهة المرتقبة معها، حتى لا تضطر إلى اتخاذ قرار قد تندم عليه لاحقًا، فما زال أمامها سنة دراسية كاملة لتفكر وتقرر، ولكن بينها وبين نفسها كانت تميل أكثر أن تتركها تُجرب موضوع كندا هذا، فهي لن تكون هذه الأم الأنانية التي تُضَيِّع على ابنتها فرصة كهذه من أجل أن تبقىها بجانبها وأمام عينيها.

قضت ندى أيامًا تفكر بخصوص الحملة الصحفية التي وجدت نفسها مجبرة على القيام بها، أيام قضتها في المجلة من الصباح حتى المساء، تحاول أن تجد لها مدخلًا، وكأن موهبتها وقلمها تحالفا مع عقلها فأصاباه بعطل مؤقت.

«أسوء شعور في الدنيا عندما تجد نفسك مجبرًا على القيام بعمل أنت لست مقتنعةً به، ولكن تفرضه عليك الظروف، حينها نجد أنفسنا في مواجهة غريبة مع ذواتنا، نفكر ونتساءل كيف وصل بنا الأمر أن نقبل بالقيام بما لا نريده! وحينها تفاجئنا الإجابة: ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. كثيرًا ما نقوم بأعمال ونحن نتخفّى وراء قناع الموافقة والترحيب، ولكن داخلنا نكون في صراع نفسي فظيع يظهر على سطح ما نقوم به، فقط القريبون من قلوبنا هم من يستطيعون أن يقرؤوا ما بين سطور أعمالنا».

كلمات كتبتها ندى على المدونة الخاصة بها، المدونة التي أهملتها في الفترة الأخيرة، كلمات قرأها الأستاذ توفيق رئيس التحرير، وقرأ ما بين سطورها، فاستدعى ندى لمكتبه:

- ندى.. لدينا صحيفة جديدة انضمت للمجلة، هي شخصية جادة وملتزمة، وأريد منك أن تأخذها تحت جناحك وأن تعمل تحت إشرافك.

وأكمل كلامه بابتسامة ذات مغزى فهمتها ندى على الفور:

- وليكن مثلاً أن تكلفها ببعض من أعمالك التي لا تجدين وقتًا للقيام بها، كالحملة الصحفية لشركة «الأمانة» مثلاً.

فهمت ندى الكلمات المختلفة في حديث الأستاذ توفيق، وتأكد شعورها بأن الله بعث لها به كأبٍ ثانٍ يحمل همها ويخفف عنها.

- ندى.. طبعًا لا حاجة لي أن أقول لك إن أي عمل ستقوم به الصحفية الجديدة، يجب أن يكون تحت إشرافك وعلى مسؤوليتك، لأنه سينزل

باسمك أنت أولاً قبل اسمها.

وخرجت ندى من مكتب رئيس التحرير وهي تشعر أنها تطير لا تمشي، كأن حملاً ثقيلاً قد انزاح من فوق كاهلها.

أيام وانتهى العمل على الموضوع الدعائي لشركة «الأمانة»، وانتظرت ندى أن تشعر بالسعادة لأن هذا الحمل قد انزاح، ولكنها سعادتها لم تكن مكتملة، فما زال عدم إتمام موضوع النفايات السامة التي تُدخلها شركة «الأمانة» وتأثيرها على صحة الناس أمراً يورقها، وخصوصاً بعدما وجدت نفسها مجبرة ليس فقط على عدم إكمال هذا الموضوع للنهاية، ولكن أيضاً وضع اسمها على حملة دعائية لهم. في النهاية رضخت للأمر الواقع، فهي تؤمن بشدة بأن الله لن يتركهم يتمادون في فسادهم، ومن المطمئن أيضاً تأكدها من أن عرب المنطقة لن يتركوا نفايات أخرى تقترب ناحية شبر واحد من رمال صحاريهم.

اليوم الذي انتهت فيه من الحملة الصحفية كان عشية حضور طارق من السفر. توقعت أن تشعر بالسعادة لتخلصها من الضغط العصبي الموضوعه فيه بسبب هذا الموضوع، وتشوُّش مشاعرها تجاهه، وبالرغم من السعادة التي من المفترض أن تشعر بها، بعدما أبلغها الأستاذ توفيق إنهم خلال أيام سيسحبون بلاغهم ضدها وضد المجلة، لكنها لم تشعر بالفرحة، بل كانت سعادة مبتورة، فما زال أمامها الهم الأكبر.. علاقتها بطارق والإجابة التي ينتظرها منها، فغداً يصل وبالتأكيد سيكون في انتظار رأيها الذي يتوقعه مقدماً، ألا وهو القبول، الذي كانت ندى على وشك أن تبلغه به، لولا ما حدث في شرم الشيخ.

وصلت ندى هذه الليلة إلى منزلها، ولكن كعادتها جافاها النوم، فهي بحاجة أن تفكر وتتخذ قرارًا نهائيًا في موضوع طارق، وجدت نفسها في حاجة لبعض الهواء الطلق، فخرجت للبلونة بصحبة كراسية مذكراتها، التي تكاد تنطق وتقول لها قرري ما الذي تريدينه، فكفاك تردد.

بدأت ندى فضفتها على صفحات الكراسية بـ«آه» طويلة، آه تحمل حيرة وشوقًا وحنينًا وألمًا. آه عمرها سنتان أو يزيد، آه عن كل يوم ضاع من عمرها وهي تنتظر مالك، آه عن كل نصيحة قالتها لها أمها لم تستمع إليها، فما زال آخر نقاش كبير بينهما منذ ما يزيد عن العام، ترن كلماته في أذنها:

- يا ندى أنتِ ما زلتِ صغيرة والحياة أمامك طويلة ياذن الله، افتحي أبواب قلبك ودعيه في وضع استعداد ليحب ويرتبط مرة أخرى، لن تستطعي أن تكلمي حياتك بهذا الشكل، لن تغلقي أبواب قلبك أمام ذكرى تجربة زواج فاشلة وقصة حب لم تكتمل.

- يا أمي تجربة زواجي وطلاقي بالنسبة إليّ ليست من أسباب رفضي الارتباط مرة أخرى، فهذا موضوع وانتهى، تاركًا لي أجمل ما في حياتي، سميحة، أما قصتي القصيرة مع مالك فهي اللسة الرومانسية في حياتي التي ألجأ إليها كلما ضاقت بي الحياة، ففي تلك الأيام المعدودة على السفينة شعرت مع مالك بمشاعر لم أكن أعلم أصلًا أنها موجودة، أعلم أن شهرًا كثيرة مرت ولم يظهر مالك، وهذا معناه أن تلك الأيام لم تعن له كما عنت لي، ولكن أرجوك لا تقلقي عليّ، واتركيني في خيالي وأحلامي، لا تلوميني إذا كنت متمسكة بتلك الأيام مع مالك، فهي زخات المطر التي تروي مؤقتًا جفاف حياتي.

نقاش دار بينها وبين أمها عشرات المرات، وكان يدور في عقلها كل مرة تحكي لها ابنتها عن إعجاب أحدٍ بها ومحاولته التقرب منها، كان يدور كلما حضرت ندى مناسبة مع أمها وحاول أحدهم التعرّف عليها، أو كلما رفضت عريسًا جاءها به أحد الأقارب أو المعارف.

كل ذلك جاء في بالها الآن وهي تفكر عن كم الفرص التي ضاعت منها بسبب انتظارها مالك.

«هل أخطأت بغلاق أبواب قلبي أمام محاولات الآخرين التقرب مني؟ هل أخطأت عندما تركت نفسي على هواها بالارتباط بذكرى أيامي مع مالك؟ فها أنا أراه بعد طول انتظار وفي حضنه امرأة أخرى. هل ضيعت شهورًا من عمري في انتظار سراب؟ لا لم أخطئ، أنا كنت في حاجة لأن أعيش هذه الحالة، حالة الحب الأفلاطوني التي لم أجربها في سنوات شبابي، وكنت أيضًا بحاجة لأن أجرب بحور الرغبة التي غرقت فيها مع طارق، وأيضًا كنت في حاجة لمواجهة ذاتي، المواجهة تلك التي قمت بها في الأيام الماضية، واكتشفت فيها حقيقة كثير من الأمور، فلا يوجد علاقة صحيحة تقوم على رغبة جسدية فقط، ولا يوجد زواج يكتمل بالدفع الذاتي، أو من باب التعوّد أو عدم وجود شجاعة كافية لإنهائه، أو الخوف على مشاعر الطرف الآخر، أو الخوف من الانفصال والطلاق، انتهى يا ندى، لا مجال للندم الآن، فما قدره الله قد حدث، فكّري الآن في المستقبل، فكّري كيف تستعيدين نفسك مرة أخرى، ابحتي عن طريقة لترممي بها قلبك وروحك، تعلّمي من تجارب حياتك الماضية لتستفيدي منها في المستقبل؛ الحياة أمامك طويلة وكفاك، فأنت لن تغلقي باب قلبك عليك بعد الآن، وأولى تلك الخطوات هي خلع هذه السلسلة

عن رقبتك، فكفاها كل هذه الشهور وهي في رقبتك كالطوق الذي يربطك بماضٍ ذهب وانتهى».

وما أن وضعت ندى قلمها جانبًا وأغلقت كراستها حتى خلعت عن رقبتها سلسلة مالك، خلعتها ويدها ترتجفان خوفًا من ردة فعلها هي شخصيًا، ولكن لتعجبها لم تشعر بشيء، لم تشعر بقبضة في قلبها أو مشاعر حزن تنتابها كما كانت دومًا تتصور أن تشعر إذا خلعت السلسلة، لم تتأثر ولم تبك أو تنهار كما كانت دومًا تقول لأنها عندما تطلب منها خلع السلسلة، ليكتمل غلق قصتها مع مالك. بالعكس، بخلعها السلسلة شعرت براحة غريبة، كأن السلسلة كانت حملًا ثقيلًا حول رقبتها.

جلسة طويلة جلستها ندى هذه الليلة تفكر وتضع خططًا لحياتها، وتحاول اتخاذ قرارات بخصوص مستقبلها، قرارات طال انتظارها، حتى فوجئت بخيوط النور تشق طريقها بين ظلام الليل، دخلت ندى أيقظت سميحة لتستعد للذهاب للمدرسة، وبعد نزول سميحة وجدت داخلها طاقة كبيرة، قررت أن تستغلها في كتابة عمودها الأسبوعي، الذي تأخرت عن تسليمه في المهلة المحددة، ولكن من الواضح أن جلستها الطويلة هذه الليلة قد أعطتها الإلهام اللازم لتخرج بمقال ناري:

«أي علاقة بين اثنين تشبه لعبة بينهما، أي علاقة: علاقة زواج، علاقة أبوة، علاقة صداقة، علاقة عمل، المهم أنها فعلاً لعبة، لعبة خاصة بك ولعبة خاصة بالطرف الآخر، كل يحاول أن يشد الآخر لدائرة لعبته، ولو أخذنا علاقة الزواج كمثال، سنجد أن غالبًا في بداية العلاقة نبدأ نحن في تقديم تنازلات، ويبدأ الطرف الآخر في فرض القواعد والنظام، ومع كل استسلام من طرفنا ندخل

أكثر وأكثر في دائرة لعبته، حينها نجد أنفسنا قد خرجنا خطوة من دائرتنا، وتستمر اللعبة، حتى نجد أنفسنا قد غرقنا في لعبة الطرف الآخر وتركنا لعبتنا، فيكون ما يحبه وما يريده هو الذي يسري، وفي أغلب الأحيان يكون بموافقتنا ورضانا، فقد جاءت أرجلنا كما يقال، حتى المشكلات تكون على طريقته. ولكن هناك نقطة في الطريق، موقف يحدث يترك لنا ما يشبه إشارة المرور الحمراء، تنبهنا بضرورة الوقوف ومراجعة أحداث حياتنا السابقة، حينها نكتشف الفخ الذي وقعنا فيه، فخ الاستسلام التام والدخول طواعية في حدود لعبة الطرف الآخر، حينها نبدأ في التمرد والاعتراض، فليست هذه الحياة التي حلمنا بها، هنا تبدأ المشكلة، فالطرف الآخر لم يتعوّد منا على المقاومة، فنحن نتبع خطواته ونظامه منذ البداية.

ولكن في توقيت معين من حياتنا المشتركة مع الطرف الآخر نجد أنفسنا بحاجة أن نقف ونقف نضع فيها القواعد الجديدة لحياتنا، ونبدأ التنفيذ، وليس معنى ذلك أن نهدم المعبد على رؤوسنا، بل نحاول أن نصل إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف.

أما إذا باءت محاولتنا بالفشل بعد عدة مرات نفعل فيها أقصى ما في وسعنا لإنجاح العلاقة، عندها يجب أن نعيد تقييم العلاقة من الألف للياء، نراجع كل شيء، نبحث عن علامات النجاح وعلامات الفشل. ومن الضروري الأخذ في الاعتبار أنه يوجد بعض القواعد البسيطة التي يجب أن نتبعها في أي علاقة:

أول قواعد العلاقة السليمة هو مبدأ الأخذ والعطاء، لأنه من غير السليم أن نستمر في العطاء بلا مقابل، حتى لو كان عن طيب خاطر، لأنه سيأتي علينا وقت سنلوم فيه أنفسنا لأنها تركتنا نتنازل ونعطي ونضحى بلا مقابل.

فإذا وجدت نفسك في علاقة تعطي ولا تأخذ إذا أنت في العلاقة الخطأ.

وثاني تلك القواعد للعلاقة السليمة هو الونس، هو الشخص الذي يملأ دنياك حتى وهو بعيد، فأسوء شيء لأي علاقة هو الوحدة المعنوية، أن تكون جالسًا بجانب شخص والفرق المكاني بينكما أمتار قليلة، ولكن الفرق النفسي بينكما آلاف الأمتار.

أما أسوء علامات العلاقة الخطأ فهو عندما نضطر أن نتعامل مع الطرف الآخر بالشوكة والسكينة، بمعنى أننا يجب أن نأخذ حذرنا من كل كلمة وحركة ونفّس، عندما نحسب ألف حساب لتصرفاتنا في وجوده لأننا نعلم أن كل كلمة ستحسب علينا.

عندما نصل لتلك المرحلة التي يُشعرنا فيها الطرف الآخر أنه يطبق على روحنا ويمنع عنا الأوكسجين، ساعتها فقط نكون أمام خيارين، إما الانسحاب الفوري من تلك العلاقة قبل أن تدمرنا، وإما أن نفعل كل ما في وسعنا لإصلاح الشرخ في هذه العلاقة.

ركزوا مع علامات فشل ونجاح علاقاتكم، اعتمدوا على حدسكم، فهذا الحدس وضعه الله بداخلنا ليكون دليلنا عندما تتأزم الأمور، لا تقبلوا أن تعيشوا أنصاف حياة، لا تقبلوا أن تعيشوا أمواتًا تتنفسون، انفضوا عنكم كل ما يشدكم نحو القاع، أطلقوا أرواحكم وافتحوا قلوبكم لاستقبال دفء المشاعر التي يحتاجها كل منا ليعيش سعيدًا».

أنهت ندى مقالها، وبعثت بالإيميل للمجلة، ودخلت فراشها لتنام، وهي تحمل بين جنباتها قرارها بمواجهة طارق فور وصوله.

أصعب ما في الانتظار هو هذا الشعور المصاحب له، الترقب، التوتر، الضغط العصبي، لأنك تريد أن تزيح حمل الانتظار عن كاهلك، الشعور بالخوف من المجهول، شعور بالقلق من ردة فعل الآخرين تجاه ما ننوي القيام به.. فعلاً كل قرار معلق أو مواجهة مؤجلة تأخذ من صحتنا النفسية والجسدية.

في هذا اليوم استيقظت ندى بعد العصر على تليفون من الأستاذ توفيق،
يثنى فيه على مقالها الذي بعثت به للمجلة، ويستفسر منها عن سبب غيابها
اليوم عن العمل رغم انتهاء إجازتها:

- أعتذر أستاذي عن غيابي دون بلاغ مسبق، ولكني اليوم سهرت حتى نزلت
سميحة للمدرسة ونمت دون أن أشعر حتى الآن. غدًا منذ الصباح الباكر
سأكون في المجلة. أعتذر مرة أخرى.

وجلست ندى في سريرها في وضع ترقب، في انتظار المكالمة المنتظرة من
طارق، في انتظار تلك اللحظة التي سيطلبها فيها، وأكد سيكون في انتظار
ردها على طلبه، فهي تريد تلك المواجهة الآن لتنتهي منها، لأنها لا تحب
الأمر المعلقة، تحب مواجهة المسائل وإزاحة حمل الانتظار عن كاهلها، لكن
هذه المواجهة بالذات كانت تتعجل الانتهاء منها، برغم أنها تشعر أنها لن
تنتهي نهاية جيدة، فهي تعلم أن طارق لن يقبل بسهولة رفض ندى له،
فكبرياؤه لن تسمح له أن يُرفض سواء من ندى أو غيرها.

وجاءت اللحظة المرتقبة التي حشدت لها ندى كل قوتها، ولكن مع أول
مواجهة مع طارق وجدت نفسها أضعف من أن تقول له ما أرادت قوله،
فالدفع الذي شعرت به أجمها، فكيف لها أن تقول إنها لا تريد الارتباط به
وهي ما زالت تضعف أمامه بهذا الشكل؟ كيف تقنع قلبها وعقلها أن طارق هذا
الذي شغل حيزًا كبيرًا فيهما في الشهور الماضية لا مكان له الآن؟ بماذا تفسر

لهما قرارها هذا؟ ستذكرهما بمالك، هما أكيد يتذكراه، فهو قصة شاركا ندى كل تفاصيلها. قصة كثيرًا ما كانت سببًا في مشكلات كثيرة بين عقلها وقلبها. ترددت ندى كثيرًا قبل أن تستجيب للرنات المستمرة على هاتفها، ولكنها في النهاية استجمعت قواها وردت على طارق:

- آلو.. حمدًا لله على سلامتكم يا طارق.

- افتقدتك كثيرًا يا ندى.

رد أعقبه صمت لم يستمر طويلًا.

- ندى.. لا أجد كلمات أصف لك مقدار افتقارك وكيف أنك ذهبت بنصف عقلي؟ فنصفه كان في أداء المهمة ونصفه معك.

- شكرًا.

- شكرًا؟! ما هذا الرد الغريب؟ «افتقدك» يكون ردها «وأنا أيضًا افتقدتك» وليس شكرًا.

وأكمل حديثه بعدما تغيّرت نبرة صوته، التي ظهر فيها قليل من الغضب:

- «شكرًا» تلك تقال للغريب يا ندى إذا أخبرك أنه افتقدك.

قطعت ندى عليه هذا الخط في النقاش قائلة بنبرة تعمدت أن تكون جافة وجادة من باب التمهيد له:

- أريد مقابلتك لو سمحت يا طارق.

- تمام.. وأنا أيضًا أريد أن أراك، ربع ساعة وأكون تحت منزلك. لا تتأخري.

نصف ساعة مرت منذ أغلقت معه التليفون حتى خرجت من باب شقتها،
نصف ساعة من أطول الأوقات التي مرت عليها في حياتها، فهي كانت تجهز
نفسها للنزول وهي تُقدِّم رجلاً وتؤخر الأخرى، فأمامها الآن مواجهة صعبة مع
خصم أصعب، وموقف أصعب وأصعب، فما شعرت به عند سماع صوت طارق
بعد فترة غيابه كان شوق ولهفة امرأة عاشقة لا امرأة على وشك أن تنهي
علاقة.

وما أن خرجت من باب العمارة ورأت طارق أمامها يقف مبتسمًا ابتسامته
الساحرة ويحمل بيده أكبر باقة زهور حمراء رأتها في حياتها، ألجمتها
المفاجأة.

«ما هذا يا ربي؟! لماذا يُصعَّب عليّ طارق الأمر بهذا الشكل؟».

وفتح لها باب السيارة دون كلام، ودخلت هي أيضًا دون أن تنطق كلمة، وما
أن جلس بجانبها في كرسي السائق حتى سحب يديها كعادته، وقبلهما تلك
القبلة الساخنة التي تعودتها منه، تلك القبلة التي تفصلها من أي شيء حولها
وتأخذها في دنيا أخرى، دنيا لا يوجد بها سوى ندى وطارق فقط، ولكن هذه
المرّة لم تشعر بذلك، أو بمعنى أصح قاومت نفسها لئلا تشعر بذلك. نزلت
لتقابلة لأن أمامها مهمة محددة، يجب أن تنهي هذه العلاقة اليوم، يجب أن
تُخلي حياتها من أي روائح من الماضي لتستطيع أن تبدأ من جديد، فهي
بالفعل تحتاج لأن تبدأ من جديد، فكفاها ما فعلته في نفسها في السنتين

الماضيتين. أفكار كثيرة كانت تدور في رأسها لدرجة أنها شردت معها، فلم تشعر إلا والسيارة تتوقف بهما أمام أحد المطاعم على النيل.

نزلت من السيارة وسارت بجانبه دون أن يتبادلا أي كلام، حاول أن يمسك بيديها بين يديه كما تعودا كلما تقابلا، لكنها تعمدت أن تحمل حقيبة يديها في الجانب الملاصق له، كل هذا وهي تدعو ربها أن يشعر بهذا التمهيد، فهي لا تريد أن تدخل في مواجهة حادة معه.

وما أن جلسا حتى قطع طارق الصمت الذي طال بينهما، وفاجأها بجملة حاسمة:

- أنا تقريبا خمنت ردك على طلبي يا ندى، لكن هل ممكن أن أعرف لماذا؟

كلمات قالها طارق وكأنه أزاح عن صدرها حجرا ثقيلا كان يجثم عليه، لم تعرف ندى ماذا تقول له ومن أين تبدأ، أتحكي له حكايتها مع مالك؟ تلك القصة التي تعمدت أن تخفيها عنه دون أن تعرف لماذا، هل تخترع له حججا واهية لئلا تسكت به؟ أتقول له حقيقة ما تشعر به تجاهه؟ ولكن كيف تشرح له أنه جذبها جسديا وعاطفيا لكن لم تستطع أن تحبه؟ ماذا سيقول عنها؟ أكيد سيقول عنها امرأة شهوانية انجذبت لعلاقة جسدية فقط. لا ليس صحيحا، فالأمر معقد ومختلف، فالأغلب النساء حسابات أخرى، فالمرأة لا تسلم شعرة من رأسها لرجل لمجرد شهوة أو غريزة، فهي عندما تقبل لمسات رجل مرتبطة به فهذا معناه أن هذا الشخص مرّ بأول أبوابها، وهي كانت بالفعل تعلم أن طارق مرّ بكثير من أبوابها، وكادت أن تسلم مفاتيحها لولا رؤيتها لمالك في شرم الشيخ.

فكرت كثيرًا قبل أن تجاوبه، ثم طلبت منه طلبًا، رآه غريبًا ولكن تفهّمه:

- طارق.. أنت ذكي جدًا وقرأت ما بين سطور مشاعري، ووفرت عليّ كثيرًا من الحرج، ولكنني أدين لك بتفسير، وهذا التفسير يحتاج مني لشجاعة لأقوله لك وجهًا لوجه. سأطلب منك طلبًا، هل يمكن أن تصبر عليّ حتى هذا المساء؟ سأكتب لك كل شيء في إيميل، سأشرح لك وأفسر لك كل ما تحتاج أن تفهمه، فأنا عندما أكتب أخرج ما داخلي بأسلوب أوضح وأسهل. أرجوك أنا لا أريد أن أخسر صداقتنا بمواجهة وجهًا لوجه، فكفى أني سأخسر علاقتنا.

نظر إليها طارق نظرة طويلة لم تستطع أن تفسرها، هل هي كبرياء مشوبة بحزن، أم غضب مخبأ وراء ابتسامة صفراء؟ كأنها تنظر إلى شخص آخر غير طارق.

ساعات مرت عليهما يأكلان، يتبادلان النكات والأخبار الطريفة، يتكلمان عن السياسة والكرة والفن، كل شيء ما عدا موضوعهما، كأنهما عقدا اتفاقًا غير معلن ألا يتطرقا لأي موضوع يمكن أن يعكّر صفو جلستهما الأخيرة معًا.

وبعد العشاء اصطحبها للمنزل دون أن يحاول تقبيل يديها أو يحاول اللعب بخصلات شعرها كما كان يفعل دائمًا، وكادت أن تدخل المصعد عندما لحقها ليعطيها زهورها، وسألها سؤالاً واحدًا:

- ندى.. هل يوجد رجل آخر في حياتك؟

سؤال الجمها وأوقف ابتسامة كانت في طريقها للخروج من بين شفتيها:

- ستفهم كل شيء في إيميلي هذه الليلة. تصبح على خير.

لم تنتظر ندى المصعد، بل صعدت سريعًا على السلالم، فهي لا تريد أن تنتظر أكثر من ذلك معه، كانت تخاف من لسانها أن ينطق بما لا تريد أن يسمعه طارق منها، وفي نفس الوقت هي تريد أن تصل شقتها سريعًا لتكتب رسالتها له وتزيح همّ هذه المواجهة معه، ففي نهاية الأمر هي تحتاج أن تنهي هذه الصفحة أيضًا من حياتها، حاولت ندى أن تدخل شقتها بهدوء حتى لا تشعر بها أمها، ولا سميحة، التي تجلس مع جدتها في الشقة المقابلة، ولكن سبق السيف العزل، وفتحت سميحة الباب وجرت ارتمت في أحضان أمها.

- ماما لن تصدقي من موجود الآن هنا عند جدتي مايسة!

أسقط في يديها، فهي لا تريد أن تعرف من في منزل أمها، ولا تريد أن تدخل أو تفعل أي شيء سوى كتابة خطابها لطارق، ولكن تأتي الرياح بما لا يشتهي السفن، كان هناك ضيف لا تستطيع أن تتهرب منه، وكذلك لا تستطيع أن تقابله، لقد كان إسماعيل، ومعه شقيقه الذي جاء من كندا في زيارة خاطفة، من أجل ذكرى وفاة سميحة الكبيرة.

دخلت ندى وهي متوجسة خيفة، ومنتوقعة مشكلةً وشجارًا حول سفر سميحة لتكمل دراستها بكندا مع عمها ووالدها، ولكن حدث عكس ما توقعت، لقد جاء عم سميحة لزيارتها اليوم ليشرح لها الموضوع تفصيليًا وجهاً لوجه، وقد كان متفهمًا جدًا وقال لها إنها هي صاحبة القرار الأول في هذا الموضوع، ثم شرح لها كل تفاصيل الدراسة والفرص التي ستستفاد منها سميحة في حالة سفرها، وقال لها إنه وزوجته الكندية سيتحملا مسؤولية سميحة كاملة في حالة عدم رغبة ندى في السفر لكندا.

لأول مرة في هذه الجلسة يتحدث إسماعيل معترضًا:

- ما معنى أن تترك ابنتها تسافر وحدها؟! ما المهم في مصر الذي تضحي من أجله بابنتها؟!

وهنا تحدث ندى موجهة كلامها لابنتها، متجاهلة إسماعيل نهائيًا كأنه لم يتكلم:

- سميحة حبيبتي.. أنتِ كبرتِ الآن وتعرفين جيدًا ما الذي تريدينه لمستقبلك، فإذا كان موضوع كندا هذا سيسعدك فأنا لن أقف أمام ما فيه صالح وخير لك، ولكني للأسف لن أستطيع أن ألغي حياتي هنا وأذهب لأبدأ من جديد في كندا، وليست أنا نية مني أو عدم اهتمام، ولكني لن أستطيع أن أترك حياتي وعملي ومستقبلي المهني الذي بدأتَه للتوّ، والأهم أنني لا أستطيع أن أترك جدتك وحدها وأسافر، بالرغم من أنني أراها تحاول أن تتمالك نفسها الآن عن الاعتراض، فهي تريدني أن أسافر معك طبعًا. أنتِ جذورك هنا في مصر، وأعلم جيدًا أنك مهما أنجزتِ هناك أو مهما كانت المسافة التي بينك وبينني فجذورك ستشذك إليّ مرة أخرى.

وكانت ردة فعل ابنتها أكثر نضجًا من ردة فعل إسماعيل:

- أمي حبيبتي.. أنا متفهمة جيدًا دوافعك، ولكن سأكون أنا نية إذا طالبتك بمسح حياتك هنا لتسافري معي لكندا، فتجلسين طوال اليوم في المنزل تنتظرين عودتي لأجلس معك نصف ساعة، وأذهب لحجرتي كما أفعل هنا. إذا اتفقتِ أنتِ وأبي وعمي وقررتم سفري سأكون أكثر من سعيدة بالإقامة

هناك، تحت إشراف عمي وزوجته وأبي طبعًا إذا قرر أن يقبل الوظيفة المعروضة عليه هناك.

كلمات قالتها سميحة أنهت بها التوتر الذي كان يشوب هذه الجلسة، وبعد مناقشات كثيرة اتفق جميع الأطراف على رأي واحد، وهو سفر سميحة لتكمل دراستها في كندا، فأكبر خطأ يمكن أن نقع فيه كآباء هو حرمان أبنائنا من فرصة لحياة أفضل، فرصة دراسة أحسن وتألق في مجال يحبونه من أجل أهوائنا وأحلامنا الشخصية.

وبعد هذه الجلسة الطويلة المرهقة لم تجد ندى فيها من القوة لتكتب الإيميل لطارق هذه الليلة، كل ما فعلته أنها أخذت دُشًا ساخنًا وصلّت ركعتين لله تطلب منه العون والقوة.

دخلت ندى السرير وهي تتوقع أن يجافئها النوم، ولكن لتعجبها وجدت نفسها لا تستطيع أن تُبقي عينيها مفتوحتين وذهبت في سبات عميق، لدرجة أنها شعرت كأنها تحلم عندما أفاقت على قبلة جميلة وضعتها ابنتها على جبينها، وهي تشكرها لكونها أعظم أم في الدنيا.

أصعب موقف يتعرّض له الإنسان عندما يواجه نفسه، ويعرف أن هناك صفحات من حياته تحتاج أن تُغلق نهائيًا وهو ما يزال يتحلّى بأمل الإصلاح، حينها يكون بين نارين، نار العقل الذي يقول له كفى، ونار القلب الذي يقول له جرّب مرة أخرى.. ربما.

استيقظت ندى من نومها على صوت أمها توقظها لتذهب لعملها، وتطمئنها أنها ساعدت سميحة حتى ركبت أتوبيس المدرسة، نظرت ندى حولها تتأمل غرفتها متعجبة «فيها شيء مختلف حجرتي اليوم، ما هو؟ ما هو؟ لا، لا يوجد شيء مختلف في الحجرة، الشيء المختلف فيّ أنا، أنا التي أشعر أن حملاً قد انزاح عن صدري بعدما وافقت على سفر سميحة، قرار لم يكن سهلاً عليّ، ولكني لم أكن لأضيق مستقبلها لرغبتني في الاحتفاظ بها بجانبني طوال عمرها، كأنها طفلة صغيرة، الحمد لله الذي ساعدني على اتخاذ القرار السليم بعد طول تردد».

لحظات وأيقنت ندى أن فرحتها منقوصة، فلا يزال يتبقى لها موضوعان تحتاج أن تنهيهما حتى تشعر فعلاً بالراحة، لديها الهم الأكبر، الإيميل الذي ستبعث به لطارق لتشرح له فيه كل شيء، ثم التواصل مع مالك من أجل أن تُرجع له سلسلته وتسترد خاتم والدها، حتى تقفل هذه الصفحة أيضاً من حياتها، وكما يقال «تبدأ على بياض».

فتحت كومبيوترها وهمت بكتابة الإيميل لطارق، عندما تذكرت أنها يجب أن تذهب لعملها على الفور.

«لا توجد مشكلة، سأكتبه في المجلة أو عندما أعود، عمومًا هذا الموضوع انتهى ولا ينقصه سوى هذا الإيميل».

«طارق.. لا أعلم كيف ومن أين أبدأ؟ سأبدأ معك مما تعرفه مسبقًا، وهو أنني بالفعل تعلقت بك وبكل ما تفعله معي، تعودت على وجودك في حياتي، عرّفتني على مشاعر لم أكن أعلم أنني أستطيع الإحساس بمثلها، جعلتني أشتهيك، وهذا أمر صعب عليّ الاعتراف به، فأنا لست امرأة شهوانية تتحكم فيها رغباتها، ولكن الاعتراف بالحق فضيلة، لقد عرّفتني أشياء عن نفسي أنا شخصيًا كنت أجهلها، عرفتني أحاسيس ومشاعر لم أكن أتخيل أنني يمكن أن أشعر بمثلها يومًا، لقد تعرفت معك على جانبٍ مني لم أكن أتخيل أنه موجود، معك كنت كالطفلة التي تذهب لمدينة الملاهي لأول مرة، تتعرف على دنيا جديدة عليها، بصراحة لم أكن أتخيل أنك يمكن أن تترك في مثل هذا الأثر، فأنا أقوى، أو كنت أتخيل أنني أقوى من أن أنقاد وراء شخص أيًا كان.

نعم لا أنكر أنني أعجبت بك جدًا وتعلقت بك وبعلاقتنا، ولكنني كنت دومًا صريحة معك، لذا يجب أن أعترف لك، آسفة أنني لم أحبك الحب الذي يجعلني أرغب أن أمضي بقية حياتي بجوارك، وأعلم أنك أيضًا لم تحبني هذا الحب، أنت أحببت ندى الأنثى التي رغبت فيها، أنت تعلقت بندى صعبة المنال التي لم تنلها، ندى التي رفضت عرض زواج عرضته عليها وهي ضعيفة بين يديك في الإسكندرية، أحببت هذه الصورة من ندى المرأة الناضجة القوية التي وهي بين يديك تتلاشى قوتها وتتحول لطفلة صغيرة لا حول ولا قوة لها.

أنت كالطائر، حر طليق، أو كما يقال روح حرة لا تحب ما يقيدها، وإذا حدث وتزوجنا لم تكن لتتحمل حياة زوجية كاملة بالتزاماتها وقيودها، لم تكن لتتحمل أطفالاً ومسؤوليتهم، وبعد فترة كنت ستكرهني وتكره نفسك، وأنا

متأكدة أنني إذا وافقتك على الزواج أكون كمن وافقت على كتابة عقد زواجنا على ورقة طلاق، لا أريد أن أخسرك كصديق، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أقبل بك زوجًا؛ آسفة يا عزيزي.. آسفة جدًا.

ملحوظة: أنت سألتني إذا كان هناك رجل آخر في حياتي، والإجابة هي لا، أنت آخر صفحة في كتاب حياتي السابقة، صفحة يجب أن تُغلق من أجل أن أبدأ من جديد. وما زلت مُصرّة أكثر من ذي قبل أنني أريد لما بيننا أن يتحول لعلاقة صداقة جميلة تُبقينا على تواصل، فأنت كنت وستكون دائمًا ظهري وسندي الذي أشعر بالأمان لوجوده في حياتي».

كان أصعب شيء بالنسبة إلى ندى هو الضغط على زر «إرسال» لهذه الرسالة، فبهذه الضغطة تنهي علاقة مع شخص تعلّقت به وارتبطت به لفترة طويلة، ولكنها كانت ضغطة زر ضرورية وفي التوقيت المناسب.

وظلت ندى في حالة ترقب وتوتر منذ ضغطت على زر الإرسال، حتى جاء لها بعدها بأيام رسالة مقتضبة على موبايلها «أشكرك على صراحتك وأعتز بصداقتنا.. طارق»، كلمات قرأتها ندى بحدسها الذي أنبأها أن هذه هي نهاية علاقتها بطارق، علاقة لم يتبقّ منها شيء، ولا حتى الصداقة، فعندما يكون كل ما لدى طارق ليقوله ردًا على رسالتها هي هذه الكلمات، إذا فهناك كلمات كثيرة أخرى غير مكتوبة بين حروف هذه الرسالة، فكبرياء طارق لم تكن لتسمح له بالاستمرار في علاقة أيًا كان نوعها مع امرأة رفضته، هو الذي لم ترفضه امرأة من قبل، كما كان يقول لها دومًا، وفي اللحظة التي جاءتها هذه الرسالة تأكدت أن صفحة علاقتها بطارق قد أغلقت للأبد.

عدد من الأيام قضتها ندى ما بين عملها وابنتها وأمها، أيام مرت بها في
ظاهرها أيام عادية كباقي الأيام، ولكن الحقيقة أنها بالنسبة إليها لم تكن
هكذا.. بالعكس كانت أيامًا ثقيلة على قلبها، الذي اعترته مشاعر كثيرة
متضاربة.

«هل أخطأت عندما رفضت أن أعطي فرصة لطارق؟ هل أخطأت عندما لم
أحاول إنجاح علاقتنا؟ لماذا لم أعطِ فرصة لهذه العلاقة؟ ربما كانت لتنجح،
فحتى العلاقات التي تبدأ للأسباب العادية مثل الخوف من الوحدة أو
الانجذاب الجسدي أو من باب الواجب أو التعمُّد يمكن أن تتحول لعلاقة حب
قوية، ولكني لم أكن لأحبه، وخصوصًا أن مالك -مع الأسف- كان يسكن قلبي.
لا، قلبي لم يكن مشغولًا بمالك وقتها، بالعكس، لقد كان في مكانه في خانة
الذكريات، ولم يكن يأتي على بالي كثيرًا، عمومًا فات أوان الندم، فلقد انتهى
كل ما بيننا لحظة ضغطي على زر إرسال الإيميل، أتمنى أن يتصل بي مالك
قريبًا لأسترد منه خاتم والدي وأعطيه سلسلته، حتى أتمكن أيضًا من غلق
هذه الصفحة من حياتي للأبد وأتفرغ لسميحة».

وبالفعل كانت سميحة هي شغل ندى الشاغل في الفترة التي تلت انفصالها
عن طارق، فلقد أفرغت لها ندى كل وقتها تقريبًا، بعد أن تنتهي من عملها
وحتى تدخل سميحة حجرتها في المساء لتنام، لم تكونا تفترقان، حتى
دروس الموسيقى لم تعد ندى توصلها وترجع تصطحبها حين تنتهي، بل
كانت تحضرها كاملة مع ابنتها، فهي كانت تدرك قيمة هذه الأشهر الباقية قبل
سفر ابنتها، أوقات ثمينة كانت تعرف أنها ستفتقدها عندما تسافر صغيرتها
وستفتقدها أكثر كلما كبرت واستقلَّت بحياتها، أيام قضتها ندى كأنها تلف في

الكراسي المعلقة في الملاهي، ليس لديها وقت للتفكير في أي شيء، كأنها
ماكينة مبرمجة على شيء واحد فقط، ألا وهو سميحة.

لذا عند أول غياب لسميحة في إجازة قصيرة مع أبيها في العين السخنة،
شعرت ندى بفراغ شديد، وقضت أول ليلة لها وحدها كالطفلة الصغيرة
المذعورة، يجافيه النوم كأنها خائفة من شيء ما، مع أنها لم يكن لديها ما
يخيفها، سوى نفسها وعقلها الذي يستغل أي فرصة تكون غير مشغولة
ليذكرها بالقديم والجديد، يُذكرها بزواجها من إسماعيل وحياتها معه، يؤنبها
على الوقت الذي أضاعته من عمرها تفكر في مالك وتنسج قصصًا في خيالها
حول شكل حياتهما معًا، يجعلها تشعر بالندم أنها لم تعطِ فرصة لعلاقتها
بطارق ربما كانت نجحت.

وكالعادة ظهرت آثار ليلة الذكريات التي عاشتها ندى بالأمس على كلماتها
التي كتبتها في مدونتها، ما أن فتحت عينيها صباح اليوم التالي.

لحظة الضعف هي اللحظة التي نكون فيها في حالة من الألم الصامت
المصحوب بحزن أو إحباط، أو حتى حالة من الملل أو التوتر، لحظة تكون
فيها مشاعرنا مثل قطعة من البسكويت، أي كلمة قد تكسرنا.. لحظة الضعف
هذه لا تحتاج أكثر من شعور باحتواء ضعفنا وحزننا وتعبنا، لحظة الضعف
هذه هي التي تخبرنا من قريب منا، ومن الشخص الذي نشعر معه بالتوحد
فإنجأ إليه ليحتوي ضعفنا.

لحظة الضعف من وجهة نظري لحظة في منتهى الحميمية، نلجأ فيها لمن
نعلم أننا منه وهو منا.

في لحظات ضعفكم ابحثوا عنم تشعرون معه بذلك، وتمسكوا به جيداً.

«توجد دائماً هذه المنطقة الغامضة في فضضة أي أنثى مع نفسها، تلك المنطقة التي تريد نسيانها، أو بمعنى أصح تناسيها.

يوجد هذا الشخص الذي مرَّ بحياتها وترك جرحاً على جدار روحها وذهب، كأنه أبداً لم يكن موجوداً.

توجد تلك المشاعر الجميلة التي شعرت بها ولا تريد أن تُخرج ذكراها من داخلها، حتى لا تشعر بألم فقدانها.

يوجد هذا الندم على تصرف كانت تتمنى أن تقوم به، ولكنها لم تفعله، وتتمنى لو يعود بها الزمن لتفعله.

تلك الضحكة من القلب في لحظة سعادة هي تعرف أنها لن تتكرر.

تلك الدمعة التي نزلت في لحظة ضعف وخبأتها عن الجميع.

تلك الكلمات التي تراجعت عن النطق بها في آخر لحظة وتتمنى لو كانت قالتها.

ذاك الشجن الكامن بداخلها ولا تستطيع أن تحكي عنه لأحد، لأنها لا تعلم له سبباً.

هذا الحنين الغامض لأمسٍ ذهب بكل ما فيه، حنين يأكلها من الداخل ولا تستطيع التصريح به.

تلك الصرخة المكتومة التي تتمنى أن تقف في مكان خالٍ لتصرخها، فتُخرج ما بداخلها من ألم.

سيبقى دومًا بداخل كل منا قطعة صغيرة مكتوب عليها ممنوع الاقتراب».

كلمات فضفضت بها ندى لنفسها على صفحات مدونتها، كلمات عادية ولكنها صادقة، لأنها نابعة من أعماقها، وتوقعت لهذه الكلمات ردات أفعال كثيرة من قارئاتها، فأكيد كثيرات يشعرن بما تشعر به ندى، كثيرات تطوق أنفسهن لمن يفضفضن له، كثيرات لديهن هذه المنطقة الغامضة في أي كلمات ينطقن بها، ردات أفعال شتى توقعتها ندى لهذا المقال، سوى ردة الفعل التي جاءت لها في رسالة على الإيميل، لقد استيقظت صباحًا على صوت موبايلها يخبرها أنها استلمت رسالة جديدة على الإيميل، فتحتها لثفاجأ أنها من كاتب الرسائل المجهول الذي كانت تتبادل معه الرسائل منذ فترة طويلة.

«صباح الخير يا ندى..»

أعلم أننا لم نتواصل منذ فترة طويلة، ولكني كما تعلمين متابع جيد لكتاباتك، سواء في المدونة أو المجلة، وبالأمس عندما قرأت كلماتك التي كتبتها على مدونتك شعرت بك، كأنك بحاجة لمن يحمل عنك وتففضضين معه، كلماتك هذه كانت بالنسبة إليّ كإشارات الاستغاثة التي تطلقها السفن العالقة في عاصفة وسط البحر، شعرت بك تستجيرين بكلماتك من نفسك.

أرجوك يا ندى، دعيني أكون منارتك التي تنير لك الطريق من بعيد، دعيني أكون لك الأذن التي تسمع أنينك والقلب الذي يحتوي آلامك، أعلم أننا لم نتواصل منذ أشهر، منذ توقفت عن الرد على رسائلي، وقتها حاولت تفهم دوافعك، واحترمت رغبتك التي لم تنطقي بها، وابتعدت، ولكني الآن بعدما قرأت كلماتك على المدونة شعرت كأنك تغرقين وتحتاجين إلى يد تسحبك لبر الأمان.. خذي يدي يا ندى».

رسالة قرأتها وهي تشعر بذهول، كيف لكاتب الرسائل هذا أن يشعر بها بهذه الطريقة من خلال كتابتها وكلماتها، تعجب صحبها اليوم كله وشغل تفكيرها بطريقة مبالغة.

«من المعتاد أن يشعر بك من يعرفك جيدًا، ونحن علاقتنا كانت علاقة خيالية في عالم افتراضي، علاقة وأدثها في بداياتها، ولكن ها هي تظهر مرة أخرى على سطح حياتي. ما هذه اللعبة الغريبة التي يلعبها القدر معي، كلما أغلقت صفحة قديمة في حياتي يأتي لي بأخرى، كأنه يأبى أن أغلق هذا الفصل من حياتي، كأنه لا يريد لي أن أبدأ من جديد. غريب أنت أيها القدر وغريبة الأعييبك معي.. والآن أنا موضوعة بين شقي الرحي، بين قرارين، إما أن أرد على كاتب الرسائل بكلمات مجاملة مقتضبة يفهم منها أنني لا أرغب في التواصل معه مرة أخرى، وإما أتجاهل رسالته هذه كأني لم أقرأها».

ولكنها مع نهاية اليوم كانت قد عزمت أمرها. لن ترد عليه، فهي لا تريد أن تفتح أبوابًا قد سبق غلقها، فيكفيها ما تعانیه حاليًا من ضغط عصبي جزاء محاولتها بدء مرحلة جديدة في حياتها، لا يفصلها عنها سوى خطوة واحدة.. اتصال من مالك.

ثاني يوم صباحًا كان أول شيء فعلته ندى ما أن فتحت عينيها، هو مراجعة الإيميلات التي جاءت لها، كأنها كانت تتوقع إيميل آخر من كاتب الرسائل، ولكنها لم تجد ما توقعته، ولأيام بعدها تكرر نفس توقعها، وكانت النتيجة نفسها، لم يأت لها إيميلات من كاتب الرسائل، تعجبت كثيرًا من نفسها، فهي تريد غلق الملفات القديمة وترفض مثل هذه العلاقات الافتراضية، وفي نفس الوقت تجد داخلها سعادة تحاول أن تنكرها، سعادة مصدرها كلمات كاتب الرسائل واهتمامه بها، فالاهتمام سلاح سحري يأسر العقول ويُلين القلوب.

مر عليها وقت طويل حتى استيقظت في أحد الأيام على صوت رسالة واردة لها على موبايلها، نظرت لاسم صاحب الرسالة، وجدته مالك، «أخيرًا تذكر مالك أننا تبادلنا أرقام تليفوناتنا! وأخيرًا بعث لي بعدما قد وعدني أن يتصل بي! كنت قد توقعت أن يتصل بي فورًا. لا يا ندى هو لم يعدك بالاتصال، هو قال لك أعطيني رقمك لتواصل. حتى لو كان الأمر كذلك لماذا انتظر كل هذه المدة؟ لماذا لم يتصل بي على الفور؟ ما الذي أوحى لك يا ندى خلال لقاءكما القصير في شرم الشيخ أنه سيتصل بك سريعًا؟ أفيقي يا ندى؛ من الواضح أنه مرتبط ارتباطًا جديًا، فقد رأيت بعينيك بطن زوجته أمامها، ومن الواضح أن قصتكما في السفينة كانت بالنسبة إليه مغامرة عاطفية جميلة في رحلة بحرية، وذهبت لحالها.. هيا افتحي رسالته واقرئيها، هيا لتغلق هذه الصفحة أيضًا من حياتك، مالك هو آخر صفحات هذا المرحلة، وبغلقها ستبدئين حياة جديدة».

مدّت ندى يدها وداست على زر فتح الرسالة، لثفاجأ بصدمة عمرها، نفس الكلمات التي حملها إيميل كاتب الرسائل هي نفسها الكلمات التي تقرأها الآن

في هذه الرسالة، عاودت ندى مراجعة الاسم ومضاهاته برقم مالك الذي كتبتة في ورقة قبل أن تُسجله على موبايلها، عندما أخذته منه في شرم الشيخ. هو نفس الرقم، ولكن كيف؟!

اتصلت بالرقم الذي بعث لها الرسالة على الموبايل لتتأكد من هوية صاحبه، وبالفعل:

- أ.. أ.. ألو، هذا الرقم بعث لي برسالة منذ قليل، ممكن أعرف من معي؟

- ندى.. أنتِ لم تسجلي رقمي الذي أعطيته لك؟ شكرًا على التجاهل.

تأكدت ندى أن الشخص الذي يحدثها هو مالك:

- أهلاً يا مالك، عفوًا أنا لا أفهم شيئًا، كيف يكون...

- لا تتعجلي.. إنه أمر يطول شرحه. هل يمكن أن نلتقي؟ هذا طبعًا إذ لن

يتسبب لك لقاءنا في مشكلة. وسأشرح لك كل شيء.

- تمام، لا مشكلة، متى نتقابل؟ وأين؟

- سأترك لك تحديد الزمان والمكان بما يتناسب مع ظروفك، وحتى لا أتسبب

لك في مشكلة.

اتفقت معه ندى على أن يتقابلا غدًا بعد الظهر في الكافيتريا التي بجانب المجلة، فهي لم تكن متأكدة من ردة فعلها أمام مالك، لذا أرادت أن تكون في

مكان تعرفه جيدًا، مكان تستمد القوة والأمان بين جوانبه، مكان تستجير

بالوجوه المعتادة فيه من ضعفها أمامه.

قلوبنا خزائن مغلقة على ما فيها، مغلقة على ذكريات، على فرح وآهات، على
ابتسامات ودموع، على لحظات جميلة نريد أن نحتفظ بطعمها داخلنا العمر
كله، ولحظات أخرى مؤلمة نتمنى أن يرجع بنا الزمن فنمحوها.. دعوا قلوبكم
مغلقة على ما فيها، وعيشوا حاضرکم بكل تفاصيله.

استيقظت ندى صباحًا وهي تشعر بصداع قوي، كأن شيئًا ما كان يدق على رأسها طوال الليل، فهي لم تنم جيدًا. غفوات متقطعة يتخللها تفكير وتحليل وربط أحداث.

«إذًا مالك هو كاتب الرسائل، هو من تواصل معي حينها، هو من تعلقت به، هو من شدتني كلماته.. إذا كان هذا هو الأمر لماذا لم يكشف لي عن شخصيته الحقيقية في إيميالاته؟ لماذا لم يفصح لي أنه مالك؟ ما هذه اللعبة الغريبة التي لعبها معي؟».

تساؤلات شتى صحبتها طوال الليل حتى الصباح، ثم بدأت تُجهِّز نفسها كعادتها كل صباح للذهاب لعملها، عندما تنبتهت أن اليوم ليس يومًا عاديًا، فاليوم مختلف، ستتقابل هي ومالك بعد فترة غياب طويلة، يجب أن تكون مختلفة ومتألقة.

«يجب أن أكون اليوم في قمة تألُّفي، يجب أن ألبس أحلى ملابس، سأذهب أولاً للكوافير ثم أرجع أرتدي ملابس، يجب أن أجعله يندم على عدم إكمال قصتنا التي بدأناها، سأرتدي هذا الفستان الأزرق الذي ارتديته هذه المرة في الإسكندرية، فأنا أكون متألقة في هذا الفستان. لا، لا أستطيع أن ألبس هذا الفستان بالذات، فهو يحمل ذكرى هذا اليوم، ويحمل رائحة طارق بين خيوطه، لا، يجب أن أختار شيئًا آخر لألبسه».

وقفت ندى لدقائق أمام دولا ب ملابسها المفتوح تتأمله، عندما وقعت عيناها على هذا الفستان المُخبَّب بعناية في أحد جوانب الدولا ب، هذا الفستان الوردى ذو الفراشات الزرقاء الصغيرة، الذي اشترته من أحد بوتيكات السفينة، من أجل آخر ليلة لهما معًا هي ومالك، ارتدته له في تلك الليلة واحتفظت به بعدها مخبَّب بعناية في جانب دولا بها، كأنه فستان زفافها وتخاف عليه من عوامل الزمن، حرَّمته على نفسها، فهي تعتبره ملكًا خاصًا لمالك، لا يحق لشخصٍ آخر غيره أن يراها ترتديه. هذا ما قالت له لنفسها، ولكن في الحقيقة هي كانت تخبئه من نفسها، حتى لا يُذكَّرها بما تحاول نسيانه، حتى لا يحيي بداخلها نار شوق لو أشعلتها لن تستطيع إطفاءها بسهولة، ولكن في أحيان كثيرة عندما كان يأخذها الحنين لمالك كانت تُخرجه من مخبئه في الدولا ب تحتضنه وتستعيد معه أحداث ليلتهما الأخيرة معًا، ثم تعيده مكانه بمنتهى الحرص.

دخلت ندى الكافيتريا في هذا اليوم كعروس في أوجِّ تألقها، دخلت تبحث عنه بعينها وهي متأكدة أن قلبها كالعادة هو الذي سيدلها على مكان جلوسه، بحثت عنه كثيرًا ولم تجده، كاد الغضب أن يتمكن منها، فها هو في أول لقاء بينهما بعد انقطاع طويل يتأخر، لكنها أيقنت بعدها بلحظات أنها هي التي جاءت مُبكرًا نصف ساعة عن الموعد المتفق عليه.

جلست تحتسي كوبًا من عصير الليمون بالنعناع، مشروبها المفضل المناسب لتوترها.

«ما هذا التوتر يا ندى؟! تمالكي نفسك! كيف لي أن أتمالك نفسي وأنا في انتظار هذا اليوم منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام؟ يا الله.. ساعدني لأتخطى

هذا اللقاء، واعطني القوة حتى لا يظهر ضعفي أمامه، فما زالت قصتي معه هي نقطة ضعفي الوحيدة، قصة لم أتمنَّ لها هذه النهاية، ولكنه القدر والنصيب. لا ليس القدر والنصيب فقط، ولكنه قرار مالك أيضًا، الذي لم يحاول التواصل معي بعد رحلة السفينة».

دقائق ووجدته يقف أمامها مرتديًا أيضًا نفس القميص الذي ارتداه آخر ليلة لهما معًا.

«ما هذا؟! لا يمكن أن يكون القدر يلعب معي هذه اللعبة! فها هو يلبس القميص الأزرق الذي ارتداه في آخر لقاء لنا على السفينة، كأننا اتفقنا أن نلبس ما كنا نرتديه آخر مرة لنا معًا، كأن القدر يريد أن يوصل لنا رسالة. كفاك أيها القدر، كفاك أرجوك، لم أعد أستطيع أن أجاريك فيما تفعله، لم يعد بي طاقة لتفسير ما تفعله معي».

نظر إليها مالك نظرة مُطوّلة بابتسامة على وجهه:

- أجلس أم أنتظر انتهاءك من حوارك مع نفسك؟

احمرَّ وجه ندى خجلاً، فهي لم تتنبه لمرور دقائق وهو يقف أمامها. وما أن جلس حتى طلب لنفسه كوب ليمون بالنعناع مثل ندى، ثم طلب فنجانًا من القهوة، وكل هذا وهما الاثنان يجلسان متقابلين، لم يتبادلا أي حديث يُذكر، حتى قطع مالك الصمت:

- أرجو ألا يُسبّب لك لقاءنا هذا أي مشكلة شخصية، فهذا لقاء عادي بين أصدقاء قدامى.

كلماته أثارت غضبًا شديدًا في نفس ندى، حاولت إخفاءه، ولكنه ظهر بين كلماتها التي خرجت من فمها كطلقات رصاص:

- أولاً يا مالك نحن لسنا بأصدقاء قدامى، نحن اثنان جمعهما القدر في رحلة بحرية وافترقا بعدها كل لحاله.

ظهر الغضب على ملامح مالك، وكاد أن يقول شيئًا عندما قاطعته ندى بنبرة حادة:

- بعد إذنك، قبل أي شيء أحتاج منك تفسيرًا لموضوع الإيميلات والشخصية المزيفة التي كانت تتحدث معي، ودوافعك، هل كنت تتسلى؟ هل كانت لعبة أخرى من الأعييب أم ماذا؟

- لعبة وأتسلى والأعييب؟! أعتقد أنك تعرفيني أفضل من ذلك لتشككي بي وفي نوايايا بهذه الطريقة.

- أعرفك؟! لا، أنا لم يتسن لي الوقت أن أعرفك، أنت كنت بالنسبة إلي كما كنت بالنسبة إليك، مغامرة لطيفة في رحلة بحرية، وذهبت لحالها.

نظر مالك حوله بعصبية شديدة، ثم قام فجأة من على كرسيه دون أن يوجّه لها أي كلمات، دقائق وعاد وقد ظهر الهدوء على وجهه.

- ندى.. بعد إذنك، أحتاج أولاً أن أضع بعض النقاط على الحروف، حتى أستطيع أن أشرح لك موضوع الرسائل التي كنت أبعث لك بها، دون الإفصاح عن هويتي، لأن...

قاطعته ندى بنبرة ساخرة:

- لا تقل لي إنك كنت تبعث بتلك الإيميلات دون الإفصاح عن شخصيتك الحقيقية من أجل سلامتي وسلامة سميحة، صح؟

ظهر التعجب الشديد على وجهه:

- أنتِ تسخرين مني يا ندى؟

- طبعًا أسخر منك، أتختفي لمدة ثلاثة أعوام دون أي محاولة للاتصال بي، ثم أكتشف أنك كنت تراسلني دون أن تفصح عن شخصيتك لي؟ إذا لم يكن هذا غير داعٍ للسخرية فماذا يكون؟! هو بصراحة كان مدعاة أن أرفض مقابلتك أصلاً، ولكنني قابلتك من أجل أن آخذ خاتم أبي وأعطيك سلسلتك، فأنا في مرحلة في حياتي أغلق فيها كل الصفحات القديمة، ولا أريد أن أترك مسائل معلقة، حتى لو كان موضوعًا بسيطًا مثل قصتنا.

فترة صمت طويلة أعقبت كلمات ندى، بدأ بعدها مالك في الحديث مرة أخرى بنبرة فيها حزن غامض، لم تجد له ندى تفسيرًا، فهي المجني عليها في هذه القصة وهو الجاني، هي التي انتظرتة شهورًا وشهورًا، وهو الذي مسحها من تفكيره بمجرد نزوله من على السفينة:

- أستأذِنك يا ندى، أحتاج أن أخرج من هذا المكان، أريد مكانًا مفتوحًا؛ لم أعد أستطيع الجلوس في مكان مغلق طويلًا، ثم أحتاج أيضًا أن أدخّن سيجارة، طبعًا إذا لم يسبب هذا لك مشكلة في البيت.

وافقته ندى وهي تتعجب مما قاله للتو، «مشكلة في البيت! ما المشكلة تلك التي يتحدث عنها؟! ومنذ متى لا يستطيع أن يجلس في مكان مغلق؟ ويحتاج أن يدخن! مالك لم يكن يدخن أصلاً! ممّ تتعجبين يا ندى؟ مدة معرفتك بمالك لم تتعدّ الأيام، ومنذ سنوات مضت، فمن الطبيعي ألا تكوني تعرفين كل ما يخصه ويخص طباعه، فمن الوارد أن يكون تغير فيه الكثير خلال هذه المدة».

تركت ندى الكافيتريا وهي ترتجف من القلق، فهي تخاف من نفسها ومن ضعفها أمامه، ولكنها خرجت، فهي كانت تريد أن تصل لآخر هذا الموضوع، تحتاج أن تُخرج مالك أيضاً من معادلة حياتها، حتى تستطيع أن تبدأ صفحتها الجديدة، تلك الصفحة التي تتوق إليها نفسها.

في حياة كل منا لحظة فارقة لا تعود الحياة بعدها مثلما كانت، هذه اللحظة ليست بالضرورة أن تكون مواقف مؤلمة تعرضنا لها أو كلمات جارحة وُجِّهت إلينا، ليست بالضرورة أن يكون قائلها أو فاعلها من أقرب الناس إلينا، يمكن أن يكون شخصاً غريباً عنا، فالعبرة ليست بالشخص ولكن بأثر الموقف علينا وعلى نفسيتنا، باللحظة التي يقابل فيها هذا الموقف هذه النقطة المعينة داخلنا.. تلك هي اللحظة الفارقة.

خرجنا من الكافيتريا، وبدأ مالك في التحرك وندى بجانبه، دون تبادل أي حديث يُذكر، أرادت أن ترفض، تمنيت أن تستطيع أن تصرخ فيه وتقول له إنه لم يعد يمثل لها أي شيء، ولكنها ستكون كاذبة، فهي تنتظر هذا اللقاء منذ زمن بعيد، وتريد أيضًا أن تفهم منه كثيرًا من الأشياء، أكملت بدون أي مقاومة، دقائق كانت أو ساعات لم تشعر، ولكنها وجدت نفسها في النهاية تقف على كوبري الجامعة بجانب مالك، يتأملان معًا غروب الشمس:

- بعد قليل سيتسنى لك الاستمتاع بأحب المناظر إلى قلبك، فالليلة القمر مكتمل، وها نحن على كوبري الجامعة، مكانك المفضل لمشاهدته.

الاندهاش الذي أصاب ندى أفقدها النطق؛ ها هو يتذكر إحدى تفاصيلها الصغيرة التي حكت له عنها منذ سنوات مضت.

نظرات الاندهاش والتعجب التي ارتسمت على وجه ندى أثارت عنده رغبة مُلحة في الضحك، حاول كتمانها حتى لا يُغضبها، ولكنها نظرت إليه وقالت له بنبرة حاسمة:

- نحتاج أن نجلس في مكان حتى نتحدث، هناك الكثير الذي أريد أن أفهمه منك.

وصلا لإحدى الكافيتريات المطلة على النيل، وجلسا يستمعان إلى الموسيقى الصادرة من السماعات التي تملأ المكان، ثم سألته ندى نفس السؤال مجددًا،

عن رسائله لها دون أن يفصح عن شخصيته.

- تريدين الحقيقة يا ندى؟ متأكدة أنك ستتحملين هذه الحقيقة؟ كنت أتواصل معك من خلال تلك الرسائل لأنني كنت أريد أن أتواصل معك بأي طريقة، ولو من بعيد.

- تواصل من بعيد؟! لماذا يا مالك؟ لم تكن تحتاج لكل ذلك، رسالة واحدة مذيّلة باسمك كانت تكفي لتقابل وجهًا لوجه بدلاً من هذه اللقاءات الغريبة وراء أزرار الكمبيوتر.. لماذا؟

- لماذا يا ندى؟! أتسألين فعلاً؟! كيف لي التواصل معك وأنتِ على ذمة رجل آخر؟ كيف لي أن أبعث لك وأقول اشتقت إليك وأنتِ ملك لرجل غيري؟ أكنت أكتب لك لأشرح لك كم أحتاجك وكم كنت أحلم باللحظة التي نلتقي فيها ثانية؟ أكنت أحكي لك عن شوقي وحنيني إليك الذي يأكلني، أم شعوري بالاحتياج لأرتمي باكيًا في حضنك مثل آخر لقاء بيننا، أم كنت أقول لك إنني لم أكف عن التفكير فيك لحظة منذ تركتك هذه الليلة في السفينة، أم...

قاطعته ندى:

- أنا جد مذهولة! لماذا؟ ما الذي منعك؟ أنت تعرف ماذا كنت تعني بالنسبة إليّ.. لماذا؟ عمومًا فات الأوان على ذلك، فمن الواضح أنك سعيد في زواجك مع المرأة التي رأيتك بصحبتها في شرم الشيخ. صحيح الرجال يتمتعون بذاكرة السمكة فيما يخص الحب. ثم ما حكاية ملك لرجل آخر وعلى ذمته

و...

- ماذا يعني سعيد في زواجي وذاكرة سمكة؟ أنتِ التي لم تنتظري كما وعدتني، أنتِ التي قررتِ الرجوع لزوجك السابق.

- الرجوع لزوجي السابق! من أين لك بهذا الكلام؟ أنا لم أرجع لزوجي السابق، وكل الذي بيننا منذ انفصلنا قبل سنوات هي سميحة فقط لا غير، من أين لك بمثل هذا الكلام؟

- من سميحة نفسها.

- سميحة نفسها؟! أين ومتى رأيت سميحة يا مالك؟ أنت تسخر مني؟ لا حاجة لك لخلق حكاية تُبرر لك ما فعلته معي، فأنت حر، فنحن لم يكن بيننا وعود من أي نوع.

- ندى.. منذ ما يزيد عن العامين بعدما انتهيت من مهمتي التي كنت ذاهبًا فيها رجعت مصر وبحثت عنك كثيرًا، وأسعفتني الذاكرة بتذكر اسم مدرسة سميحة الجديدة التي حكيت لي عنها أثناء الرحلة، وذهبت إليها بالفعل هناك، ووجدت المدرسة مغلقة بسبب إحدى الإجازات الرسمية، أعتقد أنه كان عيد نصر أكتوبر، وفي اليوم التالي للإجازة ذهبت إليها وانتظرتها على باب المدرسة على أمل أن أجدك هناك في انتظارها، ولكني لم أجدك، ورأيتهما بصحبة والدها، وناديت عليها، وجاءت وارتمت في حضني كما اعتادت أن تفعل في السفينة، ثم ذهبت لوالدها الذي ناداها وتحدثا حديثًا مقتضبًا وتركها وركب السيارة وانتظرها فيها، بينما هي جاءت إليّ وتحدثنا قليلًا، وحكت لي عن مدرستها وعن عمك الجديد وحتى عن سفرك في مهمة صحفية في الإسكندرية.

كانت ندى تستمع له والذهول يملؤها، فها هو يحكي لها أشياءً أول مرة تعرفها، ثم أكمل:

- وفي آخر حديثنا طلبتُ منها رقم تليفونك، عندها تغيرت ملامح وجهها وظهر فيهما حزن غريب، ووجهت لي حديثًا عميقًا لا يخرج من طفلة في الحادية عشرة من عمرها، قالت لي إنك وإسماعيل على وشك الرجوع من أجلها، وأفهمتني أنها تعلم ما بيننا بعدما سمعتك تحكي عني لجدتها، وترجّحتني أن أبتعد لأن ظهوري سيحول بينك وبين رجوعك لوالدها، يومها شعرت بها، فهي طفلة صغيرة كل أمانها أن تجتمع بأبها وأبيها تحت سقف واحد، ووعدتها أن أنسحب، وتركت معها باقة من الزهور البيضاء وبها وردة واحدة حمراء، طلبت منها أن تعطيها لك وتبلغك أنها قابلتني وأني أبلغك عن طريقها أنني سأسافر خارج البلاد لمدة طويلة، وبالفعل بعدها بفترة قصيرة سافرت لوالدي وأختي في الأردن، ورجعت بهما إلى شرم الشيخ، حيث نعيش هناك الآن بعدما أغلقت فرع مطعمي في القاهرة وفتحت فرعًا له في شرم الشيخ، وكنت متابِعًا لكل كتاباتك في المجلة وفي مدونتك، وعندما بدأتِ تكتبين عمودك الثابت ومن بعده صفحة بريد القُرّاء وجدتُها فرصة لأتواصل معك وأقترب منك دون أن أفصح لك عن شخصيتي، حتى لا أهدم بيتك وأنكث بوعدتي لسميحة.

سمعتُ ندى هذه الكلمات وشعرت بدموع ساخنة تنزل من مقلتيها، فها هو مالك أمامها بينها وبينه خطوات، ولكنها لا تستطيع الاقتراب منه، لا تستطيع الارتقاء بين أحضانه لتعوّض عطش السنين، فهو الآن لديه حياة أخرى هي

ليست فيها، ومرتبطة بواحدة أخرى، ومن المؤكد يحبها وتحبه وينتظر منها طفلاً.

- لماذا البكاء يا ندى؟ لماذا؟ أرجوكِ لن أتحمّل رؤية دموعك، فدموعك غالية يا غالية. أرجوكِ أفهميني ما جرى.

قالها وهو يمسح دموع ندى بأطراف أصابعه.

وقعت ندى في حيرة شديدة، فماذا تقول له؟ ما العمل الآن وهو قد بدأ حياة ثانية؟ كيف تحكي له؟ وماذا ستقول؟ كبرياًؤها لن تسمح لها أن تحكي له أي شيء الآن، فهي لن تهدم أسرته من أجل حب لم تُكْتَب له النجاة.

«ماذا أقول له عن سبب بكائي؟ كيف أشرح له ما حدث؟ أنا نفسي لا أجد له تفسيرًا، التفسير الوحيد عند سميحة، هي التي بيديها مفتاح القصة كاملة، مع أنني خَمَّنت ما جرى يومها».

ووجدت ندى أنه لا مفر من إنهاء اللقاء الآن، فهي لا تريد أن تُظهر ضعفها أمامه، كبرياًؤها لن تحتل رؤية نظرات شفقة في عينيه. وافترقا على وعد باللقاء غدًا في نفس المكان على النيل وقت الغروب.

وطوال الطريق لمنزلها وندى تبكي بكاءً حارًا، تبكي على توأم روحها الذي جمعها الله به في رحلة السفينة ثم حرمتها منه أنانية إسماعيل، كما حرمتها تلك الأنانية من أشياء كثيرة طوال سنوات زواجهما، تبكي على الظروف التي فرقتهم، تبكي على ما فعلته ابنتها دون قصد، بكت كما لم تبك منذ زمن، وعندما وصلت إلى منزلها مساءً كانت تشعر بثقل رهيب في صدرها،

لدرجة أن أمها شكَّت أن تكون أزمة قلبية، وطلبت لها الطبيب، الذي جاء
وبعدما كشف عليها كشفًا دقيقًا وجد أن ضغط دمها مرتفعٌ جدًّا، وأعطاه
حقنة منخفضة للضغط وقرصًا مهدئًا، وطلب منها ألا تتعرض هذه الأيام لما
يُمكن أن يوتِّرها ويسبب ارتفاع ضغطها.

- هذه المرة مرت بخير يا أستاذة ندى، ولكن المرة القادمة لن تكون مضمونة
العواقب. يا مدام مايسة، لقد قمت بكل ما يلزم، ولكن الدور عليكِ وعلى
الطفلة الصغيرة أن تبعدا عنها أي أسباب للعصبية.. الأستاذة ندى صغيرة في
السن على أن يكون ضغطها 160/120.

كلمات وجهها لمايسة ولسميحة وهو يهم بالانصراف.

ونامت ندى كما لم تنم منذ سنوات، لم تحاول أن تتحدث مع سميحة في
موضوع مالك، فهي لم تجد عندها القوة اللازمة لفتح حديث مع ابنتها الآن،
ثم ما جرى قد جرى، وهي لا تريد لعلاقتها بابنتها أن تتعرض لهزّات،
وخصوصًا أنها شهور وستسافر بعيدًا عنها. واستسلمت ندى لنوم عميق
وطويل لتستيقظ ثاني يومًا على مفاجأة.

عندما يكون مُقدَّرَ لاثنين أن يلتقيا فلا شيء يمكن أن يفرقهما، وحتى لو
افترقا مؤقتًا سييسّر الله لهما طريقة ليجتمعا مرة ثانية.. إنها القسمة
والنصيب، إنه المكتوب الذي لا مفر منه.. لذا اطمئنوا فحياتكم في أيدي أمينة.

استيقظت ندى على مفاجأة لم تعمل حسابًا لها، فكعادتها كل صباح خرجت من حجرتها بملابس النوم واتجهت للمطبخ لتعمل فنجان قهوتها الصباحية، ففوجئت بمالك يجلس في الصالون مع أمها وسميحة. لم تصدق عينيها، وظنّت أنها ما تزال نائمة وتحلم، ولكن ذراعي مالك اللتين احتوتاهما في لحظة أكدتا لها أنه لم يكن حلمًا بل واقعًا يتعدّى الخيال، هي في أحضان من حلمت به وانتظرته سنوات، هي في أحضان حبيب عمرها الذي اعتقدت أنها فقدته. لحظات وتنبهت أنها تقف في صالون بيتها في أحضان رجل -من وجهة نظر ابنتها وأمها- غريب، برغم أنه بالنسبة إليها كان أقرب إليها من النفس الذي يخرج من صدرها.

«ما هذا الذي تفعلينه يا ندى؟ أفيقي وابتعدي عن أحضانه، ما القدوة التي تقدميها لابنتك الآن؟ ثم هو الآن رجل متزوج ولا يصح ما تفعلينه. لا يمكن أن تتركي لنفسك العنان هكذا».

أبعدت ندى يديه عنها، عندما لمست شيئًا في إصبعه هي تعرفه جيدًا. «هذا خاتم أبي، ما الذي يفعله في إصبعه؟ هو لم يكن يرتديه أمس ولا في شرم الشيخ».

تساؤلات كثيرة كانت تنطق بها ملامح ندى، عندما اقترحت عليها أمها أن تغير ملابسها وتأتي ليجلسا معًا، فهناك الكثير بينهما يحتاج لتفسيرات.

ودخلت ندى حجرتها لتُغيّر ملابسها، ففوجئت بابنتها تتبعها وترتمي في أحضانها وتبكي بكاءً شديدًا وتمطرها بالقبلات:

- سامحيني يا أمي، أرجوكِ سامحيني، لم أكن أعرف أنني تسببت لك في كل هذا الألم وأنت التي كرّستِ سنواتِ عمرك كلها من أجل إسعادي فقط.

فهمت ندى على الفور أن ابنتها تتحدث عما قالته لمالك منذ سنوات مضت، عندما قابلته أمام المدرسة.

- آسفة يا أمي؛ يوم قابلت مالك أمام المدرسة كان اليوم الذي سافرت فيه، من أجل شحنة لعب الأطفال الفاسدة في الإسكندرية، يومها رأني أبي وأنا أحضن مالك فأخذني بعيدًا وسألني من يكون هذا الرجل، وعندما قلت له إننا قابلناه على السفينة وأنه كان يلعب معي وكان صديقًا لك، تعجّب من حضوره لي عند المدرسة ومعه باقة ورد، ثم قال لي إن هذا الرجل سيمنع عودتكما لبعضكما، ويومها قال لي يجب علينا إبعاده عن طريقك وإلا سيظل كلُّ منا في بيت بعيدًا عن الآخر. وطلب مني أن أقول لمالك إنك سترجعين لأبي، حتى يبتعد عنك، وحتى الورد أخذه أبي ورماه في صندوق قمامة في الشارع، وجعلني أقسم ألا أحكي لك ولا لأي شخص أنني قابلت مالك.

وصراحةً قد نسيت تلك القصة تمامًا، واليوم فقط عندما رن هاتفك ولم تستيقظي على صوته، قالت لي جدي أبعاد الهاتف عنك لئلا يزعجك، ولما رأيت اسم مالك وعرفت أنه المتصل لم أكن أنوي الرد، ولكن مع ثالث اتصال له رددت، فوجدته قلقًا عليك، وفهمت منه أنكما تقابلتما بالأمس، وأنت كنت متعبة عندما انصرفت، لهذا أتصل عدة مرات ليطمئن عليك، ولما حكيت لجدتي عن تلك المكالمة وحكيت لها القصة القديمة عندما أتى لي في

المدرسة، اتصلت به جدتي من هاتفك، وطلبت منه أن يأتي في الحال،
وبالفعل أتى وحكىنا له كل ما حدث بالتفصيل، فأصرَّ أن ينتظر حتى
تستيقظ ليطمئن عليك ويتكلم معك.

لم تعرف ندى كيف تتصرف، أتأخذ ابنتها في حضنها وتقول لها «لا تقلقي أنا
بخير وما جرى ليس خطأك، إنما خطأ أبيك الذي تصرف بأنايته المعتادة»، أم
تغضب منها وتعاقبها على ما فعلت؟ وكان الخيار الأول، أخذتها في أحضانها
وطمأننتها أنها لا تشعر بالغضب تجاهها، فهي فعلت ما فعلته دون قصد،
وتمالكت أعصابها حتى لا تأتي بسيرة إسماعيل بأي سوء، حتى لا تشوّه
صورته في نظر ابنته، ما سيؤثر سلبيًا على نفسيته، وهذا شيء لا تريده ولن
تفعله أبدًا.

دخلت مايسة الحجرة تستعجل ندى لتجهز وتخرج لمالك، وقالت لها وهي
تنظر إليها نظرة فهمتها ندى جيدًا:

- هيا يا ندى الرجل ينتظر منذ وقت طويل جدًّا يا ابنتي.

ركبت ندى بجانب مالك السيارة، ساعات والسيارة تتحرك بهما في أنحاء
المدينة بلا أي وجهة ودون أي حديث بينهما، ساعات يستمع للموسيقى
الصادرة من راديو السيارة وأصابعهما تتعانق في لقاء طال انتظاره، عندما
توقفت السيارة ونظر إليها مالك:

- حبيبتي.. يوجد كلام كثير نحتاج أن نقوله، أين نذهب الآن؟ اختاري، فأنا
لك الليلة، أنتِ تأمرين وأنا أنفذ.

نظرت إليه ندى والأسى في عينيها:

- أرجعني لبيتي، كفانا هذه الساعات التي سرقناها من الزمن، آسفة يا مالك، لن أستطيع أن أفعل ذلك، لن أهدم لك بيتك وأخذك من طفلك الذي لم يرَ النور بعد.. لن أستطيع.

- زوجتي التي تتكلمين عنها هي التي أخذتني منك، لقد تعرّفت عليها عندما جاءت لمطعمي في شرم الشيخ عدة مرات، وعرّفتني بنفسها، وأنها تعمل مُدرّسة في مدرسة دولية في شرم الشيخ، وتوطدت بيننا العلاقة، ولا أنكر أنني تعلقت بها وأحببتها، ولكن ليس كحبي لك.. لا تقلقي من ناحيتها، هي كانت تعرف أن قلبي يشاركها فيه أخرى، ولكنها وعدتني أن تتحمل وتصبر حتى أنساك وأكون بكاملها.

- مهما كان، لن أكون سببًا في هدم أسرة ما زالت في بداية الطريق.

- ندى.. أرجوكِ دعينا لا نسبق الأحداث، دعينا نأخذ كل يوم بيومه؛ لقد ضاع منا الكثير في تلك السنوات الماضية، فدعينا نسترجعها رويدًا رويدًا.

لم تُجبه ندى، فلا يوجد ما يُقال، ها هو القدر يلعب معهما لعبته الغامضة كما فعل منذ أول لقاء لهما في السفينة، حتى يوم لقائهما في شرم الشيخ.

- مالك.. لا أريد أن أفكر في الماضي، ولا أحب أن أقول «لو كان»، فما جرى قد جرى، وأكد هو قَدَر مكتوب، أكيد ربنا -سبحانه- يعلم جيدًا كيف يدير حياتنا، وأكد له حكمة في فراقنا كل هذه المدة، وفي لقائنا الآن، حكمة ربما لن نعرفها اليوم ولا غدًا، يمكن لن نعرفها أبدًا ولكني بصراحة لا تسعفني

الكلمات لأصف لك شعوري في هذه اللحظة، مشاعر كثيرة متداخله في رأسي، أرجوك خذني للبيت، فأنا أحتاج الاختلاء بنفسي.

- لا لن آخذك للبيت الآن، ما زال بيننا كثير لم يُقَل بعد، ما زالت بيننا سنوات من الأخبار والأحداث تحتاج لساعات وساعات حتى تُقال.

من أجمل الأشياء وأنقاها التلقائية في التعامل؛ إذا اشتقت أفصح، إذا حزنت ابك، إذا سمعت ما يسعدك اضحك بملء فيك، إذا عشقت صرّح، إذا غضبت عاتب، إذا كرهت ابتعد.. أهم شيء ألا نكتم مشاعرنا في قلوبنا ونغلق عليها ونتجاهلها، فالمشاعر كبخار الماء، إذا لم نُخرجها أولاً بأول ستنفجر، وما أدراكم ما انفجار المشاعر!

جلست بجانبه في المطعم المُطل على النيل، يداها في يديه كأنها في دنيا ثانية، لا تشعر بالهواء الذي يضرب وجهها ويلعب بشعرها، ففي قلبها دقائق أقوى من أي هواء، وفي عقلها مليون كلمة صوتها أعلى من صوت الموسيقى التي تخرج من سماعات المكان، مليون كلمة تريد أن تقولها لمالك عن تلك الليالي التي قضتها تفكر فيه، عن سلسلته التي كلما تحركت حول رقبتها كانت تخرج ذكرياتها معًا في رحلة السفينة، من خانة الذكريات إلى الصف الأول في عقلها، كانت تريد أن تقول له عن تلك الدعوات التي كانت تدعوها له في كل صلاة، عن الجرائد التي كانت تبحث فيها عن أي خبر يمكن أن يدلها عليه وعلى مهمته المجهولة، عن وجوه الناس التي كانت تتأملها كلما خرجت عساها تراه في أحدهم، عن مطعمه الذي كان قبلتها التي يجب أن تمر عليها يوميًا.

- ندى.. أنتِ لم تنطقي كلمة منذ دخلنا هنا، ألا يعجبك المكان؟ ألسنت سعيدة مثلي أن الله جمعنا معًا مرة أخرى بعد طول فراق؟

- طبعًا سعيدة جدًا، ولكن ما جرى في اليومين الماضيين كثير جدًا لعقلي أن يستوعبه مرة واحدة، حتى كلمة «حبيبتي» منك لم أعتدها بعد، بالرغم أنني طالما حلمت بهذه اللحظة وحلمت بك تنطقها؛ دعنا نأخذ الأمور على مهل، دعنا نتكلم ونحكي عما جرى لكل منا منذ افترقنا هذه الليلة في السفينة.

كلمات نطقت بها ندى ثم ندمت، فمعنى ذلك أنها ستضطر أن تحكي له عن طارق وقصتها معه، ولكنه كلام خرج ولا مجال للتراجع فيه، فأكملت بابتسامة على وجهها:

- برغم أنك متابع جيد لكل تطوراتي في عملي، وأعلم أن الجزء الذي لم تعرفه من كتاباتي حكته لك أُمي اليوم بينما كنت نائمة.

- بالفعل... كلامك سليم ولكن...

وعند «لكن» أسقط في قلب ندى، فهي توقعت سؤاله القادم، وكادت أن تقاطعه علّه لا يسأل عما يخيفها، ولكنها تركته يسأل، فهو ليس بسر، وأكد سيعرف بعلاقتها بطارق عاجلاً أم آجلاً، إذًا من الأفضل أن يسمعها منها هي الآن.

- آسفة.. عقلي أخذني بعيدًا فشتتُ منك، ماذا كنت تقول؟

- كنت أقول إنني عرفت كل شيء من أمك، ما عدا مشاعرك وأحاسيسك، ما عدا قلبك في السنوات الثلاثة الماضية ومن سكنه غيري وكيف شغلته، كل هذه التفاصيل أريد أن أسمعها منك، أحتاج أن أرى الشغف في عينيك مثل زمان، أستشعر حبك بين حروف كلماتك. ندى.. فلنعوض ما ضاع منا قبل سنوات.

حكّت له ندى كل ما جرى في حياتها بالتفصيل، كل شيء، حتى قصتها مع طارق، منذ أول لقاء بينهما بسبب قضية النفايات السامة، وصولاً إلى رحلة الإسكندرية.

- هذه الفترة في حياتي التي تعرفت فيها بطارق، فترة كنت فيها فقدت الأمل في رؤيتك مرة أخرى، وكان عندي شبه يقين أن قصتنا انتهت بانتهاء رحلة السفينة، وأنت لن ترجع من أجلي، وما أكد لي ذلك هو انقطاع آخر خيط قد يصلني بك، وهو مطعمك في القاهرة، ولكن قبل أن ننهي الكلام عن قصتي مع الرجل الآخر الذي دخل حياتي بعدك، يجب أن تعرف شيئًا، وأريد أن أرى في عينيك أنك تصدقني. مالك، أنت لم تفارق قلبي ولو للحظة، كما لم تفارق سلسلتك رقبتني منذ ألبستها لي بيدك في هذه الليلة في السفينة، حتى أيام مضت، وكما لم تفارق دعائي كل ليلة أن يحفظك الله من أي سوء. مالك، أنت ملكت في ما لم أسمح لشخص آخر بالاقتراب منه.

وكانت كلماتها هذه هي الإشارة التي كان مالك ينتظرها، ليأخذها بين أحضانه ويحتويها بقوة وحنان، كانت في أشد الحاجة إليهما، ولكنها في نفس الوقت ترفضهما، فهو الآن رجل متزوج، وهي لن تكون مثل المرأة التي هدمت بيتها وأخذت منها زوجها.

وتفادت ندى أن تحكي لمالك بعض تفاصيل علاقتها بطارق، برغم أنه أكد لها أنه لن يغضب من أي شيء تحكيه له، ولكنها كانت متوجسة خيفة من ردة فعله عندما يعرف تلك التفاصيل الصغيرة من كلمات حميمية ولمسات وخلافه، وفي نفس الوقت كانت تشعر أن تلك التفاصيل الصغيرة ملك لها ولطارق وحدهما، وليس من حق أي شخص آخر أن يطلع عليها.

- أما وقد عرفت كل ما يخصني في فترة غيابك، أعتقد أن من حقي أن أعرف أنا أيضًا تفاصيل مهمتك ونشاطك الجانبي بجانب المطاعم، هيا كلي آذان صاغية.

- ما ستسمعيه مني الآن يمكن أن يخيفك أو يقلقك من الارتباط بي، وربما يعطيك انطباعًا بأن ما أحكيه قد أخذتُ بعض تفاصيله من أحد أفلام الأكشن الأمريكية، ولكنها الحقيقة، وعمومًا الموضوع انتهى بالكامل بانتهاء هذه المهمة، لأنهما كانا مرتبطين ببعضهما.

وحكى لها مالك قصة أغرب من الخيال، حكى لها أن والده العراقي هرب به وبوالدته المصرية من بطش النظام في بلده إلى إحدى دول شرق أوروبا، حيث افتتح مطعمًا صغيرًا للأكلات العربية، وسرعان ما لاقى إعجاب سكان المدينة حيث يقيمون، ثم فتح فرعًا أكبر وأكثر تنوعًا في أنواع المأكولات، وخلال سبع سنوات كان للمطعم فروع في عدد من دول شرق أوروبا وباريس ولندن والقاهرة والأردن.

ثم تعرّف أبو مالك على أحد رجال الأعمال الروس ذوي الأصول العربية، الذي يعمل في استيراد المنتجات الزراعية من الدول العربية، وتسويقها في أوروبا، وعرض عليه هذا الروسي أن يتشارك في الأعمال، حيث يفتتح فروعًا لمطاعم أبي مالك في عدد من المدن الروسية، وفي المقابل سيُدخله شريكًا في عمليات استيراد وتصدير المنتجات الزراعية، وبدأت أعمالهما تزدهر، فمن ناحية أصبح المطعم من ضمن المطاعم المُصنّفة عالميًا من حيث الخدمة والنظافة وتنوع المأكولات ورضاء العملاء، ومن ناحية أخرى كبرت تجارة استيراد وتصدير الخضراوات والفاكهة، وأصبح لهما كثير من العملاء العرب والأجانب، حتى اكتشف أبو مالك بالصدفة من أحد أصدقائه القدامى في المخابرات العراقية أن شريكه الروسي يعمل في تجارة الأسلحة، ويستغل شحنات الخضار لتهرب الأسلحة من وإلى بلاد كثيرة، وأهمها مصر ولبنان

وسوريا. وكان هذا الشريك يُجهّز شحنة وضع فيها تقريبًا كل ما يملك من سيولة نقدية، وباحترافية عالية خبأ الأسلحة داخل الحاويات التي ستصل مصر لترجع بالمنتجات الزراعية لأوروبا، فتواصل والده مع المخابرات المصرية ليتصرّفوا قبل دخول الشحنة مصر، فهو رأى كيف دمّرت وقسمت بلده على يد المليشيات التي كانت يُهزّب لها السلاح، فلم يُرد هذا المصير لبلدان أخرى، وخصوصًا مصر.

وفي ميعاد سفر الحاويات وفي آخر لحظة بالاتفاق مع المخابرات المصرية، بدّل أبو مالك حاويات الأسلحة بحاويات أخرى فارغة، وأخذ الحاويات التي تحتوي على الأسلحة إلى مكان مجهول، ولم يسعفه الوقت أن يخبر أحدًا من المخابرات عن مكانها، فعندما بلغ عمال سفينة الشحن الشريك الروسي بوجود اختلاف في وزن الحاويات بعث بعضًا من رجاله، ليكتشفوا موضوع تبديل الحاويات، وفهم أن أبا مالك هو الذي أبدلها، فخطفوه وحاولوا أن يعرفوا منه مكان إخفاء تلك الأسلحة، ولكنه لم يُفصح عنها، ودفع والده حياته ثمناً لإخفائه تلك الأسلحة، فبعد أيام من اختفائه وجدوا جثته تطفو في أحد الأنهار في المدينة التي يقيمون فيها، وبعد تشريح الجثة اكتشفوا أن ذبحة صدرية داهمته، وغالبًا لم يستطع مختطفوه إسعافه أو نقله للمستشفى، وبقي المكان الذي نُقِلت إليه شحنة الأسلحة مجهولاً بالنسبة للجميع، مالك وأمه والمخابرات وشريك والده.

وأكمل مالك قصته لندی، التي كانت تستمع له والذهول يملؤها مما تسمعه، ثم حكى لها كيف أخذ أمه وأخته الصغيرة التي وُلدت بعد تركهم العراق

بسنوات، ورجعوا مصر ليستقروا فيها، عندما اتصل به أحد أصدقاء أبيه من قبرص ليبلغه أن معه رسالة هامة تركها معه أبوه قبيل وفاته بأيام.

وحكى إنه ما أن أبلغ المخبرات المصرية بهذه المكالمة بدؤوا على الفور في اتخاذ الإجراءات اللازمة لسفره لقبرص، عندما اكتشفوا أن أحد أجهزة الكومبيوتر في قسم من أقسام مبنى المخبرات قد تعرّض لعملية قرصنة محترفة، وقد تأكّدوا أن الملفات الخاصة بعمليات الإتجار وتهريب الأسلحة قد استُولِيَّ عليها، بما فيها معلومات عن التكتيكات الخاصة بالإدارة والعملاء السريين الذين يعملون متخفين، وقد تأكد المسؤول التقني أن ملفات هذه العملية هي المستهدفة أصلاً من هذه القرصنة، بما أن الملف الذي يحتوي معلومات خاصة بالأفراد المشاركين في هذه العملية والخطط كاملة هو أول الملفات التي تم الدخول إليها.

وبعد هذا الاختراق لجهاز كومبيوتر في أحد أقوى أجهزة المخبرات في العالم، تأكد للعميل المسؤول عن العملية أن الشريك الروسي لأبي مالك وراءه من هم أقوى منه وأكثر احترافاً، وعلى الفور العناصر المسؤولة في المخبرات عن تلك العملية نَبَّهت مالك بأن شركاء أبيه وأتباعهم يضعوهم تحت المراقبة الشديدة، وأن هناك خطراً على عائلته، وحينها اقترحوا عليه أن يُهرَّب أمه وأخته خارج البلاد حتى لا يستغلها شركاء أبيه للضغط عليه، في حالة اكتشافهم أنه ذاهب لاستلام الرسالة التي تركها له في قبرص.

وأكمل مالك كلامه وهو يتفادى النظر في عيني ندى، اللتين كان يرى فيهما مئات التساؤلات:

- وكانت هذه الفترة هي الفترة التي تعرّفْتُ عليكِ فيها على السفينة يا ندى، في الوقت الذي أقابل فيه حب عمري أضطر أن أذهب في مهمة يمكن أن ينتهي فيها عمري، في هذه الليلة بعدما نزلت من السفينة بصحبة رجال المخابرات المصرية أخذوني إلى قبرص، وبعدها تأكدنا أننا غير مُراقبين ذهبنا وحدي لصديق والدي، وحصلت منه على خطاب من أبي يشرح لي فيه كل شيء، ويوصيني على أمي وأختي، ويبلغني أنه ترك لي في الخزانة المشتركة بيننا في بنكنا في رومانيا خطابًا مهمًا.

وطبعًا فهمنا أن مفتاح السر في هذه الخزانة، ولكن كانت المشكلة الكبرى كيفية الوصول للخزانة دون أن يعرف شركاء أبي، عن طريق أتباعهم في البنك وفي كل مكان، وخصوصًا في دول شرق أوروبا، لذا أخذت العملية فترة من الوقت، حيث سافرتُ إلى رومانيا، وتعاملت بطريقة طبيعية كأنني لم أعلم شيئًا بخصوص شحنة الأسلحة المختفية ونشاط شركاء أبي، ومررت أسابيع وأنا مُراقب من الجانبين، شركاء أبي وأعاونهم من ناحية، والمخابرات المصرية من ناحية أخرى.

وبعد مرور ما يقرب من شهرين حصلت عملية سرقة كبيرة في البنك الذي نتعامل معه في رومانيا، واضطروا لاستدعاء جميع العملاء الذين يمتلكون خزائن في البنك ليراجعوا ما في هذه الخزائن، ويبلغوا عن المفقودات، وكانت هذه عملية داخلية باتفاق بين المخابرات المصرية ومجلس إدارة البنك، الذي كان أحد أهم أعضائه من المصريين المهاجرين لرومانيا منذ أكثر من أربعين عامًا.

ويومها ذهبت للبنك، وطبعًا كنت مُراقبًا من أشخاص تابعين لشركاء أبي، وعندما خرجتُ من البنك بعدما راجعت الخزينة، سُرقت حقيبة أوراق أخذتها من الخزينة. ولكن ما لم يعرفه شركاء أبي وقتها أن الحقيبة التي سرقوها تحتوي على معلومات مُضلّلة عن مكان إخفاء والدي للشحنة، وتُصب كمين لهم في العنوان المذكور فيها، وقُبِض على أغلب شركاء أبي ومعاونيهم، ولكنها للأسف شبكة كبيرة ومتشعبة في بلدان كثيرة، إنما بالتأكيد ستقع في يوم من الأيام في غلطة تكشفها.. الله كبير يا ندى.

لحظات طويلة مرت بمالك ينتظر أي ردة فعل من ندى، وعندما طال الصمت بندى داعبها قائلاً:

- ما أسكت الله لك من حس يا ندى! خفتِ على نفسك وعلى سميحة أم ماذا؟!

ابتسامة حزينة خرجت من بين شفطي ندى:

- لا لم أخف نهائيًا، ألم تسمع مني منذ قليل عن مغامرتي في الميناء ومطاردتي لشحنة النفايات السامة؟ أنا لا أخاف من شيء ما دمت على حق، وعندما نكون على حق يكون الله سبحانه معنا، يحفظنا ويبارك كل خطواتنا.

- إذا ما بك؟ لماذا ألمح حزنًا في عينيك وفي نبرات صوتك؟

فجأة بدأت ندى في بكاء هستيري لم تستطع أحضان مالك أن تهدئ من وتيرته.

الحميمية هي المقدرة على خلع غلاف أدق مشاعرنا وأكثرها خصوصية، مع شخص معين، ونحن متأكدين أنه سيحتفظ بما بُحنا به معه في أعماقه.

- ٣٣ -

دقائق طويلة مرت عليها وهي تبكي في أحضانه، دقائق مرت عليه كالساعات وهو تنتابه مشاعر مختلفة من حيرة وخوف وقلق على ندى، التي لم تتوقف دموعها لحظة عن النزول:

- أرجوكِ يا ندى طمئيني، ما بك؟

- لا شيء يا مالك، ولكن كلما أتخيل ما مررت به وحدك في هذه الفترة والأخطار التي كنت مُعرَّضًا لها، وأنا هنا في مصر لا أعلم عنها شيئًا، أكاد أفقد عقلي، هذه أكثر فترة في حياتك كنت تحتاج فيها لمن يشد أزرع، عمومًا الحمد لله أن تلك الأوقات مرت على خير بحلوها ومرها.

- والله يا ندى كنتِ معي في كل لحظة، فمذ افترقنا على السفينة أنتِ لم تفارقي خيالي ولا قلبي، حتى عندما عرفتُ من سميحة أنك سترجعين لوالدها، لم أستطع إخراجك من داخلي، أنتِ لا تتخيلين ردة فعلي عندما اتصلتُ بي والدتك بالأمس وجئت عندكم البيت وحكت لي الموضوع كاملاً، كنت أريد أن أنزل وأُحضِر المأذون على الفور، لولا أن والدتك منعتني. كفانا وقت ضائع، كفانا فراق، تزوجيني الآن، حالاً.

- ههههه، يا ليت، ولكن الموضوع ليس بهذه السهولة، فهناك الآن أطراف أخرى معنية، لم يعد الأمر يخصني أنا وأنتِ وسميحة، لقد دخلت زوجتك وطفلك في المعادلة.

- أتفهم جيدًا ما تقولين، ألا تعتقدي أنني فكرت في موضوع زوجتي وطفلي عشرات المرات ونحن نجلس معًا الآن؟ لكن ما بيننا أنا وأنتِ مختلف عما بيني وبينها، كفانا تفكير في غيرنا مؤقتًا، دعينا نعيد التعرّف مرة أخرى بعضنا على بعض في الأيام القادمة، فكلانا تغيّر فيه الكثير وغيّرتّه ظروف وأحداث مرت به.

وثاني يوم صباحًا، استيقظت ندى بقرار أن تترك نفسها على سجيّتها مع مالك، بالرغم من رفضها فكرة أن تتعدى على حُرمة زواجه، ولكن سفر زوجته لعائلتها في فرنسا حتى موعد ولادتها، ساعدها نوعًا ما أن توافق مالك فيما طلبه، ثم هي تدين لنفسها بسنوات وسنوات من الحرمان العاطفي، تدين لها بكل مرة دق فيها قلبها دقة زيادة كلما داعبته ذكرى مالك، تدين لها بعدد مرات رفضها لمحاولات كثيرة من رجال التقت بهم خلال هذه السنوات الماضية، من أجل ذكرى حبها الذي كان مع مالك، وها هي ستحقق حلم حياتها، ستعيش معه قصة حبهما التي لم تكتمل بكل التفاصيل التي تمت أن تتشاركها معه.

ولكن مع مرور الوقت والاحتكاك اليومي بينها وبين مالك وجدت عقلها يستدعي ذكرياتها مع طارق، في كل موقف مماثل تجد نفسها فيه مع مالك. وجدت نفسها في دوامة تسحبها لعقد كثيرٍ من المقارنات بين طارق ومالك. حيرة شديدة كانت تنتابها، فما تشعر به حاليًا تجاه مالك ليست هي المشاعر التي تخيلت أن تشعر بمثلها عندما يجتمعان مرة أخرى، وجدت -على عكس ما تخيلت- أن طارق ما زال موجودًا بداخلها، برغم أنها اعتقدت أن مجيء مالك سيمسح كل ذكرياتها معه. لقد كانت ذكراه تقفز أمام عينيها كلما مرت بمكان

مرت به مع طارق، المطاعم التي كانا يذهبا إليها كانت بالنسبة إلى ندى خطأ أحمر ترفض الذهاب إليها مع مالك، حتى اقتراحه أن يأخذها في نزهة في النيل رفضتها رفضًا باتًا، فالنيل ملكها هي وطارق فقط، ماؤه كانت شاهدًا على بدايات قصتهما معًا، شاهدًا على أول قبلة تبادلها، شاهدًا على أحضانه والنار التي كان يستطيع أن يشعلها بداخلها بمجرد أن يهمس في أذنيها بكلماته الساحرة.

حيرة عجيبة تملكتها، فما هو حلم حياتها يتحقق ومالك موجود معها، ولكنها لم تشعر بما توقعت الشعور به، ها هي تجلس بجانبه ولكن لا تعتربها الرغبة بأن تقترب منه وتلقي برأسها على كتفه كما كانت تفعل مع طارق كلما اقترب منها، لم تستطع حتى الآن أن تلبس سلسلته مرة أخرى، فمنذ خلعتها عن رقبتها وهي تشعر براحة وحرية لا تفسير لهما، لسانها لا يستطيع أن يناديه بكلمة حبيبي، حتى ذكرياتهما في رحلة السفينة أصبحت ضبابية في ذاكرتها.

جلست ندى في سريرها هذه الليلة تقاوم النوم الذي يداعب جفنيها وتفكر في كل ما مرت به من ظروف وتغيرات كثيرة في هذه السنوات، جلست وفي عقلها مائة سؤال ومليون عتاب للقدر الذي يلعب معها لعبة غريبة، فكل مرة تكون على وشك قلب صفحة من حياتها والبدء في صفحة أخرى يتدخل ويقلب لها كل خططها رأسًا على عقب، كذكرياتها مع طارق التي طفت على سطح حياتها في هذا التوقيت، فبدلاً من أن تبدأ صفحة جديدة في حياتها خالية من أي آثارٍ للماضي، ها هو الماضي نفسه يظهر لها متمثلاً في ذكرى طارق.

«ما هذه الحيرة يا ربي؟! كيف لطارق الذي لم أشعر معه بمشاعر حب جارفة كالتي شعرت بها مع مالك أن تخرج لي ذكراه كشبح يطاردني كلما كنت مع مالك؟ ما هذا التخبط الذي ينتابني؟ لماذا يستدعي عقلي طارق ومواقفه وكلماته كلما كنت مع مالك؟ هل لأنه كان الرجل الوحيد الذي دخل حياتي بعده؟ ولكني لست بفتاة مراهقة تتعلق بأي رجل تقابله، أنا امرأة ناضجة مررت في حياتي بمواقف كثيرة وقابلت أشخاصًا أكثر وتعاملت معهم، إذًا لماذا طارق؟! هل أحببته فعلاً دون أن أشعر؟ ما هو الحب أصلاً؟ هل الحب رغبة أم تعوّد، أم مجرد حاجة إلى الونس، أم حاجة إلى سند وظهر في الحياة؟ هل الحب هو الشعور بالأمان بالقرب من شخص ما؟

الحب هو كل ما سبق يا ندى، الحب اهتمام، الحب هو الشعور بالأمان بالقرب من شخص معين، الحب حميمية لا نشعر بها إلا مع الشخص الذي نحبه، الحب رغبة في أن نتحد مع من نحب فنصبح واحداً».

وغلبيتها النوم قاطعاً عليها حبل أفكارها، لتستيقظ على وجود مالك ينتظرها في الصالون مع أمها، ويبلغها أنه يجب أن يسافر على الفور إلى زوجته في فرنسا، حيث إنها دخلت في مخاض مبكر. وطلب منها التفكير في أمر زواجهما حتى يعود.

- ندى.. أنا لا أريد أن أضيّعك من بين يديّ مرة أخرى، فأنتِ الحلم الجميل الذي عشت أحلم به، وها أنا على بُعد خطوات من تحقيقه. أرجوكِ فكّري جيداً في أمر زواجنا حتى أعود من فرنسا.

نظرت إليه ندى نظرة طويلة تحمل كلمات كثيرة غير منطوقة، كلمات قرأها مالك وفهم ما الذي تريد قوله.

- أعلم أنك تفكرين في زوجتي ولا تريدين هدم بيتي، كما حدث معك أنت وإسماعيل، ولكنني أختلف عنه، سأستطيع أن أوفق بين حياتي معك وحياتي مع زوجتي وطفلي في فرنسا، فمئذ زواجنا وهي تُلح عليّ لفتح فرع لمطعمي هناك تكون هي مسؤولة عنه، وساعتها سأكون بين مصر وفرنسا، ولن أقصر معها ولا مع ابني في شيء، دعينا نستمتع بحبنا ما تبقى لنا من عُمر يا حبيبتي، فكري بقلبك قبل عقلك، وتذكري أوقاتنا معًا، فهي ستكون شفيحًا لي عندك.

ونزل مالك تاركًا ندى في حيرة دامت لأيام وأيام.

كثيرون منا يقعون في حيرة عندما يجدون أنفسهم في علاقة لا تُسمّى لها.. هل هذه هي العلاقة التي يمكن أن تستمر العمر كله؟ هل هذا هو الشخص الذي سأكمل معه حياتي بحلوها ومُرّها؟ هل هذا هو الشخص الذي مهما مرت بحياتنا عواصف شديدة سيكون ظهري وسندي؟ هل سأعيش عمري سعيدة باختياري هذا أم سأندم عليه مع مرور الوقت والمواقف؟ أسئلة كثيرة تدور في رأسنا عندما نكون في علاقة ما، عندما نجد في أنفسنا مثل هذه التساؤلات، وعندما تُجئنا الحيرة وتعصف برؤوسنا الشكوك.. استفتوا قلوبكم، فكثيرًا ما يبصر القلب ما لا تراه العين.. استفتوا قلوبكم.

كان زهاب ندى للدكتورة النفسية التي سبق واستشارتها من قبل في مشكلتها مع سميحة، أمرًا لا مفر منه، فمرحلة التخبُّط النفسي التي وصلت إليها لم يعد يجدي معها ما درسته في كورس علم النفس على الإنترنت منذ سنوات مضت، ولا عاد يجدي معها جلساتها المطوّلة مع نفسها ولا فضفتها مع أمها ولا تحليلها للأمور على صفحات كراستها، فلقد وصلت لمفترق طرق تحتاج أن تتخذ فيه قرارًا سريعًا سيُبنى عليه كثير من أمورها المستقبلية.

جلست ندى أمام الدكتورة وهي تشعر بعدم راحة، فهي لم تتعوّد أن تفتح أبوابها لغرباء تحكي معهم ولهم، وعندما استشعرت الدكتورة حرجها اقترحت عليها أن تؤجل الجلسة لميعاد آخر تكون مستعدة فيه للكلام، وهذا بالطبع لم يتماشى مع رغبة ندى، فهي كانت كعادتها في عَجَلَة من أمرها، وتحتاج أن تقرر لتزيح عن كاهلها همّ هذا القرار.

لحظات من الصمت أعقبت اقتراح الدكتورة، وبعدها قررت ندى أن تتكلم، وحكت لها قصتها مع مالك، منذ اللحظة التي تقابلا فيها على السفينة، وحتى عرضه عليها الزواج قبل أن يسافر فرنسا ليحضر ولادة ابنه.

- أستاذة ندى.. أنا لم أفهم الغرض من زيارتك لي! هل تريدان جلسة علاجية، أم مجرد رأي في أمر مالك؟! إذا كان مجرد رأي فأنا لن أستطيع مساعدتك، فأنا أحتاج أن أعرف معلومات أكثر بكثير مما قلته لي لأستطيع أن أساعدك في اتخاذ القرار السليم، ولأكون صريحة معك هذا الأمر لن ينتهي في

جلستين أو ثلاثة، يمكن أن يمتد لأكثر من ذلك، وفي نهاية الأمر القرار قرارك. خذي وقتك للتفكير وأنا سأحجز لك موعدًا بعد غد تكونين قد فكرتِ براحتك واتخذتِ قرارك دون ضغط مني، ولو قررتِ أن نبدأ معًا فأقترح عليك أن تؤجلي مؤقتًا اتخاذ أي قرار يخص أي موضوع.

وجاء بعد غد حاملاً لندی راحة كبيرة مع أول كلمات خرجت منها، وامتدت الجلسة لجلسات طويلة حكت فيها ندى للدكتورة قصة حياتها منذ مولدها تقريبًا وحتى اليوم.

وعندما اقترب موعد انتهاء الجلسات لسفر الدكتورة في مؤتمر في أمريكا، يتبعه إجازتها السنوية، احتاجت ندى أن تصل مع الدكتورة لفيصل في حكايتها مع مالك، فهل تقبل عرضه أم لا؟ وجاءت إجابة الدكتورة غير ما أرادت ندى:

- أستاذة ندى.. أنا لا أستطيع اتخاذ قرارات بالنيابة عنك، أنا كل ما أستطيع عمله هو تحليل ما حكيته ووضعه لك في صيغة نقاط تساعدك على فهم نفسك أكثر، وستكون مفتاحًا لكثير من الأمور التي تشغل بالك ولا تجدين لها إجابة. حياة كل منا تنقسم إلى مراحل: مرحلة الطفولة والبيئة المحيطة به وتأثيرها عليه، ثم تأتي مرحلة الشباب والتغيرات الجسدية والنفسية التي تمر علينا، ثم تأتي مرحلة النضج العاطفي والتي يصحبها في المعتاد الارتباط والزواج، والمفترض أن تكون مرتبطة بالاستقرار النفسي والعاطفي، وطبعًا في بعض الأحيان توجد مرحلة تالية مثل حالتك، المرحلة التي تلت طلاقك وبدائتك من جديد، سأبدأ معك رويدًا رويدًا منذ البداية، منذ طفولتك، التي سنجد أنها شكّلت جزءًا كبيرًا من طبيعتك العاطفية، فعلاقة

أبيك وأمك كانت بالنسبة إليك هي الصورة التي تكوّنت في خيالك عن العلاقة العاطفية والزوجية بين أي اثنين، وصحبتك هذه الصورة عن علاقتهما في كل مراحل حياتك، وأصبح هذا هو تصوّرِكَ الوحيد عن أي علاقة بين اثنين، أما مشكلتك مع إسماعيل فبدأت من قبل أن تتقابلا وترتبطا، بدأت عندما نذرتِ قلبك وحبك وعاطفتك لشخص واحد فقط، هو الشخص الذي سترتبطين به برباط الزواج، فحشدتِ في هذا الارتباط كل آمالك وأحلامك التي طالما تمنيتها وتخيلتِ أن تفعلها مع من سترتبطين به، ولكن بالطبع هذا لم يلاقِ الاستجابة التي توقعتها من إسماعيل نظرًا لطبيعته العملية وشخصيته المُسيطرة، وهنا كانت أول صدمة في علاقتهما، والتي تلاها -كما قلتِ بنفسك- بناؤك في خيالك حياة كنتِ تهربين إليها كلما اشتقتِ للحب والحنان الذي لم يعطه لك. ثم جاء الشرخ الكبير في علاقتهما عندما لم يساندك في الفترة التي تلت وفاة أبيك وفقدانك لجنينك ثم اعتدائه عليك جسديًا، وحاولتِ أن ترممي هذا الشرخ في الفترة التي تلت تصالحكما، ولكنك من داخلِك لم تسامحيه قط على فعلته هذه، فعندما مدَّ يده عليك كسر بداخلك أمرًا لم تستطع كبرياؤك أن تنساه.. أراكِ مرهقة، أتريدين أن نتوقف اليوم ونكمل حديثنا في جلسة أخرى؟

- لا بالعكس يا دكتورة، كلامك هذا كنتِ أعرفه جيدًا، ولكنني كنتِ أحتاجه أن يوضع أمامي بهذه الطريقة؛ أرجوكِ أكملِي.

صبتِ لها الدكتورة كوبًا من عصير برتقال موجود في ثلاجة العيادة، وشربت هي فنجانًا من النسكافيه، وأكملت:

- أما الفترة التي تلت صدمتك في زوجك وطلاقك كانت فترة حاسمة في حياتك، هي عمومًا تكون فترة شائكة في حياة كل امرأة، فإما أن تخرج منها أقوى من ذي قبل، وإما أن تخرج منها مُدْمَرة وتحتاج سنوات وسنوات بعدها لتلملم أجزاء حياتها مرة أخرى، ونظرًا لطبيعتك القوية وشخصيتك التي لا تقبل الهزيمة وطبعًا مساندة عائلتك، فقد خرجتِ منها أقوى من ذي قبل، وجاءت بعدها فترة بدايتك الجديدة، وكانت هذه هي النقلة الكبيرة في حياتك، حيث اجتهدتِ وثابرتِ حتى تعوّضي السنوات التي ضاعت منك دون أن تحققي أحلامك، فبالنسبة إليك مدونتك ومتابعوها لم يكونوا كافين لتحقيق طموحك، ولكن ما لاحظته أنك بالرغم من كل هذه التغيرات التي مرت بك واستطعتِ أن تخرجي منها لكنك من الناحية العاطفية لم تتقدمي ولا خطوة واحدة. لا تغضبي، ولكنني أشعر أنك نظرًا للجفاف العاطفي الذي عشتِه مع زوجك السابق وفشله في تحقيق أبسط أحلامك الرومانسية فإنك ظلتِ هذه الشابة المراهقة التي تتمنى أن تعيش قصة حب بكل تفاصيلها الجميلة، ولذلك عندما قابلتِ مالك في السفينة ارتبطتِ به في مدة قصيرة، وأحببته وعشتِ على ذكراه شهورًا كثيرة، لذا أيضًا استجبتِ لمحاولات كاتب الرسائل في التواصل معك، ولكن من وجهة نظري الذي أثر فيك فعلاً وساعدك على تخطي مرحلة المراهقة التي كنتِ تعيشين فيها هو طارق، حيث عرّفك على جانب آخر من العلاقة بين الرجل والمرأة، جانب شامل كل شيء، لذا أنتِ كان عندك استعداد أن تعطي لعلاقتكما فرصة، ولكنك بعد رؤيتك لمالك في شرم الشيخ كل شيء في حياتك تغيّر، فظهوره في هذا التوقيت قلبَ حياتك 180 درجة، ورجع بك لهذه المراهقة الصغيرة التي أحبت من أول نظرة، رجع بك لكل هذه المشاعر البكر التي طالما حلمتِ بها

وتمنيت أن تعيشها، وها أنتِ بنفسك قلتِ لي إن بعد لقاءات كثيرة بينك وبين مالك وجدت أنه لم يكن الشخص الذي في خيالك، وأنا متأكدة أنك كثيرًا ما كان عقلك لا إراديًا يعقد مقارنات بين مالك وطارق، وهذا ما سبّب لك كل هذه الحيرة، فأنتِ اعتقدتِ أن بإنهاء ما بينك وبين طارق وغلق هذه الصفحة لن يطفو مرة أخرى على سطح حياتك، وفي نفس الوقت أنتِ تحاولين أن تُنجحي علاقتك بمالك لثُحيي أمانيكِ القديمة في الحب الرومانسي الذي طالما تمنيتِه وحلمتِ به.

- ولكن رغم كل هذا حضرتك لم تعطيني خلاصة الموضوع، ماذا أفعل؟

ابتسامة هادئة ظهرت على وجه الدكتورة.

- أستاذة ندى، كما قلت لك أنا لا أستطيع أن أتخذ قرارًا بالنيابة عنك، ولكن الشيء الذي أستطيع أن أفعله قمت به بالفعل، وهنا يأتي دورك أنتِ، لديك كل المعطيات وفي النهاية القرار قرارك، فهذه حياتك وأنت التي يجب أن تختار كيف تعيشها ومع من تتقاسم مشاعرها، استفتِ قلبك وعقلك معًا، فكري كثيرًا ولا تتخذي أي قرار إلا وأنتِ مقتنعة به مائة في المائة.

خرجت ندى من عيادة الدكتورة رأسًا إلى بيتها، حيث أمضت أيامًا كثيرة تجلس وحدها في حجرتها، تكاد تُجن من الحيرة، أيام كثيرة قضتها ندى في حالة من التخبط والتوتر.

وأنهت ندى أيام الحيرة هذه بمكالمة لمالك أنهت فيها ما بينهما بطريقة مباشرة، وأفهمته أن ما بينهما كان جميلًا في حينه، ولكن بالنسبة إليها الآن هي لا تجد بداخلها تلك المشاعر التي شعرت بها أيام السفينة. حاول مالك

الاعتراض وبذل محاولات لإقناعها بالرجوع في قرارها، ولكنها كانت حاسمة في حديثها معه.

وبعد أيام أخرى قليلة أمضتها ندى في حالة من الهدوء والراحة النفسية، ذهبت لتقف في صباح أحد الأيام باكراً أمام سيارة هي تعرفها جيداً، سيارة شهدت فيها أجمل أيام حياتها، ثم وضعت على زجاجها الأمامي زهرة واحدة من زهور التيوليب وقصاصة ورق مكتوبة عليها جملة واحدة:

«هل ما زلت تعتقد أن نظرة عيني حزن؟».

وجلست من بعيد تراقب زهرتها وقصاصتها لتعرف مصيرهما. لم تجلس طويلاً، نصف ساعة وكان طارق ينطلق بسيارته بعدما أخذ الزهرة وقرأ القصاصة، ودقائق أخرى وجدت رسالة من طارق على موبايلها «تأخرت علي كثيراً يا ساحرتي، ولكني كنت أعلم أنك ستعودين لأحضاني.. أفتقدك».

ظهرت آثار هذه الفترة من حياة ندى في مقالها الأخير الذي سلّمته للأستاذ توفيق، قبلما تأخذ إجازة الزواج وتسافر مع طارق في رحلة شهر العسل، التي قررا أن يقضياها في أسوان الساحرة بين النيل والمناظر الطبيعية.

«دستورتك سيدتي لحياة نفسية سليمة

بقلم/ امرأة سعيدة

ما سأكتبه لك يا سيدتي هنا هو دستور لحياتنا، دستور يضمن لنا حياة نفسية مستقرة.

أولاً: السعادة:

غضبانة؟ اضحكي.

مهمومة؟ اضحكي.

متضايقة؟ اضحكي.

حزينة؟ اضحكي.

اجعلي البسمة لا تفارق وجهك ولا قلبك؛ السعادة عدوى وأول أعراضها الابتسامة. اعملي كل ما في وسعك لتصيبي روحك بميكروب السعادة، حينها فقط ستكونين على أول طريق السلام النفسي، حينها فقط ستعرفين معنى

التصالح مع ذاتك.

امرأة سعيدة تعني أسرة سعيدة، تعني أبناء يعيشون عيشة سوية، يعني مجتمعًا متوازنًا.

كل شيء يبدأ من المرأة؛ ابدئي بنفسك.

ثانيًا: لا تقبلي بأنصاف حياة:

ابدئي.. لا تنتظري الغد.. إذا مللتِ من عملك غيّريه، إذا كنتِ غير سعيدة في علاقة ما فاعلمي أقصى ما في وسعك لتصحيحها، وإذا لم تستطعي انفصلي، إذا أردتِ إنقاص وزنك فابدئي الآن، لا تنتظري الغد، العبي رياضة، حتى لو مجرد تمشية لربع ساعة يوميًا. أحبي نفسك، لا تنتظري تشجيعًا من أحد. أنت تدركين جيدًا إمكانياتك، فلا تدعي أحدًا يهدمك أو يدمر ثقتك في نفسك.

استمتعي بكل لحظة في يومك، لأن اليوم الذي يمر لا يعود.. قولي لمن تحبينهم بأنك تحبينهم، وابتعدي عن يوترون لك أعصابك. احمدي الله دائمًا على نِعَمِهِ، واستغفريه كثيرًا على أخطائك التي تتذكرينها والتي لا تتذكرينها. لا تقبلي بأنصاف حياة.. لا تعيشي كالميتة ولكن تنفسين.

ثالثًا: لا تتنازلي عن الحب:

الحب شعور جميل، ينير الحياة من حولنا، يضح الأوكسجين في عروقنا، فيحيي أرواحنا التي أنهكتها الحياة بكل متطلباتها، لا تفقدوا الأمل، أحبوا وعيشوا وأسعدوا من حولكم.. أحبوا أولادكم، أقاربكم، أحبائكم، أحبوا الطبيعة، ولكن الأهم أحبوا أنفسكم.

رابعًا: الطبطبة:

من منا لا يحتاج من آن لآخر إلى طبطبة عابرة؟
طبطبة حنونة تقول لنا إن الله سبحانه وتعالى موجود ويدبر لنا كل أمورنا.
طبطبة تشعرنا أن الدنيا ما زالت بخير مهما واجهنا فيها أمورًا قاسية.
طبطبة تجعلنا نرى جمال الحياة من حولنا.
كلنا في عرض طبطبة، لِمَ لا يربت كل منا على من حوله؟ لو كل فرد بدأ يومه
بقرار أن يربت على قلب من يقابله كم ستصبح الحياة محتملة؟!
ولنوضح الأمر أكثر، دعونا نتفق أن الطبطبة ليست بالضرورة يدًا تربت عليك،
وإنما يمكن أن تكون ضحكة حلوة في وجه من نقابلهم، دعوة منك لكل من
تقابلهم «يسعد صباحك ويحلي أيامك»، الطبطبة ممكن تكون مكالمة أو
رسالة تقول لأحد إنه في بالك.. الطبطبات كثيرة، ولو كل فرد فكّر أكيد
سيعرف من يحتاج حوله إلى طبطبة وكيف يكون شكلها.

خامسًا: الغباء:

الاهتمام من طرف واحد غباء.

الحب من طرف واحد غباء.

العطاء والتضحية من طرف واحد غباء.

وللأسف العالم استكفى من الغباوة والأغبياء.

فلا تهتمي إلا بمن يهتم بك في المقابل.

لا تحبي حبًا من طرف واحد، لأنه حب محكوم عليه بالموت الإكلينيكي في النهاية.

لا تضحّي إلا لمن تعلم أنه سيضحّي من أجلك إذا احتجت إليه.

لا تعطي دون طلب مقابل، لأنك بذلك ودون أن تقصدي تقتلين مبدأ الأخذ والعطاء في أي علاقة.

كلمة أخيرة:

ليس عيبًا أن يحب الفرد نفسه.. ليس خطأ أن تشعرني باحتياجك إلى وقت نفسك وحدك تستمتع فيه بمنظر حلو أو فيلم في سينما أو قطعة جاتوه أو حتى قعدة حلوة على النيل مع نفسك. ليس حرامًا أن تشعرني بملل من حياتك كلها، فكلنا نصاب بهذا الشعور أحيانًا.. ليست أنانية منا أن نأتي لأنفسنا بهدية أو باقة ورد من آن لآخر.

العيب والخطأ والحرام والأنانية هي أننا نعيش حياتنا مربوطين في ساقية يدورها غيرنا، حتى لو كانوا أقرب الناس إلينا.
العيب والخطأ والحرام والأنانية أننا نقبل العيش بأنصاف حياة.
كل علاقة في الدنيا فيها أخذ وعطاء، حتى علاقة الفرد بنفسه، لذلك لا يصح أن يضغط الشخص على نفسه ويعصرها لآخر قطرة، لأن يومًا سيأتي ولن تجد شيئًا تستطيع إعطائه لنفسك أو لغيرك.

هذا دستورك سيدتي.. عيشي طبقًا لقوانينه تسعدين، والأهم لا تضعي مفتاح سعادتك في يد شخص آخر، ولا تقبلي أن تعيشي أنصاف حياة، فالحياة

أجمل من أن نعيش فيها بمبدأ «عيشة والسلام».

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائماً نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الإبداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: -0235611772 0235688678

هاتف محمول: 01000405450 / 01005248794 /01001872290

ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

kayan_publishing



kayanpubishing



KayanPublishing



Kayan.publishing



Kayanpublishing



+KayanPubishing

